مجلة إسلامية شهرية جامعة

البيان

AL BAYAN

السنة السادسة والعشرون . العدد ٢٨٣ . ربيع الأول ١٤٣٢ هـ . فبراير ٢٠١١ م

شعبية الإسلاميين... متى تساوي صفراً؟

الشذوذ في الفتوى

الفَهمَ... الفهم!

الفقيه والمفكِّر

في حوار مع مجلة (البيان)
الأستاذ الدكتور مصطفى حلمي:
الدين محرك للسلوك السياسي الغربي

جنوب السودان...
نهاية أزمة، أم بداية أزمات؟

مستشفى أبها الخاص

الراعي الطبي لمهرجان أبها للتسوق

إتفاقية التعاون الطبي مع جامعة ماكجيل بكندا ومركز ديترويت الطبي العالمي

استشاريون سعوديون في جميع التخصصات

مجمع خاص ومتكامل للنساء

كفاءات طبية متميزة

تجهيزات طبية حديثة

وحدات متخصصة في خدمتكم

- وحدة طب وجراحة المخ والأعصاب
- وحدة جراحة العظام والعمود الفقري
- وحدة جراحة التجميل وشفط الدهون
- وحدة جراحة الكلى والمسالك البولية
- وحدة الجراحة العامة والمناظير
- وحدة الأنف والأذن والحنجرة
- وحدة الأمراض الباطنية والمناظير
- وحدة أمراض الشرج والمستقيم

جهاز الليزر الأخضر KTP
لإستئصال تضخم البروستاتا

المنظار الجراحي

جهاز الأشعة تحت الحمراء للبواسير

- وحدة طب وجراحة العيون
- وحدة النساء والولادة
- وحدة الأطفال وحديثي الولادة
- وحدة جراحة الأطفال
- وحدة الجلدية والتناسلية
- وحدة الأمراض الصدرية
- وحدة العلاج الطبيعي والتأهيل
- وحدة أمراض الكلى
- وحدة السمنة والسكر
- وحدة الطب النفسي
- وحدة أمراض القلب والشرايين
- وحدة علاج الروماتيزم والمفاصل
- وحدة طب وجراحة الأسنان
- وحدة العناية المركزة

وحدة الطوارئ واستقبال الحوادث على مدار ٢٤ ساعة

جهاز الموجات الصوتية رباعي الأبعاد

جهاز الليزر الكربوني للعناية بالبشرة

جهاز قياس جهد القلب

جهاز ديكسا DEXA لقياس هشاشة العظام

أبها - شمال الخطوط السعودية -هاتف: ٢٢٩٢٢٢٢ فاكس : ٢٢٤٤٨٠١ ص ب : ١٧٩٤
البريد الإليكتروني : info@aph.med.sa www.aph.med.sa

ABHA PRIVATE HOSPITAL

مجلة البيان
إسلامية . شهرية . جامعة

الافتتاحية

٤ **وماذا بعد جنوب السودان؟** التحرير

العقيدة والشريعة

٨ **الشذوذ في الفتوى... الأسباب والأبعاد**
عبد الرحمن بن عبد العزيز العقل

قضايا دعوية

١٦ **الاستعمار والاحتفاء بالمولد!**
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف

قضايا تربوية

١٨ **أعمال الأبرار**
د. توفيق علي زبادي

الإسلام لعصرنا

٢٢ **اضطراب الملحدين (٤-٤)**
أ. د. جعفر شيخ إدريس

معركة النَّص

٢٦ **بين صورتين**
فهد بن صالح العجلان

حوار

٣٠ **حوار مع الأستاذ د. مصطفى حلمي**
حاوره مجلة البيان

نص شعري

٣٨ **ريحُ الحقّ**
مروان كجك (رحمه الله)

حدث وحديث

٤٠ **الفهمَ الفهمَ!**
د. يوسف بن صالح الصغير

خدمة العملاء

السعودية
ص. ب ٢٦٩٧٠ الرياض: ١١٤٩٦.
هاتف خدمة العملاء مباشر: ٢٢٥١٩٦٧
هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ ـ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

للمراسلات عبر البريد الإلكتروني

التحرير
editors@albayan.co.uk
خدمة العملاء
sub@albayan.co.uk
التسويق
sales@albayan.co.uk
العلاقات العامة
pr@albayan.co.uk

الموزعون

الأردن: الشركة الأردنية للتوزيع، عمان ص. ب ٣٧٥ هاتف: ٥٣٥٨٨٥٥، فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣.
الإمارات العربية المتحدة : شركة الإمارات للطباعة والنشر، دبي ص. ب ٦٠٤٩٩
هاتف : ٣٩١٦٥٠١، فاكس ٢٦٦٦١٢٦ .
سلطنة عُمان: مؤسسة العطاء للتوزيع، ص.ب ٤٧٣ ـ العذيبة ١٣٠ ـ هاتف: ٢٤٤٩١٣٩٩ ـ فاكس: ٢٤٤٩٣٢٠٠ .
البحرين: مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ـ **المنامة:** ص.ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ ـ ٥٣٤٥٦١، فاكس ٥٣١٢٨١.
السعودية : الشركة الوطنية للتوزيع:
هاتف: ٤٨٧١٤١٤ ـ فاكس: ٤٨٧١٤٦٠.
السودان: الخرطوم، مكتب المجلة ٨٣٢١٢١٨٣.
قطر: دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، الدوحة هاتف: ٤٥٥٧٨١٠ - ٤٥٥٧٨١١ - ٤٥٥٧٨١٢ - فاكس: ٤٥٥٧٨١٩.
الكويت: شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع، ص. ب: ٢٩١٢٦ ـ الكويت الرمز البريدي ١٣١٥٠ ـ هاتف: ٢٤٠٥٣٢١ ـ ٢٤١٧٨١٠ ـ فاكس: ٢٤٧٨٠٩.
المغرب: سوشبرس للتوزيع، الدار البيضاء، ش جمال بن أحمد ص. ب ١٣٦٨٣ ـ هاتف: ٤٠٠٢٢٣ ـ فاكس: ٢٤٦٢٤٩.
اليمن: دار القدس للنشر والتوزيع، صنعاء : ص.ب ١١٧٧٦ الطريق الدائري الغربي أمام الجامعة القديمة، هاتف: ٢٠٦٤٦٧ ـ فاكس: ٤٠٥١٣٥

رئيس التحرير
أحمد بن عبد الرحمن الصويان
alsowayan@albayan.co.uk

مدير التحرير
د. عبد الله بن سليمان الفراج

هيئة التحرير
أحمد بن عبد العزيز العامر
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف
د. يوسف بن صالح الصغير
فهد بن صالح العجلان
د.أحمد بن عبد المحسن العساف
فيصل بن علي أحمد الكاملي

سكرتير التحرير
إسلام السيد علي

عنوان المجلة على الشبكة العالمية
www.albayan-magazine.com

الحسابات

السعودية: مصرف الراجحي
آي بان: SA١٣٨٠٠٠٠٢٩٦٦٠٨٠١٠٠٢١٠٠٧

الاشتراكات

السعودية ودول الخليج	١٢٠	ريال سعودي
بريطانيا وإيرلندا	٤٧	يورو
أوروبا	٥٥	يورو
البلاد العربية وإفريقيا	٤٥	يورو
أمريكا وبقية دول العالم	٥٥	يورو
المؤسسات الرسمية	٦٠	يورو

ملف العدد

٤٦ **السودان... من شدِّ الأطراف إلى البتر**
مصطفى شفيق علام

٥٠ **الصهيونية العالمية في إفريقيا ومآلات انفصال جنوب السودان** الفريق أول ركن (م) العباس عبد الرحمن خليفة

٥٨ **انفصال الجنوب... عودة الثيران الملونة**
أحمد سعد

٦٢ **مستقبل السودان بعد الانفصال؟**
أمير سعيد

٦٦ **جنوب السودان على أعتاب دولة رومية كاثوليكية**
فيصل بن علي الكاملي

٧٠ **مسلمو جنوب السودان... إستراتيجية دعوية وأطر عملية** م. ماهر سالم قويدر

٧٦ مرصد الأحداث جلال سعد الشايب

قصة قصيرة

٨٢ «سُنَّةٌ حَسَنَةٌ» أحمد أبو شاور

عين على العدو

٨٤ **أحاديث صهيونية عن بدء العد التنازلي لحرب جديدة ضد قطاع غزة** د. عدنان أبو عامر

في دائرة الضوء

٨٦ **سرُّ العداء الغربي للإسلام ونبيه ﷺ!**
محمد عبد الشافي القوصي

قضايا فكرية

٩٠ **الفقيه والمفكِّر**
د. محمد الفقيه

منتدى القراء

٩٣ **بين الفتور والملَل وبين الإقبال والأمل**
سارة محمد حسن

الورقة الأخيرة

٩٤ **شعبية الإسلاميين... متى تساوي صفراً؟**
أحمد فهمي

[كلمة صغيرة]

تونس الخضراء... تونس المحترقة!

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين، وبعد:

أخيراً انكشفت حقيقة الحداثة والتحديث التي ضج العَلمانيون بتمجيدها حيناً من الوقت، وانكشفت حقيقة تونس (الخضراء) التي كانت أنموذجاً يحتذي به الليبراليون ويبشِّرون به بين الدول العربية والإسلامية.

انطلقت الثورة شعبية... بدأت عفوية، واستمرت عفوية، ثم ما لبث أن سقط القناع مظهراً تونس (المحترقة) بجحيم التقدميين.

لقد أبرزت هذه الثورة حقائق كانت مغيَّبة، لعل من أبرزها:

أولاً: الليبرالية التي يبشرون بها في عالمنا العربي لا تعني إلا القمع والقهر وتزييف خِيار الشعب؛ فهي ليبرالية انتقائية تقتصر على الحريات الاجتماعية (التحلُّل).

ثانياً: كشفت هذه الثورة الفساد الذي يضرب بأطنابه في أعماق الأرض، ويتسلط فيه مجموعة من الفاسدين على مقدَّرات البلد وخيراته.

ثالثاً: هذه الانتفاضة العارمة صرخة في وجه البطالة الخانقة التي عطلت البناء والتنمية، وكبَّلت الفتيان والفتيات بأُسُرٍ من الإحباط والعجز.

رابعاً: استمرت الإدراة السياسية تمارس الكبت والقهر السياسي الذي تعامل مع الظواهر الفكرية والاجتماعية بمنطق الإقصاء والتعالي وانعدام المبالاة، وهو ما أوجد هوَّة سحيقة مع الشعب.

خامساً: كشفتْ هذه الثورة أخيراً عن الفقر الذي امتدت ظلاله الشاحبة لتغطي معظم الشرائح، وبات يؤثر بعمق في المجتمع التونسي.

إنَّ للعامل الاقتصادي تأثيراً كبيراً في بناء الاستقرار الأمني، وترابط النسيج الاجتماعي؛ ولهذا لم يكن غريباً أنَّ كثيراً من شرائع الإسلام تأخَّر فرضها إلى العهد المدني. أما الغش التجاري، والتطفيف في المكيال والميزان، وعدم الحض على إطعام المسكين، وقهر اليتيم والضعيف، والتطاول على الحقوق، والظلم والبغي على الناس؛ فقد تواترت النصوص على التحذير منها منذ العصر الأول للبعثة النبوية، بل إنَّ النبي المصطفى ﷺ تحالف مع بني عمه قبل البعثة على ردِّ المظالم، وقال بعد البعثة: «لو دعيت به في الإسلام لأجبت».

فهل يفهم المصلحون هذا الدرس؟ وهل سيحافظ التونسيون على ثورتهم، أم ستُختَطف وتختزل في أقنعة جديدة؟

وماذا بعد جنوب السودان؟

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وإمام المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد قال وزير الأمن الداخلي للكيان الصهيوني (آفي ديختر) في محاضرة نشرتْها الصحف العبرية في العاشر من أكتوبر ٢٠٠٨م: (إن الهدف هو تفتيت السودان وشغله بالحروب الأهلية؛ لأنه بموارده ومساحته الشاسعة وعدد سكانه يمكن أن يصبح دولة إقليمية قوية، وإنه يجب ألاَّ يُسمَح لهذا البلد - على الرغم من بُعده عنَّا - بأن يصبح قوة مضافة إلى قوة العالم العربي؛ لأن موارده إن استُثمرَت في ظل أوضاع مستقرة، فستجعل منه قوة يُحسَب لها ألف حساب؛ ولذلك كان لا بد أن نعمل على إضعاف السودان وانتزاع المبادرة منه لبناء دولة قوية موحدة؛ وهذا من ضرورات دعم وتعظيم الأمن القومي الإسرائيلي).

وها نحن الآن نشهد تحقيق هذا المشروع (الصهيوأمريكي)؛ حيث انتُزع الجنوب انتزاعاً، بعد سلسلة من الكيد والمكر والتواطؤ الدولي والصمت العربي، تعرَّض فيها السودان لضغوط وإكراهات كبيرة جداً؛ فهل سيستفيد العرب عموماً والسودان خصوصاً من هذا الدرس، أم سيعود الغرب إلى استنساخ التجربة من جديد في السودان نفسه وفي العراق واليمن، وسنكرر الأخطاء نفسها في قراءة الواقع واستشراف المستقبل؟

إنها نازلة تاريخية لم تنته فصولها بَعْد، ولا يُستبعَد أن تكون تداعياتها أشدَّ خطراً وأكثر إيلاماً، وربما تُشجِّع على فتح أزمات وجراحات جديدة... ونحسب أننا في حاجة ماسَّة لتجاوز مرحلة الاتهام والتلاوم وإعادة بناء المستقبل، والاستفادة من الدروس والوقوف طويلاً عند المسائل الآتية:

أولاً: الاستفادة من التاريخ:

فبعد الاتفاقية البريطانية الفرنسية (سايكس بيكو) التي قسمت دول العالم الإسلامي إلى دويلات صغيرة، استمرت مشاريع التفتيت في العصر الأمريكي لإضعاف المسلمين وتفريق شملهم. والتاريخ الحديث لتقسيم الدول الإسلامية أثبت أن الخاسر الرئيس في كثير من تلك المشاريع هم المسلمون، ومن أبرز شواهد ذلك: تقسيم القارة الهندية، وانفصال تيمور الشرقية عن إندونيسيا، وانفصال سنغافورة عن ماليزيا.

والغرب يتعامل مع شعار (تقرير حق المصير) بانتقائية ظاهرة؛ ففي الوقت الذي يضغط فيه ويمارس أشد أنوع الاستفزاز من أجل انفصال تيمور الشرقية وجنوب السودان، يتعامل بصورة سلبية مفرطة إزاء حقوق المسلمين في كشمير، وتركستان... وغيرهما. وهذا يجعلنا نؤكد ما أشرنا إليه مراراً من أن مشروع الغرب الإستراتيجي هو إثارة النزاعات في العالم الإسلامي وإضعاف تماسكه، وانتهاب خيراته ومقدَّراته الاقتصادية. وقد ذكر الكاتب الصهيوني (العميد ميشي فوجي) في كتابه الشهير: (إسرائيل وحركة تحرير جنوب السودان: نقطة البداية ومرحلة الانطلاق) أن انفصال الجنوب سيكون انطلاقة جديدة لإضعاف العالم الإسلامي، وأن السياسة التي يتعامل بها الغرب مع المنطقة تعتمد على شَدِّ الأطراف ثم بترها.

ثانياً: سياسة التنازلات:

يتعامل الغرب مع الضعفاء بسياسة القوة والضغط والحصار، ويوظف أنصاره وحلفاءه لخدمة أهدافه، ويستخدم أدواته الرخيصة، وحروبَه القذرة، للتأثير على مسار الأحداث، وبقدر ما يجد من الضعف والتنازل فإنه يتمادى في الابتزاز والتسلط، ولن تقف طموحاته عند حدٍّ معيَّن؛ فهو يتعامل مع الأحداث بسياسة النَّفَس الطويل؛ إمعاناً في السيطرة والترويض. ويخطئ من يظن أن تقديم بعض التنازلات سيخفف من وطأة الضغوط الدولية؛ فالأيام علمتنا أن الغرب لا يحترم الضعفاء، وأن أطماعه لن تقف عند حدٍّ. وصدق المولى - جل وعلا - في قوله: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

إن الهوان الذي أصاب بعض المسلمين فتح الباب على مصراعيه لتسلُّط الأعداء وتطاولهم على حقوق المسلمين وديارهم، وجعل بعضهم يقدم تنازلات أكثر من المطلوب منه، ونحسب أن بناء العزة في الأمة وتربيتها على الثقة بالله - تعالى - وبنصره، من أهم مقومات الثبات والنصر. قال الله - تعالى -: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٠ - ٢٢].

ثالثاً: الاختراق الأمني والتدخل في الشأن المحلي:

إنَّ تَـرْك الفرصة للغرب للتدخل في الشؤون المحلية، والاتصال بالأقليات الطائفية أو العرقية أو الفكرية، يمثِّل بداية الاختراق الأمني والسياسي، وفي كل مجتمع يوجد من ضعاف النفوس وأصحاب الأهواء من لا يتردد في التعاون، بل التواطؤ مع الغرب والاستقواء به لتحقيق مصالحه الشخصية أو الحزبية على حساب مصالح أمته ودولته وشعبه. وقد رأينا عدداً من المفكرين والإعلاميين يرحب - مثلاً - بالاستعمار الأمريكي للعراق، بل يدخل على ظهر دبابته بحجة مواجهة الاستبداد والدعوة للديموقراطية، وصدق المولى - جل وعلا - إذ يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١].

ومنذ ترهُّل الدولة العثمانية وضعفها كانت سياسة القوى الغربية تعتمد على اختراق الأمة من خلال استثارة تلك الأقليات، وتوظيف طموحاتها لصناعة الفتن والاضطرابات المحلية، وتجعل المناداة بحقوقها جسراً للتدخل السافر في الشؤون الداخلية.

والتعامل مع تلك الأقليات لا يكون من خلال سياسة القهر والظلم والتعدي على الحقوق والممتلكات؛ فإن ذلك لن يكفَّ شرَّهم عن الأمة، بل قد يستفزهم للعداء والحروب الخفية، وإنما تقتضي السياسة الشرعية بناء منهج متكامل للتعامل مع الأقليات الدينية والطائفية، أساسه رفع لواء العدل والإنصاف.

رابعاً: إثارة النعرات القومية والشعوبية:

تُستثَار النعرات القومية والنزعات الشعوبية والعرقية من أجل إذكاء الصراعات الداخلية بين الشعوب في البلد الواحد،

ويستخدمها الغرب كما يستخدم القنابل الموقوتة أو الألغام المتفجرة التي توظَّف من بُعْد وقت الحاجة، ويحدث هذا بين القبائل العربية والإفريقيـــة في دارفـــور، وبين العرب والأكراد فـــي العراق، وبين الطـــوارق والأفارقة في غرب إفريقيا، وبين قبائل العفر المســـلمة ومحيطها القبلي في منطقة القرن الإفريقي... في سلســـلة طويلة من الشواهد الحية على خطورة النزاعات العرقية.

إن اســـتيعاب هـــذه التحديات العرقيـــة لا يكون إلا بجعل الإســـلام هو الجامع الذي يســـتوي في ظله النـــاس (عربُهم وعجمُهم)، وأن يكون معيار التفاضل بين الناس هو التقوى. قال الله – تعالى –: ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

خامساً: المعارضة بين المصالح السودانية والمصالح الحزبية:

تصاعد صوت المعارضة الســـودانية قبيل الاستفتاء، وهو ما يعني أنه ســـيزداد حدة بعد نتيجة الاستفتاء، وليس سرّاً أن نقول: إن بعضهم اتجه إلى المزايدة السياسية، وراح يقدِّم خطاباً نفعياً يغلِّفه بالدعوة إلى ما يسمونه الانفتاحَ الفكريَّ والتسامحَ ومهاجمةَ تطبيق الشريعة، وكأنه يريد أن يقنع الغرب بأنه رجل المرحلة القادمة، الذي يســـتطيع أن يبني سوداناً جديداً يتكيف مع رغبات الغرب، ويتلوَّن مع متطلبات الإسلام الأمريكي. حتى الحركة الشعبية التي قام مشروعها على الدعوة إلى الانفصال بـــدأت تنادي بكل جـــرأة إلى اعتماد قطاعها الشـــمالي حزباً سياسياً في الشمال!

ومع تصاعد هذه الأصوات نحســـب أن عقلاء الســـودان يدركـــون أن هذه المرحلـــة التاريخية لا يجوز أن تكون ســـاحة للتدافع الحزبي، والتسابق الشخصي، والاستقطاب السياسي؛ بل يجب أن يأتلف الجميع بمختلف مكوناتهم الحزبية على كلمة سواء تغلِّب مصلحة السودان على المصالح الحزبية؛ فمشكلات السودان لا تُحَل بعقلية الصراخ والضجيج؛ وإنما بالحوار العاقل الراشد الذي يسعى للبناء لا الهدم.

ولا شـــك أن حزب المؤتمر الوطني الحاكم يتحمل جزءاً كبيراً من المســـؤولية، وعليه أن يتعامل مع جميع المخلصين الجادين في خدمة الســـودان، الحادبين على مســـتقبله، بمنطق الدولة وليس بمنطق الحزب، وسياســـة التكامل والتعاون لا سياسة الاحتواء.

سادساً: تطبيق الشريعة:

إن تطبيق الشريعة ليس خِيار حزب المؤتمر الوطني فحسب، بل هو خيار الشـــعب السوداني، ولا يجوز أن تكون هذه القضية محل جـــدل أو نزاع، ولا محل مســـاومة أو مقايضة، وقد كان كثير من المعترضين على هذا المبدأ يحتجُّون في مرحلة ســـابقة بتعدُّد ثقافات المجتمع الســـوداني ويطالبون باحترامها، ومع أن هذا مبدأ مرفوض شـــكلاً ومضموناً إلا أننا نقول: أمَا وقد آثر الجنوبيون الانفصال، فإن هذه الحجة قد ســـقطت، ومن حق الشمال أن يتمسك بخيار تطبيق الشريعة بكل اعتزاز وثقة.

وتطبيق الشـــريعة ليس شـــعاراً، بل هو عقيدة راسخة في دين الإســـلام، تُوجِب على الجميع التسليم المطلَق بلا تردد أو حرج، كما قال – ســـبحانه وتعالى –: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]. وإذا كان الأمر كذلك، فإن من أوجب واجبات الحكومة السودانية إعلاء كلمة الدين، وسياسة الدنيا به، ولا يتأتى ذلك تشـــريعياً إلا بأن يكون الكتاب والسُّنة هما المصدر الوحيد للتشريع؛ حتى يكون الدين كله لله. ويتطلب ذلك تواصلاً جادّاً مع العلماء الربانيين المخلصين لبناء منظومة علمية متكاملة لتطبيق الشريعة، وجَعْلها الأساس والمنطلق لكل إصـــلاح. وَلْنجعل مـــن الأزمة فرصة لتعزيز إســـلامية الدولة وترسيخ هويتها.

نعم! ثمة عوائق كثيرة في طريق الإصلاح الشامل؛ لكن إذا صدقتْ الإرادات، وصحَّت العزائم وبُذلَت الأسباب الموضوعية فإن الله – تعالى – سيجعل من بعد عسر يسراً، بعونه سبحانه.

سابعاً: عمقنا الإستراتيجي في الجنوب:

إنَّ انفصـــال جنوب الســـودان يجب أن لا ينســـيَنا عمقَنا الإســـتراتيجي فيه وهم مســـلمو الجنوب، وإذا كنا قد قصَّرنا في وقت مضى في نشـــر الدعـــوة، أو حالت دون ذلك ظروف سياســـية أو أمنية، فلا يجوز بحال أن يســـتمر ذلك التقصير، وواجبنـــا تجاه إخواننا هناك أكبر مـــن أي وقت مضى؛ فالذي يربطنا بهم ليس مجرد الجنســـية أو الوطـــن، بل تربطنا بهم وشـــائج الدين والأخـــوة الإســـلامية، وهـــذه الآصـــرة العظيمـــة لا تتغير بتغير الأحوال السياســـية. ومن المتوقع أن يكون الجنوب في المرحلة القادمـــة مرعىً خصيباً للمنظمات التنصيرية التي

ستستهدف الوثنيين والمسلمين على حدٍّ سواء، وقد لاحظ المراقبون أن المنظمات التنصيرية والإرساليات الكنسية نشطت نشاطاً ملحوظاً منذ عام ٢٠٠٥م، ومن ذلك أنَّ منظمة واحدة هي منظمة (سامرتين بيرس) قامت ببناء ثمانين كنيسة في عام ٢٠٠٧م فقط، وبدأت منذ عام ٢٠٠٨م بأكبر عملية توزيع للأنجيل بين الجنوبيين[١].

وفي هذا السياق نؤكد أن بوابتنا إلى العمق الإفريقي يجب أن تتواصل؛ فالقارة الإفريقية بيئة خصبة للدعوة الإسلامية يجب أن تكون مُشْرعة الأبواب. قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسْلمه».

ثامناً: حقوق القبائل الحدودية:

من ضرورات المرحلة القادمة ضرورة التأكيد على المحافظة على حقوق القبائل الشمالية المتاخمة للحدود الجنوبية؛ خاصة في المناطق المتنازع عليها في منطقة أبيي - مثلاً - وأن لا ندعهم نهباً لأطماع الحركة الشعبية.

تاسعاً: خطابنا الدعوي:

نحسب أن من لوازم المرحلة القادمة إعادةَ بناء خطابنا الدعوي وتجديدَ أولوياته العلمية والعملية، وظنُّنا بالعلماء والدعاة وأهل الحل والعقد من جميع الاتجاهات والأطياف الدعوية أنهم سيكونون أشدَّ حرصاً على الاستفادة من تجربة

(١) موقع المصريون.

المرحلة السابقة بإيجابياتها وسلبياتها. ولا يخفى أن في مقدمة ذلك ينبغي العناية بركيزتين اثنتين:

الأولى: ترسيخ التدين، ونشر معالم الدين وأصوله الجامعة في الأمة، امتثالاً لقول الله - عز وجل -: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقوله - تعالى -: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢].

الثانية: الدعوة إلى الائتلاف ونبذ الفرقة والاختلاف، وإدارة حوار راشد يجمع ولا يفرق، ويُصلِح ولا يشتت، قاعدته العريضة قول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]، وقوله - سبحانه -: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

ومن المتفق عليه عند جميع العقلاء أن الغرب قد اجتمع علينا من أقطارها، ورمانا عن قوس واحدة، ولا يسوغ أن نشتغل بأنفسنا، وننسى عدونا؛ فاتقوا الله في أمتكم وفي مستقبلكم، ولا يخفى عليكم أنكم لن تتفوقوا على عدوكم بقوَّتكم المادية وسلاحكم، ولكنكم ستتفوقون عليهم بدينكم وصدقكم مع الله، وتذاكروا مقالة سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - لَـمَّا أراد مواجهة الفُرس (أقوى قوة عسكرية ومادية في عصره): (والله لينصرنَّ الله وليَّه، وليطهرنَّ الله دينه، وليهزمَنَّ الله عدوَّه؛ إن لم يكن في الجيش بَغْي، أو ذنوب تغلب الحسنات)[٢].

وإذا أردتم أن نذكِّركم بدور العلماء والدعاة - وهو ليس خافٍ عليكم - فاسمعوا لأبي العباس أحمد التلمساني المقَّري وهو يقول: (لـمَّا تقلص الإسلام بالجزيرة، واستردَّ الكفار أكثر أمصارها وقُراها على وجه العنوة والصلح والاستسلام، لم يزل العلماء والكتَّاب والوزراء يحرِّكون حميَّات ذوي البصائر والأبصار، ويستنهضون عزماتهم في كل الأمصار)[٣]. فهذا هوا السبيل لمن أراد الحق وأراد أن يُبرئ الذمة.

ختاماً: هذه مرحلة جديدة أراد منها العدو تمزيق السودان، فَلْنُرِد نحن تمتينه. وأرادوا إضعافه، فَلْنُرِد نحن تقويته. وأرادوا مسخ هويته، فَلْنُرِد نحن تجديد إسلامه...

إن سُنَّة الله - جل وعلا - لا تتبدل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، فلن يغير الله - تعالى - ما بنا من الضعف والهوان، حتى نغيِّر ما بأنفسنا من معاصٍ وآثام.

(٢) البداية والنهاية: (١٠/ ١١). تحقيق الدكتور عبد الله التركي.
(٣) أزهار الرياض: (١/ ٦٣)، والمقصود بالجزيرة (الأندلس).

الشذوذ في الفتوى.... الأسباب والأبعاد

عبدالرحمن بن عبدالعزيز العقل(*)

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام على مـــن بعثه الله بالهدى واليقين؛ لينـــذر من كان حياً ويحقَّ القول على الكافرين. أما بعد:

فثمـــة غاية عظيمة كبرى من غايات الإســـلام، جاءت بها نصـــوص الكتاب في آيـــات بيِّنات كثيرات، ونادت بها السُّـــنة في أحاديث وافرات، وتوارد علماء الإســـلام سلفاً وخلفاً على تأكيدها، وبيان ضـــرورة تفعيلها في حياة الأمة؛ لأن في تركها انشقاق العصا، واستحكام الشقاق.

إنها غاية مســـلَّمة لا شية فيها عند أُولِي الرجاحة والنُّهى، الذين يهـــدون بالحق، وبه يعدلون؛ فإنهـــم موقنون بأن صلاح الأمة منبعث من هذه الغاية التـــي جلاَّها القرآن أعظم تجلية وأوضحهـــا، فقال - تعالـــى -: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّـهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُـوا ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال - ســـبحانه -: ﴿ وَمَن يُشَـاقِقِ الرَّسُـولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِـهِ جَهَنَّمَ وَسَـاءَتْ مَصِيراً ﴾ [النســاء: ١١٥]، وقال: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَـوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعـاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِـمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّـفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيـمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٣]، وقال: ﴿ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم: ٣١ - ٣٢].

إنها غاية لزوم الجماعة التي علَّق الله عليها تأييده ومعيَّته، كما في سنن الترمذي من حديث ابن عباس - رضي الله عنه -

(*) المحاضر بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة القصيم.

قال: قال رسول الله ﷺ: «يَدُ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ»[1].

تأبى الرِّماح إذا اجتمَعْنَ تكسُّراً
وإذا افترَقْنَ تكسَّرَت أفرادا[2]

وفي حديث معاذ بن جبل – رضي الله عنه – عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ ذِئْبُ الإِنْسَانِ، كَذِئْبِ الْغَنَمِ، يَأْخُذُ الْقَاصِيَةَ وَالشَّارِدَةَ، وَإِيَّاكُمْ وَالشِّعَابَ، وَعَلَيْكُمْ بِالْعَامَّةِ وَالْجَمَاعَةِ»[3].

وإن من عزائم ما ينتظمه حبل الجماعة، الاجتماعَ على آراء العلماء الراسخين، بعيداً عن شواذ الأقوال وغرائب الفتاوى؛ فإن ثمة ظاهرةً أطلَّت في سماء الفتوى يصدق أن تكون مخاضاً لولادة الشذوذ العلمي والإغراب في الفتوى؛ ألا وهي ظاهرة الشذوذ في الفتوى.

إنها ظاهرة قد برزت في هذه الأعصر، وأصبحت مظاهر امتدادها لا تخفى على المُطالِع في أكوام من الفتاوى الشاذة الغريبة، مع فهم بارد سميج لميج[4] لكلام أهل العلم الراسخين.

وقد نتج عن هذه الظاهرة: قلَّة الأدب مع أهل العلم، والتعجُّل في الفتوى، ومصادرة قول الجماعة، والفهم المعوج، والتذبذب في الأقوال، والتناقض في الأفعال، وإعجاب ذي الرأي برأيه، في لهث عجيب على الفتوى في المسائل الكبار التي لو كانت في عهد عمر الفاروق لجَمَع لها أهلَ بدر.

وعلى مثل هذا بكى ربيعة بن أبي عبد الرحمن شيخ الإمام مالك، رحمه الله، فقال له رجل: ما يبكيك؟ فقال: (استُفتي مَن لا علم له، وظهر في الإسلام أمر عظيم. قال: ولَبعضُ مَن يفتي ها هنا أحق بالسجن من السرَّاق)[5].

قال ابن القيم معلِّقاً: (قال بعض العلماء: فكيف لو رأى ربيعة زماننا، وإقدام مَن لا علم عنده على الفتيا، وتوثُّبه عليها، ومدُّ باع التكلف إليها، وتسلُّقه بالجهل والجرأة عليها، مع قلة الخبرة، وسوء السيرة، وشؤم السريرة، وهو من بين أهل العلم منكَر أو غريب؛ فليس له في معرفة الكتاب والسنَّة وآثار السلف، نصيب)[6].

قلت: فكيف لو شاهد ابن القيم متعالمي زماننا، ماذا سيقول؟

وقديماً قيل: (إذا كثر الملاحون غرقت السفينة)، وهي كلمة قديمة قالها أحد أئمة الإسلام يشكو فيها حفنة عفنة كدودة لزجة، متلبدة أسرابها في سماء غيرها، تقحَّموا في ما لم يُحسِنوا، ومن أقحم نفسه في ما لا يُحسِن أتى بالعجائب. خاضوا غمار البحار، من غير مهارة ولا دربة في الغوص، فانكشفوا وفضحتهم الأيام، وكل من يدَّعي ما ليس فيه فضحته شواهد الامتحان. وقد اشتكى ابن القيم – رحمه الله – امتحانه بهؤلاء فقال:

هذا وإني بَعْدُ ممتَحَنٌ بأر
بعةٍ وكلُّهم ذوو أضغانِ
فظٌّ غليظٌ جاهلٌ متمعلمٌ
ضخمُ العمامةِ واسعُ الأردانِ
متفيهقٌ متضلِّعٌ بالجهلِ ذو
صَلَعٍ وذو جَلَحٍ من العرفانِ
مزجى البضاعةِ في العلوم وإنَّه
زاجٍ من الإيهامِ والهذيانِ
يشكو إلى الله الحقوقَ تظلُّماً
من جهله كشكايةِ الأبدانِ
من جاهلٍ متطبِّبٍ يفتي الورى
ويحيلُ ذاكَ على قضا الرحمنِ[7]

وإن من أعظم مغامز هذا الشذوذ أن أصبح روَّاده، وكأنهم ريشة في مهبِّ ريحٍ يومٍ عاصفٍ؛ تتقاذفهم الأهواء، وتتجاذبهم الآراء، وينفخ في رُوعِهم الإعلامُ؛ فطفق ملَّاك القنوات الفضائية، والصحف اليومية والأسبوعية يلمِّعون هؤلاء، ويقدمونهم للناس على أنهم أصحاب علم، وأعلام هدى.

وإن لظاهرة الشذوذ في الفتوى أسباباً منها:

الأول: فقدان السُّنة المباركة في التلقي، وهي تلقِّي العلم في حِلَقِه وما يتبعها من مُشَامَّة الشيخ ومشافهته، ومجالسة أهل العلم، التي تصنع في النفس الصبر وطول النَّفَس ومِنْ ثَمَّ العمق والعقل والتأني، وكما قيل: مفاتيح العلم أربعة: عقل رجاح، وشيخ فتاح، وكتب صحاح، ومداومة وإلحاح.

(١) جامع الترمذي: ٤/٤٦٦، رقم (٢١٦٦)، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب»، وقال السخاوي في المقاصد الحسنة ١/٧١٧: «حديث مشهور المتن ذو أسانيد كثيرة وشواهد متعددة في المرفوع وغيره»، والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع، رقم (٣٦٢١).

(٢) أرشيف المجلس العلمي، من موقع الألوكة: ١/٥٦٤٥.

(٣) أخرجه أحمد: ٣٦/٣٥٨، رقم (٢٢٠٢٩)، و ٣٦/٤٢١، رقم (٢٢١٠٧)، وأبو نعيم في حلية الأولياء: ٢/٢٤٧، والطبراني في الكبير: ٢٠/١٦٤، رقم (٣٤٤) و (٣٤٥)، والبيهقي في شعب الإيمان: ٤/٣٣٨، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/٣٩٤: «رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد ثقات إلا أن العلاء بن زياد قيل: إنه لم يسمع من معاذ»، وقال الألباني في ضعيف الجامع رقم (١٤٧٧): «ضعيف»، وقال شعيب الأرنؤوط في تحقيق المسند: «حسن لغيره، وهذا سندٌ رجاله ثقات إلا أنه منقطع؛ العلاء بن زياد لم يسمع من معاذ».

(٤) سَميجٌ لَميجٌ: أي: قبيح. ينظر: الصحاح: ١/٣٢٢، ولسان العرب: ٢/٣٠٠، والقاموس المحيط، ص (٢٤٨).

(٥) إعلام الموقعين: ٤/٢٠٧، ٢٠٨.

(٦) إعلام الموقعين: ٤/٢٠٧.

(٧) نونية ابن القيم، ص (٣٦٢).

قال الإمـــام الذهبي – رحمه الله – يشـــكو هذه الظاهرة في زمانه: (وأما اليوم، فقد اتســـع الخَرق، وقلَّ تحصيل العلم من أفواه الرجال، بل ومن الكتـــب غير المغلوطة، وبعض النَّقَلة للمسائل قد لا يُحسِن أن يتهجى)[1].

إن فقدان هذه السُّـــنة أو ضَعْفها سبب أصيل لبروز ظاهرة الشـــذوذ في الفتوى، وبالأحرى إذا وردت موافقةً لشـــهواتهم ورغباتهم.

الثـاني: الظـــن بأن كل مـــن نال طرفاً مـــن العلم له حق الفتـــوى، وهـذه لَعَمري مراهقـة علميـــة؛ فإن مِن مِحَن هـذا الزمـــان تصدُّرَ أقوامٍ للإفتاء، ليس لهـــم في مَقام الفتوَى حظٌّ ولا نصيب. غرَّهم ســـؤالُ من لا علمَ عنده لهم ومسارعةُ أجهلَ منهم إليهم.

والفتوى منزَّلة عليَّة لا ينالها إلا من تحققت فيه الشـــروط المقررة عند أهل العلم، ومنها:

• العلم بكتاب الله – تعالى – وسُـــنة رسوله ﷺ، وما يتعلق بهما من علوم.

• العلم بمواطن الإجماع والخلاف والمذاهب والآراء الفقهية.

• المعرفـــة بأصـــول الفقـــه ومبادئه وقواعـــده، ومقاصد الشريعة، والعلوم المساعدة مثل: النحو والصرف والبلاغة واللغة والمصطلح وسائر علوم الآلة.

• المعرفـــة بأحـــوال النـــاس وأعرافهم، وأوضـــاع العصر ومستجداته، وما بُنِي على العُرف المعتبَر الذي لا يصادم النص، وغير ذلك مما شَـــرَطه العلماء في المفتي ليكون أهلاً للفتوى، وأنـــت إذا تبصَّرت أحوال أهل العلم في هذا العصر، وجدت أن من يتصف بهذه الشرائط قلائل بين أهل العلم.

قـــال الإمام ابن حزم – رحمه اللـــه –: (لا آفة على العلوم وأهلها أضرُّ من الدخلاء فيها وهم من غير أهلها؛ فإنهم يجهلون ويظنون أنهم يعلمون، ويفسدون ويقدرون أنهم يصلحون)[2].

وقال الحافظ ابن حجر – رحمه الله –: (إذا تكلم المرء في غير فنه أتى بهذه العجائب)[3].

وقـــال بعض المصنفين: (الانفراد عـــن أهل العلم برأي في الشـــرع، والقول بما لم يقل به أحد فيـــه، ينبئان عن خلل في العقل)[4].

(١) سير أعلام النبلاء: ١١/ ٣٧٧.
(٢) الأخلاق والسير: ١/ ٢٣.
(٣) فتح الباري: ٣/ ٥٨٤.
(٤) النظائر لبكر أبو زيد، ص (١٩٠).

الثالث: حب الصدارة والتصدُّر في الفتوى؛ فكم ترى نِزالاً في حلائب العلم، يرومون مقاماته الشـــامخة من غير شـــموخ ولا نضج، ونَفْس الإنســـان الطموح تتوق إلى هذه المنازل، ولكن الموفَّـــق يقهر ذلك بالمجاهدة، وهَضْم النفس، وكَبْح الجماح، ولو أن المرءَ أسلم الزناد للنَّفس لأسلمته للسقوط والهلكة.

إنَّ من الافتراءِ على الله – تعالى – والكذِب على شـــريعته وعبـــادِه ما يفعَله بعضُ المتعالمين من التســـرُّع فـــي الفُتْيا بغير علم، والقول على الله – تعالى – بلا حُجَّة، والإفتـاء بالتشـــهي والتلفيق، والأخـــذِ بالرُّخَص المخالفة للدليـــل الصحيح، وتتبُّع الأقوال الشاذَّة المستنِدة إلى أدلَّة منسوخةٍ أو ضعيفة.

إن التعالم الخدَّاع هو عَتَبَة الدخول إلى جريمة القول على الله بغير علم، المحرَّمة تحريماً أبديّاً في جميع الشـــرائع، وهذا ممـــا عُلِم من الدين بالضرورة، وعلى وجه أخص حينما تختلط الأوراق ويشـــيع الجهل، وفي حديث عبد الله وأبي موســـى – رضـــي الله عنهما – قالا: قال رســـول اللـــه ﷺ: «إِنَّ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ لَأَيَّاماً، يَنْزِلُ فِيهَا الْجَهْلُ، وَيُرْفَعُ فِيهَا الْعِلْمُ»[5].

وعن أنس – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ وَيَثْبُتَ الْجَهْلُ»[6].

الرابـع: غياب منهج الســـلف الصالح عند هؤلاء؛ فإن ســـلفنا

(٥) أخرجه البخاري: ٦/ ٢٥٩٠، رقم (٦٦٥٣)، ومسلم: ٤/ ٢٠٥٦، رقم (٢٦٧٢).
(٦) أخرجه البخاري: ١/ ٤٣، رقم (٨٠)، ومسلم: ٤/ ٢٠٥٦، رقم (٢٦٧١).

الصالح – رضوان الله عليهم – كانوا أبرَّ هـذه الأمة قلوباً، وأعمقها هدياً، وأقلَّها تكلُّفاً، كانوا – رضوان الله عليهم – أعظم الناس ورعاً، وأقلَّهم في الدين كلاماً، وربَّما سـئل أحدهم سـؤالاً فيحيلـه على أخيـه، وأخوه يحيـل علـى غيـره، وهكذا لا يزال السـائل ينتقل من واحد إلى آخر حتى يرجع السؤال إلى الأول. يقول عبد الرحمن بن أبي ليلى – رحمه الله –: (أدركت بهذا المسجد (يعني مسجد رسول الله ﷺ) عشـرين ومائة من أصحاب رسول الله كلهم يُسـأَل عن المسـألة فيقول: لا أدري)[1]. وهذا أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – على المنبر الشريف يقول: (أَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي وَأَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي إِذَا قُلْتُ فِي كِتَابِ اللهِ مَا لاَ أَعْلَمُ؟)[2]. وهذا عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – الإمام الفاروق أمير المؤمنين وخليفة المسلمين، مَن ضرب الله الحقَّ على قلبه ولسانه، ومن لو رآه الشيطان سالكاً فجّاً لسلك فجّاً غيره، يقرأ قول الله – عز وجل –: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٣١]، ثم يقول وهو على المنبر: (هذه الفاكهة، فما الأبُّ؟، ثم يقول: إن هذا لهو التكلف يا ابن الخطاب! وماذا على ابن أمِّ عمر لو جهل آيةً في كتاب الله؟)[3]. وهذا علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – يقول: (وأبردهـا على الكبد قيل: ما هي؟ قال: لا أدري)[4]. وهذا عبد الله بن عمر – رضي الله عنه – يقول: (العلم ثلاثة: آيةٌ مُحْكَمة، وسُـنة ماضيـة، ولا أدري)[5]؛ فقد جعل (لا أدري) ثلثَ العلم، وجعلها غيره نصف العلم، وهكذا حتى أثمرت هذه الشجرة ثماراً مباركة فقعَّدت للدين قواعده، وثبَّتت أصوله، ومهَّدت فروعه.

جاء في سير أعلام النبلاء[6]: (أن أبا شهاب الحناط قال: سـمعت أبا حصين (وهو عثمان بـن عاصم) يقول: إن أحدهم ليفتي في المسألة، ولو وردت على عمر: لجَمَع لها أهل بدر).

لذا فليكن قول: (لا أدري) شعاراً للمسلم في حياته في ما لا يعرفه من أحكام الشـرع، وهذه ملائكة الرحمن تقول ذلك في ما لا تدريه. قال – تعالى –: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣١ – ٣٢].

وما زال هذا العلم الشـريف وهذا المنهج الرائد يحمله من كل خَلَفٍ عُدولُه، ينفـون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، حتى نبتت فـي زماننا هذا نابتة لها ضجيج بـين الناس، يكتبون كلاماً ويلقونَه. إنّ أحسـنَّا الظن بهم قلنا: هم على جهلٍ عظيم، وإنّ حكمنا عليهم بما ظهر لنا منهم قلنا: قلوبهم تنطوي على دخن.

وتتأزم الفتنة بهم حين يكون أحدهم عليم اللسـان، يُجادِلُ بالقرآن ويسرد على كلامه أدلَّةً، ويسوق براهين يحسبها الناس براهين للوهلة الأولى، ولكنها في حقيقة الأمر غُوَلٌ[7] العلم.

وكـم مـن فقيهٍ خـابـطٍ فـي ضلالةٍ
وحـجَّـتـه فـيـهـا الـكـتـابُ المـنـزَّل

يلبَسون مسـوح العلم، وكأنهم أهله المدافعون عن بيضته، الذائـدون عن حماه الناطقون بكلمتـه وهم في حقيقة أمرهم يهدمـون صروح الدين. قال عمـر – رضي الله عنه –: (ثلاث يهدمـن الدين: زلـة عالم، وجـدال منافق بالقـرآن، وأئمة مضلون)[8]. وقـال أبو الدرداء – رضي اللـه عنه –: (إن مما أخشى عليكم: زلة العالم، وجدال المنافق بالقرآن)[9].

وكان معاذ بن جبل يقول في خطبته كل يوم: (هلك المرتابون، إن وراءكم فتناً يكثر فيهـا المال، ويُفتح فيها القرآن حتى يقرأه المؤمـن والمنافق والمرأة والصبي والأسـود والأحمر، فيوشـك أحدهـم أن يقول: قد قرأت القرآن، فما أظن أن يتبعوني حتى أبتدع لهم غيره، وإياكم وما ابتدَع؛ فإن كل بدعة ضلالة، وإياكم وزيغة الحكيم؛ فإن الشيطان قد يتكلم على لسان الحكيم بكلمة الضلالة، وإن المنافق قد يقول كلمة الحق، فتلقَّوا الحق عمَّن جاء به؛ فإن على الحق نـوراً. قالوا: وكيف زيغة الحكيم؟ قال: هي كلمـة تَرُوْعُكم وتنكـرونها، وتقولون: ما هذه؟ فاحذروا زيغته ولا تصدنَّكم عنه؛ فإنه يوشك أن يفيء وأن يراجع الحق، وإنَّ العلم والإيمان مكانَهما إلى يوم القيامة؛ فمن ابتغاهما وجدهما)[10].

الخامس: وازع الهوى الخفي الذي قد لا يتبصره المفتي ولا يعلمه؛ لأن للهوى خيطاً دقيقاً في النفوس يَحْكمها ويَسْـري في أعماقها؛ حتى تظن حسناً ما ليس بالحسن. قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله –: (وللشـريعة أسـرار في سدِّ الفساد وحَسْم مادة الشر؛ لعِلْم الشارع بما خفي على النفوس من خفيِّ

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى: ٦/ ١١٠، وابن حبان في الثقات: ٩/ ٢١٥.
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه: ٦/ ١٣٦، رقم (٣٠١٠٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٢٤٠: «رواه البزار ورجاله رجاله الصحيح».
(٣) أخرجه سعيد بن منصور: ١/ ١٨١، رقم (٤٣)، وابن أبي شيبة: ٦/ ١٣٦، رقم (٣٠١٠٥)، والحاكم: ٢/ ٣١٨، رقم (٣١٤٥)، والبيهقي في شعب الإيمان: ٢/ ٤٢٤، رقم (٢٢٨١).
(٤) أخرجه الدارمي: ١/ ٧٤، رقم ١٧٥، وابن عساكر: ٤٢/ ٥١٠.
(٥) ينظر: سير أعلام النبلاء: ٢٩ /٥٦.
(٦) ٥/ ٤١٦.

(٧) الغُول: الهلكة والداهية. ينظر: لسان العرب ١١/ ٥٠٧، والقاموس المحيط، ص (١٣٤٤).
(٨) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله: ٢/ ٢٢٣.
(٩) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله: ٢/ ٢٢٣.
(١٠) أخرجه عبد الرزاق: ١١/ ٣٦٣، وأبو داود، رقم (٤٦١١) مختصراً، والحاكم: ٤/ ٤٦٠، وابن عبد البر: ٢/ ٩٨١.

هواها الذي لا يزال يسري فيها حتى يقودها إلى الهلكة؛ فمن تحذلق على الشارع وقال في بعض المحرَّمات: إنما حرمها لعلة كذا، وهي مفقودة هنا. فاستباح ذلك بهذا التأويل، فهو ظلوم لنفسه جهول بأمر ربِّه)[1].

وقال - رحمه الله -: (ما أكثر ما تفعل النفوس ما تهواه ظانَّة أنها تفعله طاعة لله)[2].

وقال أيضاً معلقاً على قوله - تعالى -: ﴿وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]: (فبيَّن أن اتباع الهوى يُضلُّ عن سبيل الله؛ فمن اتبع ما تهواه نفسه أضلَّ عن سبيل الله؛ فإنه لا يكون الله هو المقصود، ولا المقصود الحق الذي يوصل إلى الله؛ فلا قَصَد الحق، ولا ما يوصل إلى الحق؛ بل قصد ما يهواه من حيث هو يهواه)[3].

السادس: الظن بأن الأخذ بمبدأ التيسير والرخصة هو الأصلح دائماً، وغاب عنهم أن الإسلام هو اليسر، وليس اليسر هو الإسلام؛ فحدث جراء هذا تتبُّع الرخص والجري وراءها هروباً من التكاليف، وتخلُّصاً من الواجبات، وهدماً لعزائم الأوامر والنواهي، وتوهيناً لمسير العبد في مدراج العبودية، ومنازل التألُّه والتذلل في مقام الألوهية، وهضماً لحقوق عباده.

وقد اعتبر العلماء هذا العمل فسقاً[4]، وحكى ابن حزم الإجماع عليه[5].

قال ابن عباس: (ويل للأتباع من زلة العالم)[6].

وقال سليمان التيمي: (لو أخذتَ برخصة كل عالم اجتمع فيك الشر كله)[7].

وقال الإمام أحمد: (لو أن رجلاً عمل بقول أهل الكوفة في النبيذ، وأهل المدينة في السماع، وأهل مكة في المتعة كان فاسقاً)[8].

وقال الأوزاعي: (من أخذ بنوادر العلماء خرج من الإسلام)[9].

وروى الخطيب بسنده عن إبراهيم بن أدهم، قال: (إذا حملت شاذَّ العلماء حملت شراً كثيراً)[10].

وقال ابن حزم - رحمه الله تعالى - في كلامه على أنواع الاختلاف: (... وطبقة أخرى، وهم قوم بلغت بهم رقَّة الدين، وقلة التقوى إلى طلب ما وافق أهواءهم في قول كلِّ قائل؛ فهم يأخذون ما كان رخصة من كل قول عالم مقلدين له، غير طالبين ما أوجبه النص عن الله - تعالى - وعن رسول ﷺ)[11].

ويقول الذهبي - رحمه الله -: (من تتبع رخص المذاهب وزلات المجتهدين فقد رقَّ دينه)[12].

وقال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ: من هجم على مثل هذه الأقوال الشاذة واعتمدها في نَقْله وفتواه، فقد تتبع الرخص ونبذ الأصل المقرر عند سلف الأمة وأئمتها... وما أحسن ما قيل:

والعلمُ ليس بنافعٍ أربابَه
ما لم يُفِد نظراً وحُسْن تبصُّر[13]

وفي هذا الصدد يجب الإنكار على كل من اتبع هواه في الأخذ بفتاوى المتساهلين من المفتين، ومن اتبع هواه بتبنِّي الفتاوى الشاذة القائمة على حب المخالفة، وسعى لها سعيها، وجهر بها بين الناس.

والواجب على العامي أن يسأل أهل العلم الذين يثق بدينهم وعلمهم. وأما من عُرِف بالتساهل وتتبُّع الرخص وعدم الحرص على اتباع السُّنة، فلا يجوز لأحد أن يستفتيَه، ولا أن يعمل بما يفتيه به.

وليس كل قول قاله عالم أو متعالِم، صحيحاً، وليس كل ما قاله فقيه حقاً، إلا قولاً له حظٌّ من الأثر أو النظر، وقديماً قال الإمام مالك - رحمه الله -: (كلٌّ يؤخذ من كلامه ويترك، إلا صاحب هذا القبر، وأشار إلى قبر المصطفى ﷺ)[14].

وإذا كثرت الأقوال الشاذة من شخص مَّا، فإنه ينبغي أن يُحَذَّر منه؛ لئلا يغتر به العامة، من غير استرسال في الطعن بذاته، وينبغي الترفع عن القول المُسِف في شخصه أو الطعن في ذاته أو نسبه؛ فليس هذا سبيل أهل الرشد في هذه المواطن، بل سبيلهم بيان الخلل وكشف الزلل في القول دون الولوج في ذوات الأشخاص والإقذاع في العبارات، مع التأكيد الشديد على زجر من اختار هذه الأقوال الشاذة، واعتمدها، ونبذ الأصل المقرر

(١) شفاء العليل في اختصار إبطال التحليل، ص (١١٦).
(٢) مجموع الفتاوى: ٢٨/٢٠٧.
(٣) جامع المسائل: ٦/١٤٣.
(٤) الموافقات: ٤/١٤٠، شرح التنقيح، ص (٣٨٦).
(٥) مراتب الإجماع، ص (١٧٥).
(٦) مدخل السنن، ص (٦٨٧).
(٧) أخرجه ابن عبد البر: ٢/٩٢٧، وعلق عليه بقوله: «هذا إجماع لا أعلم فيه خلافاً».
(٨) جامع بيان العلم وفضله: ٢/٩٢٧، إرشاد الفحول: ١/٤٥٤.
(٩) رواه عنه البيهقي في سننه الكبرى: ١٠/٢١١.
(١٠) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع: ٢/١٦٠.
(١١) الإحكام في أصول الأحكام: ٥/٦٤٥.
(١٢) سير أعلام النبلاء: ٨/٨١.
(١٣) الرسالة التاسعة من عيون الرسائل للإمام عبد اللطيف آل الشيخ.
(١٤) ينظر: سير أعلام النبلاء: ٨/٩٣.

عند سلف الأمة وأئمتها.

ونحن نعلم أن من واجب الجاهل أن يسأل عن دينه، وأن يقلد من يستفتيه، ولكن هذا الأمر ليس على إطلاقه؛ وبخاصة إذا علمنا أن ذاك العامي الجاهل يتقصد الأخذ بمن عُرف عنه قلَّة العلم، أو قلَّة الدين، أو من اشتهر بالشذوذ عن جماعة العلماء. قال ابن القيم - رحمه الله -: (العالم قد يزل ولا بد؛ إذ ليس بمعصوم، فلا يجوز قبول كلِّ ما يقوله وينزَّل قوله منزلة قول المعصوم؛ فهذا الذي ذمَّه كل عالم على وجه الأرض وحرَّموه وذموا أهله، وهو أصل بلاء المقلدين وفتنتهم؛ فإنهم يقلدون العالم في ما زلَّ فيه وفي ما لم يزل فيه، وليس لهم تمييز بين ذلك، فيأخذون الدين بالخطأ ولا بد، فيحلُّون ما حرم الله، ويحرمون ما أحل الله، ويشرِّعون ما لم يشرع، ولا بد لهم من ذلك؛ إذ كانت العصمة منتفية عمَّن قلدوه فالخطأ واقع منه ولا بد.

وقد ذكر البيهقي وغيره من حديث كثير هذا عن أبيه عن جدِّه مرفوعاً: «اتَّقُوا زَلَّةَ الْعَالِمِ وَانْتَظِرُوا فَيْئَتَهُ»[1]، وذكر من حديث مسعود بن سعد عن يزيد بن أبي زياد عن مجاهد عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أَشَدُّ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي ثَلاثٌ: زَلَّةُ عَالِمٍ، وَجِدَالُ مُنَافِقٍ بِالْقُرْآنِ، وَدُنْيَا تَقْطَعُ أَعْنَاقَكُمْ»[2].

ومن المعلوم أن المخوف في زلة العالم تقليدُه فيها؛ إذ لولا التقليد لم يُخَف من زلة العالم على غيره؛ فإذا عرف أنها زلَّة لم يجز له أن يتبعه فيها باتفاق المسلمين؛ فإنه اتباع للخطأ على عمد ومن لم يعرف أنها زلة فهو أعذر منه وكلاهما مفرط في ما أُمِر به)[3].

والشذوذ في الفتوى ليس جديداً بل هو قديم قدم الأيام، ولكنه في هذا الزمن يلقى رواجاً عريضاً من شرائح المسلمين بفعل الإعلام الذي يحتفي فيه بعض سدنته بالشذوذ لطيِّ صفحة الحق ومد ظل الباطل وضلاله.

وقد كان الخليفة المسدَّد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يدرك ما تُحدثه الفتاوى المختلفة بين الناس، وكان موقفه منها صارماً، وأصرم منه موقفه تجاه من يأتي بالشاذ من الأقوال؛ فقد روى ابن أبي شيبة عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ - رضي الله عنه - قَالَ: «اخْتَلَفَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَابْنُ مَسْعُودٍ فِي الصَّلاَةِ فِي الثَّوْبِ الْوَاحِدِ، فَقَالَ أُبَيٌّ: ثَوْبٌ، وَقَالَ: ابْنُ مَسْعُودٍ: ثَوْبَانِ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمَا عُمَرُ فَلاَمَهُمَا، وَقَالَ: إِنَّهُ لَيَسُوؤُنِي أَنْ يَخْتَلِفَ اثْنَانِ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي الشَّيْءِ الْوَاحِدِ؛ فَعَنْ أَيِّ فُتْيَاكُمَا يَصْدُرُ النَّاسُ؟ أَمَّا ابْنُ مَسْعُودٍ فَلَمْ يَأْلُ، وَالْقَوْلُ مَا قَالَ أُبَيٌّ»[4].

وروى الإمام مالك عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ يُحَدِّثُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ: «أَنَّهُ مَرَّ بِهِ قَوْمٌ مُحْرِمُونَ بِالرَّبَذَةِ، فَاسْتَفْتَوْهُ فِي لَحْمِ صَيْدٍ وَجَدُوا نَاساً أَحِلَّةً يَأْكُلُونَهُ، فَأَفْتَاهُمْ بِأَكْلِهِ، قَالَ: ثُمَّ قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ عَلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: بِمَ أَفْتَيْتَهُمْ؟ قَالَ: فَقُلْتُ: أَفْتَيْتُهُمْ بِأَكْلِهِ، قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ: لَوْ أَفْتَيْتَهُمْ بِغَيْرِ ذَلِكَ لأَوْجَعْتُكَ»[5].

فكم يا تُرى من يستحق أن يُوجَع بسبب فتوى شاذة نسبها لشرع الله - تعالى - المطهَّر! وكم هم الذين يستحقون التأديب بسبب فتوى أحدثت شرخاً وصخباً وتهريجاً!

وليس المقصود هنا إنكار وجود خلاف بين العلماء في مسائل الفقه، لكنا ننكر على المفتي تتبُّع الأقوال الشاذة والمهجورة منها، وننكر جعل ذلك الخلاف سبيلاً لاختراع أقوال باطلة ينسبها لدين الله - تعالى - وهي ليست منه.

قال الشيخ بكر أبو زيد - عليه رحمه الله -: (ولم يفلح مَن جعل من هذا الخلاف سبيلاً إلى تتبُّع رخص المذاهب، ونادر الخلاف، وندرة المخالف، والتقاط الشواذ، وتبنِّي الآراء المهجورة، والغلط على الأئمة، ونصبها للناس ديناً وشرعاً)[6].

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: ١٠/ ٢١١، رقم (٢٠٧٠٦).
(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: ١٢/ ٥٢٤، رقم (٩٨٢٩)
(٣) إعلام الموقعين: ٢/ ١٩٢.
(٤) مصنف ابن أبي شيبة: ١/ ٢٧٧، رقم (٣١٨٨)، وقال الألباني في الثمر المستطاب، ص (٢٩٥): «سند صحيح».
(٥) الموطأ: ١/ ٣٥٢، رقم (٧٨٣).
(٦) المدخل المفصل: ١/ ١٠٧.

وفي مثل هذا المعترك الساخن الذي تكثر فيه الزيغات والزلات يجب على أهل العلم والرسوخ، تجلية الحقائق واستبانة سبيل الحق، ودفع إيهام المتعالمين المتحذلقين، وقد كان سلفنا - رضوان الله عليهم - يردون على من نطق بالباطل باطلَه، لا يخافون في الله لومة لائم، وقد يكون الأمر باطلاً محتمَلاً، وقد يكون أمراً فيه اجتهاد أو راجعاً إلى مصلحة، لكنهم - رضوان الله عليهم - لَمَّا بايعوا رسول الله على السمع والطاعة في اليسر والعسر والمنشط والمكره بايعوه على أنْ يقولوا بالحق أينما كانوا، لا يخافون في الله لومة لائم[1].

ولما خرج عمار بن ياسر - رضي الله عنهما - مع علي في وقعة الجمل وعلم أنَّ عائشة - رضي الله عنها - خرجت مع الجيش الآخر، وقف في الناس خطيباً وقال: (أيها الناس! والله إني لأعلم أنها زوجة نبينا في الدنيا والآخرة! ولكن الله ابتلاكم ليعلم أتطيعوه أم تطيعوها؟)[2]. لقد أثبت لها فضلها وشَرَفها ومِزيَتها - رضوان الله عليها - لكنه نطق بالحق وإن كان في خلاف عائشة - رضي الله عنها - لأن الحق أعلى وأغلى من الرجال.

قال رجل للإمام أحمد: إن ابن المبارك قال كذا، فقال الإمام أحمد: (إن ابن المبارك لم ينزل من السماء)[3].

وقال الإمام القرطبي، وقد ذكر الخلاف في حكم شرب النبيذ: (فإن قيل: فقد أحل شربه إبراهيم النخعي وأبو جعفر الطحاوي وكان إمامَ أهل زمانه، وكان سفيان الثوري يشربه...) ثم قال معلقاً: (هذه زلة من عالم وقد حُذِّرْنَا من زلة العالم، ولا حجة في قول أحد مع السُّنة)[4].

وما عكَّر صفو الساحة في هذه الأيام إلا المجاملة، نغضُّ الطرف، ونسكت مرة بعد مرة، حتى يُطلَّ الباطل برأسه، ويَنشرَ على الناس رواقه، ويتَّبعَ المبطلَ فئامٌ مِنَ الناس ممن اغتروا بزخرف القول.

ولهذا كان من الوظائف الشريفة للأجلَّة مُقَارَضَة مجاهرة هؤلاء بالشذوذات، بالإجهار الشجاع بالحق؛ لأن سكوت الأكابر يزيد من تنمُّر الأصاغر، ومن ثَـمَّ الامتداد الفج في صناعة منهج للشذوذ العلمي، سيكون له رموزه وأتباعه، ولربما تكون له الحماية والرعاية الكاملة، وهنا مَكْمَن الفتنة للناس الذين قد تخفى عليهم بدهيات العلم، وقد وجدنا مع الأيام أن هؤلاء لا يتورعون عن الفتيا بشيء مهما عظم، بل هم إلى القضايا الكبرى أسرع منهم إلى غيرها.

ولا يَجْمُلُ العلم بالعالِم إلا إذا لزم نصوص الشريعة وحمى حماها وناهض لأجلها مجتنباً الغرائب من الأقوال، والشذوذات من الفتاوى، وما لا يُحسِن الناسُ فهمَه، أو ما يسبب رقَّة في الدين، أو فحشاً في السلوك.

ولذا لا يُتصوَّر صدور مثل تلك الفتاوى المفسدة لدين الناس من مفتٍ يعلم ما وصلت إليه أحوال الناس من البُعد عن الشرع. قال العلاَّمة محمد بن إبراهيم - رحمه الله - في شأن من تطاول على العلم في أحكام المناسك وغيرها في هذه الأزمان: (لقد انطلقت ألسنة كثير من المتعلمين، وجرت أقلام الأغبياء والعابثين، وطارت كلَّ مطار في الآفاق كلمات المتسرعين، واتخذت الكتابة في أحكام المناسك وغيرها تجربةً لأقلام بعض، وجنوح الآخرين إلى إبراز مقتضى ما في ضمائرهم وأفهامهم، ومحبة آخرين لبيان الحق وهداية الخلق، لكنهم مع الأسف ليسوا من أهل هذا الشأن، ولا ممن يجري جواده في هذا الميدان، فنتج عن ذلك من القول على الله وعلى رسوله بغير علم وخرق سياج الشريعة ما لا يسع أُولِي الأمر من الولاة والعلماء أن يتركوا لهم الحبل على الغارب.

ولَعَمري لإن لم يُضرَب على أيدي هؤلاء بيد من حديد، وتُوقَّف أقلامهم عن جريانها بالتهديد والتغليظ الأكيد، لتكونن العقبى التي لا تُحمَد، ولتأخذنَّ في تماديها إلى أن تكون المناسك أُلعوبَة للأعبين، ومعبثة للعابثين، ولتكونن بشائرَ بين المنافقين، ومطمعاً لأرباب الشهوات، وسلَّماً لمن في قلوبهم زيغ من أرباب الشبهات، وفساداً فاشياً في تلك العبادات، ومصيبة لا يشبهها مصيبة، ومثار شرور شديدة عصيبة، ولَيَقومَن سوق غثٍّ الرخص، وليبلغن سيل الاختلاف في الدين والتفرُّق فيه الزبى.

ولربما يقول قائل: أليس كتاب الله العزيز فينا موجوداً، وحسام سنة رسول الله ﷺ فيما بيننا محدوداً.

قيل: نعم، ولكن ماذا تغني السيوف المغمدة، ولم ينل الكتاب العزيز مغزاه ومقصده.

لقد أسمعتَ لو ناديتَ حياً
ولكنْ لا حياةَ لمن تنادي
ولو ناراً نفختَ بها أضاءتْ
ولكن أنت تنفخُ في رمادِ[5]

(١) أخرجه البخاري: ٦/٢٦٣٣، رقم (٦٧٧٤)، ومسلم: ٣/١٤٦٩، رقم (١٧٠٩) من حديث عبادة بن الصامت، رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري: ٦/٢٦٠٠، رقم (٦٦٨٧).
(٣) ينظر: الفروع: ٦/٣٨١.
(٤) تفسير القرطبي: ١٠/١٣١.
(٥) فتاوى ورسائل محمد بن إبراهيم آل الشيخ: ٣/٤٧ - ٤٨.

وقد كان الأئمة وأهل العلم يحتسبون أيَّما احتساب في مناصحة المتعالمين الذين يتقصدون الشذوذ في الفتوى، ومن لطائف ما جاء في ذلك ما ورد في رسائل الشيخ محمد بن إبراهيم:

(من محمد بن إبراهيم إلى المكرم... سلَّمه الله.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

فالداعي إلى الكتابة لكم أنه تكرر منك تدخلكم في ما أنتم في غنى عنه، فضلاً عمَّا فيه من التنافي مع ما يقتضيه التقى والورع من وجوب استبراء العبد لدينه وعرضه، وذلك رأيكم في التصديق للعامة بإفتائهم في مسائل الطلاق بما هو خلاف ما عليه الفتوى وما اشتهر القول به لدى جمهور العلماء، ومرجوحيته ظاهرة لدى المحققين من أهل العلم...

فنأمل منك - بارك الله فيك - الكفَّ عن إرباك العامة بفتاوى شاذة أو مرجوحة، ومتى تقدَّم إليك من يطلب الفتوى فعليك بالإشارة لهم إلى الجهة المختصة بالفتاوى، ونرجو أن يكون لديك من أسباب احترامك نفسك ما يغنينا عن إجراء ما يوقفك عند حدِّك، هذا ونسأل الله لنا ولك حُسْن الختام والتوفيق لما يحبه ويرضاه. والسلام عليكم.

مفتي الديار السعودية

(ص/ف ٣٨٦٨ في ١٥/١٠/١٣٨٧هـ)[١].

ولربما قال قائل: أبعدت النجعة وأمعنت خيالاً حينما قرنت هذا العهد بذلك؛ لأن هذا هو عصر الانفتاح والانفساح والعولمة وحرية الرأي!

وبكل بداهة يقال: نحن لا نتطلب عهداً كعهد العلاَّمة محمد بن إبراهيم، وحنانيك بعض الشر أهون من بعض، بل هو بيان للدين، وحديث باسم التشريع القرآني والنبوي، وهذا ليس إلا لمن اختارهم الله ومنحهم علماً وفهماً ودركاً لمنازع النصوص ودلالاتها، وتوفرت لديهم شرائط الاجتهاد كما سبق، مع وجوب التزامهم بالدليل ومراعاة المصالح ومحاذرة الشذوذ والخروج على الإجماع والجماعة.

ومعلوم عند أهل العلم والإيمان أن الحق في الاتباع والدليل، وعدم مخالفة الجماعة، والأخذ بالأقوال الشاذة من غير برهان، ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا** ﴾ [النساء: ١١٥]؛ ولهذا لا يجوز أن يمكَّن من الخوض في الفتوى الجاهلون بمقاصد الشريعة ومدارك الأحكام، المتخرصون على معانيها بالظن، المتعالمون بلا رسوخ، الخائضون في مظان الاشتباه بلا تمييز، المقتحمون غمار الفتوى بلا علم ولا عدة ولا تأهيل.

وفي الأمة بحمد الله علماء متمكِّنون من درك أحكام الوقائع، بصيرون بمسالك النظر والاستنباط، راسخون في التخريج والترجيح. ولا تظهر الأفكار الزائغة والعقائد المنحرفة والأقوال الشاذة إلا بترك الصدور عن العلماء الراسخين، وأخذ العلم والفتوى عن أهل الجهل والهوى.

روى عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعاً يَنْتَزِعُهُ مِنْ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ؛ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِماً اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوساً جُهَّالاً فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»[٢].

وعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: (لَيْسَ عَام إِلَّا والَّذِي بَعْده شَرّ مِنْهُ، لَا أَقُول: عَام أَمطَرُ مِنْ عَام، ولَا عَام أَخْصَب مِنْ عَام، وَلَا أَمِير خَيْرٌ مِنْ أَمِير، وَلَكِنْ ذَهَابُ علمائكم وخياركم، ثُمَّ يَحْدُث قَوْم يَقِيسُونَ الْأُمُور بِآرَائِهِمْ فَيُهْدَم الْإِسْلَام ويُثلم)[٣].

قال أبو هريرة - رضي الله عنه -: قال رسول الله ﷺ: «سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتُ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ. قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ: الرَّجُلُ التَّافِهُ يَتكلم فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ»[٤].

أليس هذا زمان الرويبضة؟ بلى والله! إن هذا زمانه، وإنها السنين الخداعة التي نطق فيها الرويبضة، كما أخبرنا بذلك رسولنا ﷺ قبل مئات السنين. فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

اللهم من وقع في هذه الفتنة من المسلمين فردَّه إليك ردّاً جميلاً وافتح على قلبه وبصره بالحق، واكفه شر نفسه وشر الشيطان، وأعوان الباطل.

---

(١) فتاوى ورسائل الإمام محمد بن إبراهيم آل الشيخ: ١١/٣٦. وانظر في هذا الموضوع إرسال الشواظ على من تتبع الشواذ: (١١٢ - ١١٧)

(٢) أخرجه البخاري: ١/٥٠، رقم (١٠٠)، ومسلم: ٤/٢٠٥٨، رقم (٢٦٧٣).

(٣) أخرجه الدارمي: ١/٧٦، رقم (١٨٨).

(٤) الإسناد فيه ضعف، وقد أخرجه ابن ماجة: ٢/١٣٣٩ رقم (٤٠٣٦)، وأحمد: ١٣/٢٩١ رقم (٧٩١٢)، والحاكم: ٤/٥١٢ رقم (٨٤٣٩)، وقال: «صحيح الإسناد»، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم (١٨٨٧).

الاستعمار والاحتفاء بالمولد!

د. عبدالعزيز بن محمد آل عبداللطيف(*)

www.alabdulltif.net

حكى المؤرِّخ الجبرتي أن الفرنسيين في مصر أحيوا الاحتفال بالمولد النبوي سنة ١٢١٣هـ ودفعو تكالفيه، واجتمعوا في يوم المولد ولعبوا وضربوا طبولهم(١).

وأورد الجبرتي في حوادث سنة ١٢١٤هـ أن (الفرنساوية) أذِنوا بإقامة الموالد «لِمَا رأوا فيه من الخروج عن الشرائع واجتماع النساء واتباع الشهوات والتلاهي وفِعْل المحرَّمات»(٢).

وأشار الجبرتي إلى أن طبيعة (الفرنساوية) المجون والخلاعة(٣). وهذا متحقق في المولد كما شوهد وجُرِّب.

ومن شواهد هذه الأيام أن السفير الأمريكي بالقاهرة لا يفوته مولد البدوي(٤). فالبدوي يحمي الوحوش في البر، والأسماك في البحر؛ فكيف يعجز عن حماية من يحضر مولده؟ كما جاء في هذيان الشعراني في طبقاته(٥).

وعندما يحتفي المستعمر النصراني بالمولد فَلِأجل ما في هذه الموالد من الغلو والإطراء للأنبياء والأولياء، ودين النصارى قائم على ذلك الغلو والإفراط، وقد قال ﷺ: «لا تُطْرُوني كما أطرت النصارى ابن مريم»(٦)، إضافة إلى أن الاحتفال بالمولد النبوي فيه تشبُّه بالكافرين في الاحتفال بميلاد عيسى، عليه السلام.

والمقصود أن النصارى يفرحون بما يفعله أهل البدع والجهل من المسلمين مما يوافق دينهم، ويشابهونهم فيه(٧).

ومن المعلوم أن الاحتفال بالمولد النبوي وجَعْلَه عيداً: من البدع الحادثة التي لم يشرعها الله ورسوله ﷺ ولا السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار؛ حتى قال الفاكهاني (ت ٧٣٤هـ): «لا أعلم لهذا المولد أصلاً في كتاب ولا سنة، ولا يُنقَل عمله عن أحد من علماء الأمة الذين هم القدوة في الدين، المتمسكون بآثار المتقدمين، بل هو بدعة أحدثها البطَّالون، وشهوة نَفْس اغتنى بها الأكَّالون»(٨).

وقال ابن الحاج (ت ٧٣٧هـ): «... ومن جملة ما أحدثوه من البدع مع اعتقادهم أن ذلك من أكبر العبادات وإظهار الشعائر، ما يفعلونه في شهر ربيع الأول من المولد، وقد احتوى على بدع ومحرَّمات»(٩).

وقد حرر ابن تيمية حكم المولد، وبيَّن وجه كونه بدعة، وما في الاحتفال بالمولد من عزوف عن السنن وفتور عن لزوم الشرع، فقال: «وكذلك ما يحدثه بعض الناس: إما مضاهاة للنصارى في ميلاد المسيح عيسى - عليه السلام - وإما محبة للنبي ﷺ وتعظيماً، والله قد يثيبهم على هذه المحبة والاجتهاد، لا على البدع (من اتخاذ مولد النبي ﷺ عيداً، مع اختلاف الناس في مولده)؛ فإن هذا لم يفعله السلف، مع قيام المقتضي له وعدم المانع فيه، ولو كان هذا خيراً محضاً أو راجحاً لكان السلف - رضي الله عنهم - أحقُّ به منا؛ فإنهم كانوا أشد محبة لرسول الله ﷺ وتعظيماً له منَّا. وأكثر هؤلاء الذين تجدهم حرصاء على أمثال هذه البدع مع ما لهم فيه من حُسْن القصد والاجتهاد الذي يُرجى لهم به المثوبة، تجدهم فاترين في أمر الرسول عمَّا أُمِروا بالنشاط فيه»(١٠).

والحاصل أن الاحتفال بالمولد بدعة محدَثة؛ لأن السلف الصالح من القرون المفضَّلة لم يفعلوه مع قيام المقتضي وانتفاء المانع، ولو فعلوا ذلك لنُقِل، فلما لم يُنقل مع توفر الدواعي

(*) أستاذ مشارك في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض.

(١) تاريخ الجبرتي: ٢/٢٠١.

(٢) تاريخ الجبرتي: ٢/٣٠٦.

(٣) تاريخ الجبرتي: ٢/٢٤٤.

(٤) التصوف لمحمد المقدي، ص٣١.

(٥) الطبقات الكبرى للشعراني: ١/١٦٢.

(٦) أخرجه البخاري.

(٧) مجموع الفتاوى لابن تيمية: ١٧/٤٦٢.

(٨) المورد في عمل المولد ص ٨ - ٩.

(٩) المدخل: ٢/٢٢٩.

(١٠) الاقتضاء: ٢/٦١٥.

والهمم على نقله، دلَّ على أن هذا الترك الراتب هو السُّنة التي لا محيد عنها.

ثم إن ابن تيمية – وهو على جادَّة أئمة أهل السُّـــنة الذين يرحمـــون الخلق ويعلمون الحق – بيَّن أن بعض الذين يحضرون المولد قد يُثابون على محبة الرســـول ﷺ وحُسْـــن النية، ولكن لا يثاب الشـــخص على البدعة والإحداث في دين الله، تعالى. فالبدعة لا تنفك عن الإثم والعقوبة والذلِّ والصغار؛ فلا يُحكَم بتأثيـــم كل من حضر المولد، كما لا يقـــال بحصول الثواب لمن حضره. وكعـــادة ابن تيمية في قوة حجته وتنويع أدلَّته في الردِّ على المبتدعة؛ ســـواء من الشـــرع المنـــزَّل أو العقل الصريح أو الفطرة الضرورية، فقد أكَّد – رحمه الله – أن الاشتغال بالبدع يزهِّد في السنن، وحضورَ الأعيادة المبتدَعة ينقص قدر الأعياد المشـــروعة (الفطر والأضحى)، وأن هذا أمر يجده الإنسان في نفســـه ضرورةً، فقال – رحمه الله –: «من شأن الجسد إذا كان جائعاً فأخذ من طعام حاجته اســـتغنى عن طعام آخر، حتى لا يأكلـــه إن أكل فيه إلا بكراهة وتجشُّـــم، وربما ضرَّه أكله، أو لم ينتفع به، ولم يكن هو المغذي له الذي يقيم بدنه؛ فالعبد إذا أخذ من غير الأعمال المشروعة بعض حاجته، قلَّت رغبته في المشروع وانتفاعـــه به، بقدر ما اعتاض عن غيـــره، بخلاف من صرف نهمته وهمَّته إلى المشروع؛ فإنه تعظُم محبته له ومنفعته به»[1]. إلـــى أن قال: «وأقل الدرجات أنـــك لو فرضت رجلين أحدهما قد اجتمع اهتمامه بأمر العيد على المشروع، والآخر مهتم بهذا وهذا، فإنك بالضرورة تجد المتجرِّد للمشـــروع أعظم اهتماماً به من المشـــرك بينه وبين غيره، ومن لم يدرك هذا فلغفلته أو إعراضه، وهذا أمر يعلمه من يعرف بعض أسرار الشرائع. وأما الإحســـاس بفتور الرغبة فيجده كل أحد، فإنا نجد الرجل إذا كسا أولاده، أو وسَّع عليهم في بعض الأعياد المسخوطة؛ فلا بد أن تنقص حرمة العيد المرضي من قلوبهم»[2].

ولا بد أن نشـــير إلى أن أجدى وأبقى وســـيلة في مدافعة الأعياد البدعيـــة ونحوها هي إظهار الســـنن النبوية ولزومُها والدعـــوةُ إليها؛ فالنفـــوس خُلقَت لتعمل لا لتُترك، والإنســـان بطبيعته حارث عامل. فالاعتصام بالمشـــروع يمنع من السقوط في الممنوع، ولزوم السنن يحفظ المرءَ من الولوغ في البدع.

ولئن كان المتكلمة قد اختاروا الســـلب والنفي في الصفات الإلهيـــة، ولحقهم المتصوفة فأصابهم الولع بالنفي والتروك في الســـلوك، فقد تأثر بعض المتسنِّنة بذلك؛ فاستحوذ على فريق منهـــم تتبُّعُ المحدَثات المغمورة والمشـــهورة والظاهرة والمطمورة بدعـــوى التحذير والتنبيه، وغلب علـــى خطابهم الترك والمنع، والمتعيِّن إظهار سنن سيد المرسلين ﷺ، وتبليغ رسالات الله في جميع الأصقاع؛ فهذا مقدور ومشروع.

ومهمـــا يكن فإن بعـــض الآراء الرخوة التـــي قالها بعض المنتسبين لأهل السُّنة من أسباب تسلُّط «عشاق» المولد وشغبهم على عموم أهل السُّنة المحضة؛ حيث سوَّغ بعض المتسنِّنة احتفالَ الشخص بميلاده أو زواجه، وجوَّز آخرون الذكريات الوطنية.

فقال عشـــاق المولد النبوي لعشـــاق مولد الصبيان والأوطان والزواج بالنسوان: أنتم تنكرون علينا الاحتفال بمولد سيِّد الثقلين ﷺ، ثم أنتم هؤلاء تســـوِّغون ما دون ذلك بمراحل ومراحل؛ فلئن جاز فِعْلكم فإن فعلنا أَوْلَى وأحرى بالجواز والاتباع.

إن المواقـــف الواضحة والحازمة تجاه هذه الأعياد المحدَثة هو المسلك الســـديد في براهينه وأطِّراده واتساقه؛ فالعيد يومٌ يُعتَاد مجيئه كلَّ عام أو شـــهر. ويتحقق فيـــه اجتماع وأعمال؛ كما في عيديِّ الفطـــر والأضحى، وما عدا ذلك فهو من البدع والمحدثات، ومن التشـــبُّه بالكفرة والمشركين، وأما أن يتحذلق بعضهم ويســـوِّغ هذه الأعياد بدعوى أنـــه لا يُتعبَّد بها، فليس كذلك؛ فالأعياد من جملة العبادات: كالقِبلَة والصلاة والصيام. أو يتكلـــف بعضهم جواز الاحتفال بميلاد ولده أو وطنه على أن لا يسمى عيداً؛ وإنما هي ذكرى أو مناسبة. فهذا تأويل بارد؛ إذ العبرة بالحقائق والمعاني لا بمجرد الألفاظ والمباني، إضافة إلى ما فيها من مضاهاة الأعياد الشرعية ومزاحمتها.

وأخيراً فهذه الدنيا مظلمة إلا ما أشرقت عليه رسالة السراج المنير ﷺ. قال – تعالى –: ﴿ **أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا** ﴾ [الطلاق: ١٠ – ١١]، وأحوال الموالد لا تنفـــك عن ظلمات بعضها فوق بعض؛ فظلمة الشـــراك الصراح، والركـــون إلى ظلمة القبور، «وحمم الشـــهوات التي تتفجر تحت سود ليالي الموالد»[3]، إضافة إلى سيل من الحماقات والخرافات. فيستحيل أن يجتمع هذا النور المبين مع ذلك الحندس والظلام.

(١) الاقتضاء: ١/ ٤٨٣.

(٢) الاقتضاء: ١/ ٤٨٥.

(٣) هذه هي الصوفية، للوكيل، ص١٦١.

أعمال الأبرار

د. توفيق علي زبادي

الابتغاء: خُصَّ بالاجتهاد في الطلب؛ فمتى كان الطلب لشيء محمود فالابتغاء فيه محمود نحو قوله – تعالى –: ﴿ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ [الإسراء: ٢٨] وقوله – تعالى –: ﴿إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى﴾ [الليل: ٢٠][١].

ومعنى ابتغاء وجه الله: ابتغاء رضاه[٢].

ففي الإنفاق: قال – تعالى –: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللّهِ وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، وقال – تعالى –: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

قال سيد قطب – رحمه الله –: (إن هذا هو شأن المؤمن لا سواه، إنه لا ينفق إلا ابتغاء وجه الله، لا ينفق عن هوى ولا عن غرض، لا ينفق وهو يتلفت للناس يرى ماذا يقولون، لا ينفق ليركب الناسَ بإنفاقه ويتعالى عليهم ويشمخ، لا ينفق ليرضى عنه ذو سلطان أو ليكافئه بنيشان، لا ينفق إلا ابتغاء وجه الله خالصاً متجرداً لله... ومن ثَمَّ يطمئن لقبول الله لصدقته؛ ويطمئن لبركة الله في ماله؛ ويطمئن لثواب الله وعطائه؛ ويطمئن إلى الخير والإحسان من الله جزاء الخير والإحسان لعباد الله. ويرتفع ويتطهر ويزكو بما أعطى وهو بَعْدُ في هذه الأرض. وعطاء الآخرة بعد ذلك كله فضل)[٣].

وقال السعدي – رحمه الله – في تفسير الآية: (هذا إخبار عن نفقات المؤمنين الصادرة عن إيمانهم أنها لا تكون إلا لوجه الله – تعالى – لأن إيمانهم يمنعهم عن المقاصد الردية ويوجب لهم الإخلاص)[٤].

وقال الشيخ رشيد رضا – رحمه الله – (وَلِلْإِنْفَاقِ فَائِدَتَانِ: أُولَاهُمَا – وَهِيَ الْمَقْصُودَةُ بِالذَّاتِ –: تَثْبِيتُ نَفْسِ الْمُنْفِقِ وَتَرْقِيَتُهَا بِالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ ابْتِغَاءَ وَجْهِهِ.

وَالْأُخْرَى: الثَّوَابُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهِيَ دُونَ الْأُولَى عِنْدَ الْعَارِفِينَ.

وَابْتِغَاءُ وَجْهِ اللهِ بِالْعَمَلِ هُوَ أَنْ يَعْمَلَ لَهُ دُونَ سِوَاهُ تَقَرُّباً إِلَيْهِ وَإِرْضَاءً لَهُ لِذَاتِهِ لَا لِلتَّشَوُّفِ إِلَى شَيْءٍ آخَرَ، كَأَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ

(١) مفردات ألفاظ القرآن للراغب: ص٥٦.
(٢) التحرير والتنوير: ٧/٣٦٦.
(٣) الظلال: ١/ ٢٩٥.
(٤) السعدي: ص ١١٦.

عَرْضُـــهُ عَلَيْهِ وَمُقَابَلَتُهُ بِهِ فَقَطْ، وَلَا يَفْهَمُ هَذَا حَقَّ فَهْمِهِ إِلَّا مَنْ عَرَفَ مَرَاتِبَ النَّاسِ وَمَقَاصِدَهُمْ فِي خِدْمَةِ الْمُلُوكِ؛ ذَلِكَ أَنَّ:

مِنْهُمْ مَنْ يَعْمَلُ لِلْمَلِكِ خَوْفاً مِنَ الْعُقُوبَةِ عَلَى تَرْكِ مَا فَرَضَهُ عَلَيْهِ قَانُونُهُ أَوِ التَّقْصِيرِ فِيهِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْمَلُ لِأَجْلِ اقْتِضَاءِ الْأَجْرِ الَّذِي فُرِضَ لِلْعَمَلِ فَهُوَ لَا يُفَكِّرُ فِي غَيْرِهِ.

وَمِنْهُـــمْ مَنْ يَعْمَلُ فَيُجِيدُ الْعَمَلَ لِأَجْلِ الِارْتِقَاءِ مِنْ جَزَاءٍ إِلَى أَكْبَرَ مِنْهُ.

وَمِنْهُـــمْ - وَهُوَ أَعْلَاهُمْ مَرْتَبَةً - مَنْ يَعْمَلُ الْعَمَلَ الْحَسَـــنَ الْمُرْضِـــي لِلْمَلِكِ لِأَجْلِ أَنْ يَكُونَ فِي نَظَرِهِ مُحْسِـــناً عَارِفاً قِيمَةَ الْعَمَـــلِ الَّذِي أَمَرَ بِهِ وَمَا وَرَاءَهُ مِنَ الْحِكْمَةِ الَّتِي كَانَتْ عِلَّةَ الْأَمْرِ فَمِثْـــلُ هَذَا يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ فِيهِ: إِنَّهُ مُبْتَغٍ وَجْهَ الْمَلِكِ؛ أَيْ أَنْ يَكُونَ فِي الْجِهَةِ الَّتِي يَرَاهُ فِيهَا مُحْسِـــناً، فَإِنَّ مَـــنْ يَتَعَرَّضُ لِأَنْ يُرَى فَإِنَّمَا يَأْتِي مِنْ تِلْقَاءِ الْوَجْهِ.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْمَلُ الْعَمَلَ لَا يَبْتَغِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُوَاجِهَ النَّاسَ - لَا الْمُلُـــوكَ خَاصَّةً - بِمَا يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ كَمَالٌ لَا يَبْتَغِي غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ جَلْبِ نَفْعٍ أَوْ دَفْعِ ضُرٍّ، فَأَرْشَـــدَ اللهُ الْإِنْسَـــانَ أَنْ يَكُونَ فِي عَمَلِهِ الصَّالِـــحِ مَعَ اللهِ - تَعَالَى - كَذَلِكَ؛ أَيْ أَنْ يُكْمِلَ نَفْسَـــهُ بِالْعَمَلِ وَيَبْتَغِيَ أَنْ يَرَاهُ اللـــهُ - تَعَالَى - كَامِلاً يَعْمَلُ الْعَمَلَ لِأَنَّهُ حَسَـــنٌ، تَتَحَقَّقُ بِهِ حِكْمَتُهُ - تَعَالَى - وَتَقُومُ بِهِ سُنَنُهُ فِي صَلَاحِ الْبَشَرِ)[1].

وعن عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ: أَنَّ رَسُـــولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فَمِ امْرَأَتِكَ»[2].

الظالمون في مقام الإنفاق:

قَـــالَ - تعالى -: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَـــذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

قال الشيخ رشيد رضا - رحمه الله -: (وَالظَّالِمُونَ فِي مَقَامِ الْإِنْفَاقِ: هُمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَـــهُمْ؛ إِذْ لَـــمْ يُزَكُّوهَا وَيُطَهِّرُوهَا مِنْ هَذِهِ الْفَحْشَـــاءِ (الْبُخْلِ)، أَوْ مِنْ رَذَائِلِ الرِّيَاءِ وَالْمَنِّ وَالْأَذَى. وَظَلَمُوا الْفُقَرَاءَ وَالْمَسَاكِينَ بِمَنْعِ مَا أَوْجَبَهُ اللهُ لَهُمْ، وَظَلَمُوا الْمِلَّةَ وَالْأُمَّةَ بِتَرْكِ الْإِنْفَاقِ فِي الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ، وَبِمَا كَانُوا قُدْوَةً سَيِّئَةً لِغَيْرِهِمْ.

فَظُلْمُهُمْ عَامٌّ شَـــامِلٌ؛ فَهَلْ يَعْتَبِرُ بِهَذَا أَغْنِيَاءُ الْمُسْلِمِينَ وَهُمْ يَـــرَوْنَ أُمَّتَهُمْ قَدْ صَارَتْ بِبُخْلِهِمْ أَبْعَـــدَ الْأُمَمِ عَنِ الْخَيْرِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ؟

أَمَـــا إِنَّهُمْ لَا يَجْهَلُونَ أَنَّ الْمَالَ هُـــوَ الْقُطْبُ الَّذِي تَدُورُ عَلَيْهِ جَمِيعُ مَصَالِحِ الْأُمَمِ فِي هَذَا الْعَصْرِ، وَأَنَّهُمْ لَوْ شَـــاؤُوا لَانْتَشَلُوا هَذِهِ الْأُمَّةَ مِنْ وَهْدَتِهَا، وَعَادُوا بِهَا إِلَى عِزَّتِهَا)[3].

وقال ابن عاشور - رحمه الله -: (وَنَفْيُ الْأَنْصَارِ كِنَايَةٌ عَنْ نَفْيِ النَّصْرِ وَالْغَوْثِ فِـــي الْآخِرَةِ وَهُوَ ظَاهِرٌ، وَفِي الدُّنْيَا لِأَنَّهُمْ لَمَّا بَخِلُوا بِنَصْرِهِمُ الْفَقِيرَ بِأَمْوَالِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ يُعْدِمُهُمُ النَّصِيرَ فِي الْمَضَائِقِ، وَيُقَسِّي عَلَيْهِمْ قُلُوبَ عِبَادِهِ، وَيُلْقِي عَلَيْهِمُ الْكَرَاهِيَةَ من النَّاسِ)[4].

الجزاء من جنس العمل:

إن من أغـــاث إخوانه اليوم في لهفاتهم، أغاثه الله في يوم عبوس قمطرير، وســـخَّر الله له فـــي الدنيا من أغاث لهافاته، ونفَّـــس عنه كُرُباته، ومـــن منع إغاثته عن إخوانـــه مُنعَت عنه الإغاثة في الدنيا والآخرة.

إيتاء حقوق ذي القربى والمسكين وابن السبيل:

قال - تعالى -: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْـــكِينَ وَابْنَ السَّـــبِيلِ ذَلِـــكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْـــهَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُـــمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: ٣٨]. أي: (فأعـــطِ القريـــب منك - على حســـب قربه وحاجته - حقَّه الذي أوجبه الشـــارع أو حض عليه: من النفقة الواجبة، والصدقة، والهدية، والبر، والســـلام، والإكرام، والعفو عن زلَّته، والمســـامحة عن هفوته. وكذلك آتِ ﴿الْمِسْـــكِينَ﴾ الذي أسكنه الفقر والحاجة ما تزيل به حاجته وتدفع به ضرورته من إطعامه وسقيه وكسوته.

﴿وَابْنَ السَّـــبِيلِ﴾: الغريب المنقطع به في غير بلده الذي في مظنة شدة الحاجة؛ لأنه لا مال معه ولا كَسْب قد دبَّر نفسه به في سفره، بخلاف الذي في بلده؛ فإنه وإن لم يكن له مال ولكن لا بد - في الغالب - أن يكون في حرفة أو صناعة ونحوها تسد

(١) تفسير المنار: ٣/ ٧٢.
(٢) صحيح البخاري: الأعمال بالنية، ص٥٤.
(٣) تفسير المنار: ٢/ ٦٧.
(٤) التحرير والتنوير: ٣/ ٦٦.

حاجته؛ ولهذا جعل الله في الزكاة حصة للمسكين وابن السبيل.

﴿ذَلِكَ﴾: أي: إيتاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل.

﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ﴾ بذلك العمل ﴿وَجْهَ اللَّهِ﴾ أي: خير غزير وثواب كثير؛ لأنه من أفضل الأعمال الصالحة والنفع المتعدي الذي وافق محله المقرون به الإخلاص.

فإن لم يُرد به وجه الله لم يكن خيراً لِلْمُعْطِي وإن كان خيراً ونفعاً لِلْمُعْطَى؛ كما قال - تعالى -: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]، مفهومها أن هذه المثبتات خير لنفعها المتعدي ولكن من يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً)[١].

إيتاء الزكاة:

قال - تعالى -: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّباً لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩]. (فهذه هي الوسيلة المضمونة لمضاعفة المال - إعطاؤه بلا مقابل وبلا انتظار ردٍّ ولا عوض من الناس - إنما هي إرادة وجه الله: أليس هو الله الذي يبسط الرزق ويقدر؟ أليس هو الذي يعطي الناس ويمنع؟ فهو الذي يضاعف إذن للمنفقين ابتغاء وجهه؛ وهو الذي ينقص مال المرابين الذين يبتغون وجوه الناس... ذلك حساب الدنيا، وهناك حساب الآخرة وفيه أضعاف مضاعفة؛ فهي التجارة الرابحة هنا وهناك)[٢].

والزكاة تطهر النفس وتزكيها؛ كما قال - تعالى -: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣]. قال ابن عاشور - رحمه الله -: (فَالْآيَةُ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ الصَّدَقَةَ تُطَهِّرُ وَتُزَكِّي)[٣].

وعن أم سلمة أن النبي ﷺ بينما هو في بيتها وعنده رجال من أصحابه... قال: «من أدَّى زكاة ماله طيبة بها نفسه يريد به وجه الله، والدار الآخرة لم يغيب شيئاً من ماله»[٤]. (أي: ابتغاء النظر إلى وجه الله في الآخرة أي لا للنجاة من النار والفوز بالجنة فإن هذا أمر أجلُّ وأعظم من ذلك)[٥].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ قَالَ: (أَتَى رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي ذُو مَالٍ كَثِيرٍ وَذُو أَهْلٍ وَوَلَدٍ وَحَاضِرَةٍ فَأَخْبِرْنِي كَيْفَ أُنْفِقُ وَكَيْفَ أَصْنَعُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تُخْرِجُ الزَّكَاةَ مِنْ مَالِكَ؛ فَإِنَّهَا طُهْرَةٌ تُطَهِّرُكَ وَتَصِلُ أَقْرِبَاءَكَ وَتَعْرِفُ حَقَّ السَّائِلِ وَالْجَارِ وَالْمِسْكِينِ»)[٦].

وفي مقصد زكاة الفطر ورد عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أنه قَالَ: (فَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَكَاةَ الْفِطْرِ طُهْرَةً لِلصَّائِمِ مِنْ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ، وَطُعْمَةً لِلْمَسَاكِينِ؛ مَنْ أَدَّاهَا قَبْلَ الصَّلَاةِ فَهِيَ زَكَاةٌ مَقْبُولَةٌ وَمَنْ أَدَّاهَا بَعْدَ الصَّلَاةِ فَهِيَ صَدَقَةٌ مِنْ الصَّدَقَاتِ)[٧].

وفي الإطعام: قال - تعالى - مخبراً عما في نفوس المؤمنين: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً﴾ [الإنسان: ٩]. قال ابن عباس - رضي الله عنه -: (كذلك كانت نياتهم في الدنيا حين أطعموا)[٨]. وقال مجاهد -رحمه الله -: (أما إنهم ما تكلموا به، ولكن علمه الله من قلوبهم، فأثنى به عليهم ليرغب في ذلك راغب)[٩].

وفي الأمر بالصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس: قال - تعالى -: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ [النساء: ١١٤]. قال الطبري- رحمه الله -: (والـ ﴿مَعْرُوفٍ﴾: هو كل ما أمر الله به أو ندب إليه من أعمال البر والخير. الـ ﴿إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾: وهو الإصلاح بين المتباينين أو المختصمين، بما أباح الله الإصلاح بينهما؛ ليتراجعا إلى ما فيه الألفة واجتماع الكلمة، على ما أذن الله وأمر به)[١٠]. والإصلاح بين الناس مقصد أسمى من مقاصد الشريعة لتحقيق الألفة بين المسلمين.

وفي الصبر على ما يتعرض له المنفق: من تكذيب واتهام لنواياه، وإيذاء بالقول والفعل ابتغاء مرضاة الله قال - سبحانه وتعالى -: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢]. (وَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ صَبَرُوا لِأَجْلِ أَنَّ الصَّبْرَ مَأْمُورٌ بِهِ مِنَ اللَّهِ

(١) السعدي: ص٦٤٢.
(٢) الظلال: ٥/ ٤٩٣.
(٣) التحرير والتنوير: ١١/ ٢٢.
(٤) المستدرك على الصحيحين: ١٤٢٢. قال الألباني: صحيح. انظر « السلسلة الصحيحة»: ٦ / ٣٢٦.
(٥) فيض القدير: ٦/ ٢٥٩.
(٦) مسند الإمام أحمد: مسند أنس بن مالك: (١١٩٤٥).
(٧) سنن أبي داود، زكاة الفطر: (١٣٧١).
(٨) القرطبي: ١٩/ ١٣٠.
(٩) الطبري: ٢٤/ ٩٨.
(١٠) الطبري: ٩ / ٢٠٢.

لَا لِغَـــرَضٍ آخَرَ كَالرِّيَاءِ لِيُقَـــالَ: مَا أَصْبَرَهُ عَلَى الشَّدَائِدِ. وَلِاتِّقَاءِ شَمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ)[1].

تعلُّم العلم وتعليمه ابتغاء وجه الله:

ورد عَـــنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضـــي الله عنه - أنه قَالَ: (قَالَ رَسُـــولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْماً مِمَّـــا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيـــبَ بِهِ عَرَضاً مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» يَعْنِي رِيحَهَا)[2].

(فالعلم الَّذِي يُبْتَغَى بِـــهِ وَجْه اللَّه - تَعَالَى - يُنَجِّي صَاحِبه إِذَا قَبِلَهُ اللَّهُ تَعَالَى؛ وهو العلم الذي يعمل به صاحبه، ويعلِّمه الخلق، والحديث دليل على: أَنَّ الْأَخْيَار سِيَّمَا الْعُلَمَاء إِذَا وَرَدُوا يَوْم الْقِيَامَة يَجِـــدُونَ رَائِحَة الْجَنَّة قَبْل أَنْ يَدْخُلُوهَا تَقْوِيَة لِقُلُوبِهِمْ وَتَسْلِيَة لِهُمُومِهِمْ عَلَى مِقْدَار مَرَاتِبهمْ)[3].

الصدقة ابتغاء وجه الله:

ورد عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَلْقَمَةَ الثَّقَفِيِّ أنه قَالَ: (قَدِمَ وَفْدُ ثَقِيفٍ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَعَهُمْ هَدِيَّةٌ فَقَالَ: «أَهَدِيَّةٌ أَمْ صَدَقَةٌ؟ فَـــإِنْ كَانَتْ هَدِيَّةٌ فَإِنَّمَا يُبْتَغَى بِهَا وَجْهُ رَسُـــولِ اللَّهِ ﷺ وَقَضَاءُ الْحَاجَـــةِ، وَإِنْ كَانَتْ صَدَقَةٌ فَإِنَّمَا يُبْتَغَى بِهَا وَجْهُ اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ» قَالُوا: لَا بَلْ هَدِيَّةٌ فَقَبِلَهَا مِنْهُمْ وَقَعَدَ مَعَهُمْ يُسَـــائِلُهُمْ وَيُسَائِلُونَهُ حَتَّى صَلَّى الظُّهْرَ مَعَ الْعَصْرِ)[4].

وعَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: أَسْـــنَدَتُ النَّبِيَّ ﷺ إِلَى صَدْرِي فَقَالَ: ... ومن تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ خُتِمَ لَهُ بِهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»[5].

وهنا تساؤل: هل يُطْلَب من الفقير الدعاء للمُنْفِق أو الثناء عليه؟

قَـــال ابن تيمية - رحمـــه الله -: (وَمَنْ طَلَبَ مِـــنَ الْفُقَرَاءِ الدُّعَـــاءَ أَوْ الثَّنَاءَ خَرَجَ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿**إِنَّمَـــا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً**﴾ [**الإنسان**: ٩]؛ فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُـــولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فَأَعِيذُوهُ وَمَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ فَأَعْطُـــوهُ وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ وَمَنْ صَنَـــعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفاً

فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَـــمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ»[6].

وَلِهَذَا كَانَتْ عَائِشَـــةُ - رضي الله عنها - إِذَا أَرْسَـــلَتْ إِلَى قَـــوْمٍ بِهَدِيَّةٍ تَقُولُ لِلرَّسُولِ: (اسْـــمَعْ مَا دَعَوْا بِهِ لَنَا؛ حَتَّى نَدْعُوَ لَهُمْ بِمِثْلِ مَا دَعَوْا وَيَبْقَى أَجْرُنَا عَلَى اللَّهِ).

وَقَالَ بَعْضُ السَّـــلَفِ: إِذَا أَعْطَيْت الْمِسْـــكِينَ فَقَالَ: بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْك. فَقُلْ: بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْك. أَرَادَ أَنَّهُ إِذَا أَثَابَك بِالدُّعَاءِ فَادْعُ لَهُ بِمِثْلِ ذَلِكَ الدُّعَاءِ حَتَّى لَا تَكُونَ اعتضت مِنْهُ شَـــيْئاً. هَذَا وَالْعَطَاءُ لَـــمْ يُطْلَبْ مِنْهُـــمْ. وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ «مَا نَفَعَنِـــي مَالٌ كَمَالِ أَبِي بَكْـــرٍ»[7] أَنْفَقَهُ يَبْتَغِـــي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ كَمَا أَخْبَرَ اللَّـــهُ عَنْهُ لَا يَطْلُبُ الْجَزَاءَ مِنْ مَخْلُوقٍ؛ لَا نَبِيٍّ وَلَا غَيْرِهِ، لَا بِدُعَاءٍ وَلَا شَفَاعَةٍ)[8].

وعن قتـــادة - رحمه الله - في تفســـير قوله - تعالى -: ﴿**وَمَـــا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى ﴿١٩﴾ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى**﴾ [**الليل**: ١٩ - ٢١]. يقول: ليس به مثابة الناس ولا مجازاتهم، إنما عطيته لله.

وعـــن عامر بن عبد الله عن أبيه قال: (نزلت هذه الآية في أبي بكر الصدِّيق)[9].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) التحرير والتنوير: ١٣/ ١٢٩.
(٢) سنن أبي داود: في طلب العلم لغير وجه الله - تعالى -: (٣١٧٩).
(٣) حاشية السندي على ابن ماجه: ١/ ٢٣٥.
(٤) سنن النسائي، عطية المرأة بغير إذن زوجها: (٣٦٩٨).
(٥) مسند أحمد، مسند حذيفة: (٢٢٢٣٥).
(٦) سنن أبي داود، عطية من سأل بالله، (١٤٢٤). دَلَّ هَذَا الْحَدِيث عَلَى أَنَّ مَنْ قَالَ لِأَحَدٍ: جَزَاك اللَّه خَيْرًا. مَرَّة وَاحِدَة فَقَدْ أَدَّى الْعِوَض وَإِنْ كَانَ حَقّه كَثِيرًا. (انظر عون المعبود: ٤/ ٧٩).
(٧) سنن الترمذي، مناقب أبي بكر: (٣٥٩٤).
(٨) مجموع الفتاوى: ١١/ ١١١.
(٩) الطبري: ٢٤/ ٤٧٩.

اضطراب الملحدين (٤ - ٤)

أ. د. جعفر شيخ إدريس
jsidris@gmail.com

اضطرابهم في العلاقة بين الإيمان ومكارم الأخلاق:

أودُّ قبل الدخول في هذا الموضوع أن أقول كلمة قصيرة عن المفهوم العربي الإسلامي للأخلاق: الخلق (بضم الخاء واللام) في الاستعمال العربي هو الطريقة التي يعامِل بها الواحد غيرَه. وبما أنه لا بد لكل أحد من التعامل مع غيره، فلا بد إذن أن يكون لكل أحد خُلُق. وهذا أمر يشمل حتى بعض الحيوانات؛ فعندما بركت ناقة رسول الله ﷺ وهم في طريقهم إلى مكة في غزوة الحديبية، قال بعض أصحابه: «خلأت القصواء»، فأجابهم الرسول ﷺ بقوله كما في صحيح البخاري: «ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق».

وبما أن المعاملة لا تكون إلا حسنة أو سيئة، فإن الخُلُق لا يكون إلا حسناً أو سيئاً؛ ولذلك تجد الخُلُق في التعبير العربي وفي الشرع الإسلامي لا يكون إلا موصوفاً بالحُسْن أو السوء. من ذلك وَصْفُه - تعالى - رسولَه الكريم بأنه على خُلُق عظيم، وقوله ﷺ في الحديث الذى رواه مالك في الموطأ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». ومَدْحه في أحاديث كثيرة لحُسْن الخلق، وذمُّه لسوئها. لكننا صرنا الآن نقول للسلوك الذميم: إنه سلوك لا أخلاقي؛ ترجمة للكلمة الغربية immoral، وهو تعبير لا معنى له في اللسان العربي؛ لأنه ما من سلوك - حسناً كان أم سيئاً - إلا وهو خُلُقي كما رأينا.

نعود إلى موضوعنا: ما العلاقة بين الإيمان ومكارم الأخلاق: كالصدق والأمانة والوفاء؟

هنالك طرفان ووسط في الإجابة عن هذا السؤال:

طرف يقول: إن من لا يؤمن بالله لا يلتزم بشيء من مكارم الأخلاق، بل ربما قال: إنه لا يعرف لها معنى.

وطرف مقابل يقول: إنه لا علاقة ألبتة بين الإيمان بالله ومكارم الأخلاق.

أما الوسط - وهو الصواب - فيقول: إن مكارم الأخلاق لها أصل في فطرة الإنسان؛ ولهذا يقول ردّاً على الطرف الأول: إن معرفة هذه المكارم واعتبارها شيئاً حسناً أمر يبني عليه الدين مخاطبتَه للإنسان. فكما يفترض الدين أن من يخاطبه مخلوق له عقل، فهو يفترض أيضاً أنه مخلوق يعرف معنى المكارم والمساوئ الخُلُقية؛ فالدين يدعو الإنسان إلى عبادة الله - سبحانه وتعالى - ويعلل هذا الطلب بأن الله - سبحانه وتعالى - هو المنعم على الإنسان بكل أنواع النعم. وجوهر العبادة هو الشكر. فإذا كان المرء لا يعرف للشكر معنى، فإنه لن يعقل لخطاب الوحي معنى؛ فالله - تعالى - يقول مثلاً: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١ - ٢٢]. إذا كان المخاطَب لا يعرف للشكر معنىً، فربما قال: إنني معترف بأن الله - سبحانه وتعالى - هو الذي أنعم عليَّ بكل هذه النعم ولكن ما معنى كوني أشكره وأعبده؟

وإذا قال الله - تعالى - في أول آيات من وحيه يخاطب بها الإنسان: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ - ٥]، فربما قال - إذا لم يكن لمكارم الأخلاق أصل في قلبه -: إنني معترف بأن الله - تعالى - هو الذي خلق الإنسان من علق، ولكن ما معنى كونه الأكرم، ولماذا يكون خَلْقُه لي سبباً لعبادتي له؟

ولكن إذا كان لمكارم الأخلاق هذا الأصل الثابت في الفطرة البشرية، فإنه لا يعني أنه ليس بينها وبين الإيمان بالله – تعالى – صلة كما يدَّعي الملحدون من أمثال دوكنز؛ وذلك أنه:

أولاً: إذا كانت مكارم الأخلاق في أصل الفطرة، فإن الإيمان بالله – تعالى – هو الآخر في أصلها، بل في أصل أصلها؛ ولهذا فإنه مما يقويها ويثبِّتها؛ فكلما قوي الإيمان بالله – تعالى – كانت هذه المكارم أحيا في قلب الإنسان وكانت مراعاته لها أشد.

ثانياً: المؤمن بالله تعالى يعلم أنه – سبحانه – يحب هذه المكارم فهو يحبها بحبه لله، تعالى.

ثالثاً: كما أنه يحبها بحب الله – سبحانه وتعالى – لها، فإنه يحبها ويحاول الاستمساك بها بحب رسل الله لها واستمساكهم بها كما قال الله – سبحانه وتعالى – عن رسوله الكريم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

رابعاً: إذا كان الإنسان يعلم بفطرته مبادئ الأخلاق الفاضلة، فإنه لا يعلم كلَّ مقتضياتها، الوحي هو الذي يهديه إلى كثير من هذه المقتضيات. إن الإنسان يعلم بفطرته – مثلاً – أن العدل شيء حَسَن، ولكن هل يصل علمه به إلى ما وصفه الوحي بمثل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥]؟

وإذا كان الإنسان يعلم أنه من الخير للناس أن يعيشوا متحابين؛ فهل يعلم كل ما يتنافى مع هذا الهدف، وهل هو مستعد لأن يخالف داعية هواه ليحققه؟ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١].

ينقل دوكنز في إعجاب عن آينشتاين قوله: «إذا كان الناس إنما يكونون خيِّرين لأنهم يخشون العقاب ويرجون الثواب فإننا أمة يرثى لها»[(١)].

فهل تدرون كيف كانت الحياة الشخصية لهذا الفيزيائي الشهير قائل هذا القول؟ أنجب أوَّل طفل له من امرأة قبل أن يتزوجها! ثم لَمَّا تزوجها وأنجب منها طفلين طلقته بسبب الخيانة الزوجية![(٢)]. أما زوجته الثانية التي كان عمرها اثنتين وأربعين سنة، فقد رضيت بالأمر الواقع وعاشت معه، رغم اعترفه لها بأن له علاقة بست نساء غيرها!

خامساً: يكاد المفكرون الغربيون يُجمِعون على أن طلب الجزاء على عمل الخير مما يتنافى مع القيم الخُلُقية، ويرون لذلك أن من شرط العمل الخُلُقي أن لا يكون عليه جزاء. لكن الدين الحق يقرر أن جزاء الإحسان بالإحسان هو نفسه أمر يقتضيه الإحسان: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

نعم إن طلب الجزاء الدنيوي على الإحسان أمر يتنافى مع مكارم الأخلاق، لكن هذا لا يعني أن كل جزاء على الإحسان يتنافى معها وإلا كان عمل الخير عبثاً، وكان مَثَله كمثل من يلقي بماله في البحر أو يحرقه؛ لأنه لا معنى للعبث إلا أن يعمل الإنسان عملاً لا يحقق له أي نوع من النفع؛ ولذلك كان من الأدلة على وجود الخالق ضرورةً وجود دار آخرى يثاب فيها المحسن ويعاقب المسيء، وإلا كان المحسن هو الخاسر؛ ولذلك قال – تعالى –: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥ – ٣٦].

هل معنى ذلك أن الملحد لا يمكن أن يُحسِن أبداً؟ كلا. لكنه إذا أحسن فإن إحسانه لا يكون مبنياً على إلحاده وإنما على دوافع أخرى؛ فقد يصدق لأن من مصلحته أن يفعل ذلك في موقف معيَّن؛ ولذلك فإن أبا سفيان – رضي الله عنه – علل صدقه لهرقل بقوله كما في صحيح البخاري: «فو الله لولا الحياء من أن يأثروا عليَّ كذباً لكذبت». فأبو سفيان الذي لم يكن ملحداً ولكنه كان مشركاً لم يعلل امتناعه عن الصدق اعتماداً على شركه، وإنما اعتماداً على مصلحته؛ لأنه كان يعيش في مجتمع يرى رغم شركه أنه من العيب أن يكذب رجل من سادة قومه. وكذلك الملحد قد يصدق؛ لأن الصدق في مصلحته الدنيوية، ولأن الكذب أو السرقة أو الخيانة تعرِّضه لإشانة السمعة أو للعقوبة أو لأي نوع من أنواع الخسارة المادية. ألا يمكن أن يصدق الملحد لأنه بشر يجد حُسْن الصدق في فطرته؟ نعم قد يصدق إذا لم يكن الصدق ضاراً به كما قلنا. أمَّا أن يصدق رغم أن الصدق يكلفه نوعاً من التضحية، فإنه إن صدق يكون قد فعل فعلاً يتنافى مع معتقده. إن فطرته قد تقول له: اصدق رغم أنك إذا صدقت تخسر ألف دولار مثلاً، لكن فكره الإلحادي – إذا كان واعياً به ومنطلقاً

---

(١) ص ٢٢٦.

(٢) تجد هذه المعلومات في شريط فيديو عن حياة آينشتاين الشخصية هو:
Einstein Revealed, WGBH, Educational Foundation, Boston 2004.
كما تجدها في مواقع كثيرة منها:
http://seedmagazine.com/content/article/einstein_in_lust/

منـــه – يقول له: إنك تكون حينئذٍ مغفَّلاً لا عقل لك. إنك تؤمن بأن هذه الحياة هي فرصتك الوحيدة للاستمتاع بما فيها من لذات؛ فلماذا تضحي بها إذن؟ إن مشكلة الذي لا يؤمـــن بالله ولا بالدار الآخرة أنه يجد في نفسه نزاعاً بين فطـرته (إذا كان ما يزال محتفظاً بشـــيء من نقائها) وبين معتقداته؛ ففطرته تدعوه لفعل الخير وإن كان يقتضي شيئاً من تضحية، لكن معتقده يجعل هذا الفعل فعلاً غير عقلاني. وإذن فلا يغرنك عمل خير يصدر عن ملحد أو عن منكر لوجـــود الآخرة؛ فتظن أن عمله دليـــل على صحة معتقـــده أو على أنه لا منافاة بين هذا المعتقد وبين فعل الخير.

قد يقـــال: إذا كان الملحد لا يلتزم دائماً بمكارم الأخلاق، فإن المؤمن أيضاً قد يرتكب ما يتنافى معها؟ الفرق بين الاثنين أن الملحد حين يفعل فعلاً يتنافـــى مع مكارم الأخلاق لا يكـــون قد فعل فعـــلاً يتنافى مع معتقده، بل ربما كان معتقده هو الذي يســـوغ له هذا الفعل. أما المؤمن فإنـــه إذا ما وقع في مثل هذا الفعل، فإنه يعلم أنه أذنب؛ ولذلك فإنه – إذا كان صادق الإيمان – يحزن ويســـتغفر ويتوب، ويعزم على أن لا يعود.

سادســاً: إذا كانت مـــكارم الأخلاق من الفطرة، فمـــا كل ما في الفطرة مما يظل الإنسان له ذاكراً، وإذا كان الإنسان محتاجاً إلى أن يُذكَّر بالله، فمن باب أَوْلى أن يكـــون محتاجاً إلـــى أن يذكَّر بمكارم الأخـــلاق ويُحَثَّ على الاستمســـاك بها. وهذا الـــذي يفعله الدين الحق؛ إذ يذكِّره بالعلاقة القويـــة بينه وبين دينه: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِيـــنَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُـــوا مَعَ الصَّادِقِينَ** ﴾ [**التوبة**: ١٩٩].

«البر حُسْن الخُلُق»(١).

«إن مـــن أحبِّكم إلـــيَّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً»(٢).

«إياكم والكذب؛ فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يُكتَب عند اللـــه كذاباً. وعليكـــم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً»(٣).

ومما اســـتدل به دوكنـــز على عدم الفرق بين المؤمن بالله والمنكر لوجوده في مســـألة الأخلاق تجربةٌ قال: إنه أجراها شـــخصان: أحدهما عالم أحياء، والآخر فيلســـوف أخلاق، ملخصها: أنهما جمعا عدداً من المواطنين مـــن المؤمنين بوجود الله والمنكرين لوجوده وســـألاهم أســـئلة افتراضية، وطلبا منهـــم أن يجيبوا عنها بمعاييـــر خُلُقيـــة فيختاروا مـــا إذا كان العمل المفترض واجباً فعله، أم مباحاً، أم ممنوعاً. وهذا ملخص الأسئلة ونتائجها:

• قطار إذا تُرِك يســـير في خطه المعتاد قتل خمسة أشخاص، وإذا ما حُوِّل قتل شخصاً واحداً؟ أجاب تسعون بالمئة بأنه يجوز تحويله لإنقاذ الخمسة والتضحية بالواحد.

• ترى طفلاً يكاد يغرق في بركة لكنك إذا أنقذته خسرت بنطالك؟ أجاب سبعة وتسعون بالمئة بأن إنقاذه واجب.

• خمســـة أشـــخاص في مستشفى يحتـــاج كلٌّ منهم لعضو لإنقـــاذ حياته، وهنالك شخص سليم في حجرة الانتظار؛ فهل يُقتَل وتؤخذ أعضاؤه لإنقاذ الخمسة؟ أجاب سبعة وتسعون بالمئة بأنه يُمنَع قتله.

قال اللـــذان أجريا هذه التجربة: إنهما لم يجدا فرقـــاً كبيـــراً فـــي الأجوبة بين المؤمنين وغير المؤمنين؛ فاستنتجا من ذلك: أنه لا علاقة للإيمان بمسألة الأخلاق.

لكن على هذه التجربة وما استنتجه اللذان أجرياها ملاحظات، منها:

أن كـــون غير المؤمن له معرفة ببعض مكارم الأخلاق وتطبيقه لها أمر لا يحتاج إلى تجربة كما قررنا من قَبْل.

ومنها: أنه من الســـهل على الإنسان مؤمناً كان أم غير مؤمن أن يلتزم بالمعيار الخُلُقي الكريم إذا لم يقتض منه تضحية. والأسئلة التي ســـألها أصحاب التجربة كلها من هذا النوع ما عدا قصة البنطال الذي كان يمكن أن تضحي به حتى بعض الحيوانات. مـــاذا لو تضمَّنت الأســـئلة سؤالاً، مثل:

إذا اتُّهم شخصان بسرقة شيء وكان أحدهما بريئاً وكنـــتَ تعلم أن المجرم هو ابنك؛ فهل تشهد بأنه هو السارق؟

إذا ارتكبت جرماً يعرضك للحبس أو الغرامة الكبيرة وقال لك محاميك: إنه لا مخرج لك إلا أن تكـــذب؛ فهل يجوز لك ذلك، أم يجب، أم يمنع؟

ومنها: أن الآثار الســـلوكية والخلقية الحســـنة للإيمان باللـــه لا تكون بمجرد الإيمان بوجـــوده. لقـــد كان العرب في جاهليتهـــم يؤمنون بوجـــود الخالق، بل بكونه هو الذي يحي ويميت ويرزق وينجي لكـــن بعضهم كان مع ذلك يئد البنات. إن الإيمـــان الحق هو الإيمان بخالق متصف بصفـــات الكمـــال، وبأنه يبعـــث الناس ويحاسبهم، وبأنه يرسل رسلاً وينزل كتباً لهدايتهم.

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه الترمذي.
(٣) رواه البخاري ومسلم.

المملكة العربية السعودية
وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد
فرع الوزارة في منطقة الرياض
إدارة شؤون الدعوة والإرشاد
مركز الدعوة والإرشاد بالرياض

جامع الراجحي
JAM'EH AL RAJHI

يسر جامع الراجحي بحي الجزيرة

دعوتكم للتسجيل في مسابقة

حِفْظُ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ

(الرابعة)

مستمرة طوال العام الدراسي

يبدأ التسجيل
من يوم السبت الموافق ١٤٣٢/٣/٩هـ

فروع المسابقة

١	حفظ عمدة الأحكام كاملاً للحافظ/ عبد الغني المقدسي
٢	حفظ كتاب الإيمان من كتاب الجمع بين الصحيحين
٣	حفظ ربع المتفق عليه من كتاب الجمع بين الصحيحين
٤	حفظ نصف المتفق عليه من كتاب الجمع بين الصحيحين
٥	حفظ مفردات البخاري ومسلم من كتاب الجمع بين الصحيحين
٦	حفظ زوائد السنن الأربعة

شروط الإلتحاق بالمسابقة

١- اجتياز المقابلة الشخصية .
٢- يشترط للفرع الثاني إلى السادس حفظ القرآن كاملاً.

طريقة التسجيل

في مقر وحدة السنة النبوية
بالجهة الشمالية من الجامع فوق مغسلة الجنائز
من الساعة ٩ صباحا - ١٢ ظهرا + فترة العصر

للاستفسار ٢٤٤٤٤٤٧ تحويلة / ١٣٣
جوال / ٠٥٠٠٩٧٦٣٤٧

www.grajhi.org.com

بين صورتين

فهد بن صالح العجلان
Fsalehajlan@hotmail.com

ثمة صورتان مختلفتان تكشفان عن حالة تثير الدهشة:

الصورة الأولى: يظهر فيها (سعيد بن المسيب والشعبي وسفيان والأوزاعي وأحمد ومالك والشافعي وأبو حنيفة وبقية أئمة الإسلام الكبار)، يخافون من الشبهات ويحذرون منها ويخشون من آثارها في مشهد عريض أثمر تراثاً ضخماً من الأقوال والمواقف؛ تتفاوت في ما بينها لكنها تتفق على أصل (التحذير من الشبهات والابتعاد عنها).

الصورة الثانية: يتحرَّك فيها كثير من المعاصرين، يتواصون فيها على البحث والاستغراق في الكتب والبرامج والحوارات المتخصصة في إثارة الشبهات وتحريك المسلَّمات، يشعرون بقَدْر من الارتياح لحالة التميُّز والانفتاح على الثقافات والرؤى المختلفة، لا يحفظ كثير منهم القرآن ولم يطَّلع جيداً على نصوص السنَّة وثقافتهم في الجملة محدودة في علوم الشريعة، ولعل ما لديهم في عدد من الأبواب الشرعية قد غُرِف من الأوعية المتخصصة في جمع الشبهات.

فيا له من تباين: (الإمام المتبحِّر في أصول الشريعة وفروعها) يخاف من الشبهات ويحذر منها و (الشاب محدود الإطلاع على علوم الشريعة) يُقدِم على الشبهات ويغرف منها ولا يفهم سبب التخوُّف من مثلها خاصَّة مع قدرته على التمييز واختيار الأصلح.

لا أظن أننا بحاجة للمفاضلة بين الصورتين؛ إنما الذي نريد أن نتمعن فيه ونكثر التأمل وإدارة الفكر حوله، هو: لماذا كان السلف يتحاشون الشبهات؟ وما سرُّ هذا الحذر والخشية والفرار من الشبهات و أهلها وموارداها؟

إن أدنى قراءة لأي كتاب موسوعي يجمع آثار السلف يكشف لنا عن جملة من الأسباب التي كانت وراء هذا الموقف الشرعي من أولئك الأئمة، وهو يدل على أن خوفهم هذا كان قائماً على وعي وفقه وعمق؛ فهو ترك واعٍ وليس مجرد تركٍ محض.

إن أول سبب يجب أن ننفيه هنا هو أن خشية السلف من الشبهات كانت بسبب (ضعفهم عن مواجهتها) أو (عدم قدرتهم على تفكيك إشكالياتها) أو (كونها جديدة عليهم وعلى معارفهم؛ فلم يتمكنوا منها) أو أنه (راجع لطبيعة عصرهم وما

توفَّر لديهم من معطيات محدودة) فكلُّ هذا هراء وتخريف لا يستقرُّ في عقل مَنْ سبر حالَ القوم أو اطَّلع على آثارهم؛ فإن (الأئمة) لما رأوا المصلحة في دخول معترك الشبهات ظهرت عبقرياتهم وقدراتهم البارعة في فهم الشبهة وتفكيكها وقلب طاولة الحجج على أصحابها، وانظر إن شئت: لانتفاض الإمام الدارمي على الجهمية في (نقض عثمان بن سعيد) و (الردِّ على الجهمية)، أو في الدلائل المهيبة في ردِّ الإمام أحمد على الجهمية والزنادقة، أو طالع محمد ابن نصر المروزي في تعظيم قَدْر الصلاة أو غيرها كثير.

إذن، لماذا كانوا يخافون من الشبهات ويحذرون منها ويشددون الموقف من أصحابها؟

أولاً: لتعظيمهم كلام الله - تعالى - وكلام رسوله ﷺ؛ فكانوا ينفرون وتشمئز نفوسهم من أي كلام أو رأي يتقدَّم بين يدي الله ورسوله ﷺ؛ فكأنهم يسمعون الله في جلاله يقول لهم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [الحجرات: ١]، فهذا إمام دار الهجرة يحدِّث عن النبي ﷺ فيعترض شخص فيقول: أرأيت لو كان كذا؟ فيقرأ عليه الإمام قوله - تعالى -: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣]، ثم قال: (أفكلما جاء رجل أجدل من الآخر رُدَّ ما أنزل جبريل على محمد ﷺ؟)[١].

وحين يستمتع بعض الناس لبعض الشبهات أو يتتبَّع مجالس أصحابها فإنَّ الفضيل بن عياض لا يراها إلا خوضاً في آيات الله. فيقول: (لا تجادلوا أهل الخصومات؛ فإنهم يخوضون في آيات الله)[٢]. ولعلَّه كان يستشعر فَرَقاً قول الله - تعالى -: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ [الأنعام: ٦٨].

ثانياً: لرسوخ يقينهم وقطعهم بأنهم على الحق والصراط المستقيم باتباعهم لمنهج الكتاب والسُّنة الذي أخذوه عن مشايخهم عن صحابة النبي ﷺ؛ فالطريق واضح أمامهم؛ فلن يضلَّ الصحابة وجمهور التابعين والأسلاف من بعدهم في قضايا الإيمان والاعتقاد ثم يعثر عليه مغمور قد جاء بعدهم بقرون.

فهذا الإمام الحسن البصري يأتيه رجل فيقول: أريد أن أخاصمك، فقال: (إليك عني فإني قد عزمت ديني؛ وإنما يخاصمك الشاك في دينه)[٣].

إنه تفسير عميق لحقيقة كثير من المبتلين بالشبهات؛ فضَعْف يقينهم بأصولهم وثوابتهم هو الذي دفعهم للبحث يمنة ويسرة عن الأجوبة التي تمسك اليقين في قلوبهم، فكانوا مندفعين للاطلاع على الأفكار والرؤى الأخرى لعل الإنسان يجد فيها ما هو خير مما لديه، ويبقى الإنسان بهذا في حال شكٍّ دائم وحيرة مستمرة؛ فكلُّ شيء قابل لأن يوجد ما هو خير منه، وهذا ما يجعل ثَمَّ ترابطاً وثيقاً بين (تتبع الخصومات) وبين (التحوُّل والانقلاب) وهو ما نبَّه عليه السلف قديماً. قال عمر بن عبد العزيز: (من جعل دينه عرضة للخصومات أكثر التحول)[٤].

وقال عمرو بن قيس: (قلت للحكم بن عتيبة: ما اضطر الناس إلى هذه الأهواء أن يدخلوا فيها؟ قال: الخصومات)[٥].

ثالثاً: لأنهم كانوا مدركين لحقيقة الشبهات، فهي ليست مجرَّد معلومات يطَّلع عليها الإنسان ثم يقبلها إن شاء ويتركها إن شاء، بل قد تَعْلق بقلب الإنسان وهو كاره لها فتؤدِّي إلى هلاكه؛ فعن مجاهد قيل لابن عمر: إنَّ نجدة يقول كذا وكذا. فجعل لا يسمع منه كراهية أن يقع في قلبه منه شيء[٦].

ودخل رجلان على محمد بن سيرين من أهل الأهواء فقالا: (يا أبا بكر نحدِّثك بحديث؟ فقال: لا. قالا: فنقرأ عليك آية من كتاب الله؟ قال: تقومان عني أو قمت؟ فخرجا، فقال بعضهم: ما كان عليك أن يقرآ آية؟ فقال: إني كرهت أن يقرآ آية فيحرفانها فيقع ذلك في قلبي)[٧].

وقال عبد الرزاق: (إن القلب ضعيف وإن الدين ليس لمن غلب)[٨].

وأدخل ابن طاووس أصبعيه في أذنيه لما سمع أحدهم، وقال لابنه: أدخِل أصبعيك في أذنيك واشدد لا تسمع من كلامه شيئاً قال معمر: (يعني أن القلب ضعيف)[٩].

فموضوع الشبهات ليس معادلة رياضية قائمة على القدرة على

(١) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السُّنة والجماعة للالكائي: ١/١٦٨.
(٢) المصدر السابق، ص ١/١٤٦.
(٣) المصدر السابق، ص ١/١٤٤.
(٤) المصدر السابق، ص ١/١٤٤.
(٥) المصدر السابق، ص ١/١٤٥.
(٦) المصدر السابق، ص ١/١٣٨.
(٧) المصدر السابق، ص ١/١٥١.
(٨) المصدر السابق، ص ١/١٥٢.
(٩) المصدر السابق، ص١/١٥٢.

نقضها أو الانهزام أمامها، بل لها تعلُّق وثيق بما في قلب المسلم: من خضوع وتعظيم وانقياد للشرع؛ لأجل ذلك جاء الامتنان بالهداية كثيراً في القرآن: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١].

واستشعار هذا المعنى يجعل المسلم يلتجئ إلى الله أن يعصمه ويحفظه ويثبِّت قلبه، ولا يتعامل مع الشبهات على اعتبارها معلومات يستطيع الإجابة عنها، وانظر إلى جانب مشرق في هذا الفقه عند محمد بن النضر الحارثي حين يقول: (من أصغى سمعه إلى صاحب بدعة وهو يعلم أنه صاحب بدعة نزعت منه العصمة ووكل إلى نفسه)[1].

ومن فِقهِهم هنا: أن الشبهة إذا دخلت القلب فإن المبتلى بها لا يرجع عنها؛ لأنه يراها هي الحقُّ والصراط المستقيم، فيستمر فيها، ولأجل هذا قال سفيان: (البدعة لا يتاب منها)[2].

وكيف يتوب منها وهو لا يقبل فيها نصحاً ولا وعظاً ولا إنكاراً، بل يستنكر ويستغرب ممن ينكر عليه.

رابعاً: لأنهم كانوا ينصحون ويريدون الخير لهذه الأمة ويكرهون لها كلَّ ما يضرُّها في دينها ودنياها، ويعلمون أن أكثر الناس لا يستطيعون التمييز بين الشبهات؛ فمن الأمانة والمسؤولية عليهم - لأنهم حَمَلة هذه الشريعة - أن يحذِّروا وينصحوا. قال قتادة: (إن الرجل إذا ابتدع بدعة ينبغي لها أن تُذكَر حتى تُحذَر)[3].

خاصة أنَّ أصحاب الأهواء يستدلون كثيراً بالقرآن و (القرآن مهيب جداً؛ فإن جادل به منافق على باطل أحاله حقاً، وصار مظنَّة للاتباع على تأويل ذلك المجادل)[4] فكان من نصحهم أن حذَّروا من جدال المنافق بالقرآن؛ كما ورد ذلك عن عددٍ من صحابة النبي ﷺ.

خامساً: لأنهم كانوا أهل جِدٍّ في الحياة، يبحثون عن العمل والطاعة والعبادة وما فيه نفع في الدين والدنيا، وأما الكلام في ما لا ثمرة له فكان مذموماً ممقوتاً، قال جعفر بن محمد: (إياكم والخصومات في الدين؛ فإنها تشغل القلب وتورث النفاق!)[5].

وقال مالك: (الكلام في الدين أكرهه كله ولا أحب الكلام إلا ما تحته عمل)[6].

هذا تلمُّس لمحاولة استخراج بعض ما في هذا الموقف من فقه وحكمة، وإن كنتُ أعترف بأنَّني ما زلت بعيداً عن الغوص في أغوار هذا الفقه العميق.

طبعاً، لا يمكن أن ينتهي هذا الكلام إلا ويأتيه الاعتراض المشهور (هذه دعوة إلى الانغلاق، تحرم الإنسان نفسه من الانفتاح على المعارف والاستفادة من ثورة المعلوماتية الهائلة، كما أنَّ صورة الانغلاق غير ممكنة في مثل هذا العصر؟).

كلا، فبإمكان المسلم أن ينفتح ويستفيد من المجالات المتعددة: في الاقتصاد، والسياسة، والإدارة، والتربية، والثقافة، والإبداع، والقانون... ولا حاجة لأن ينفتح فيفتح قلبه لتيار الشبهات ليفسده ويُظلِمه، كما أن حالة الانفتاح لا تؤدِّي ضرورة إلى كسر خاصية الشموخ والاعتزاز بالأصول والثوابت لدى الشاب المسلم.

(١) المصدر السابق، ص ١/ ١٥٣.
(٢) المصدر السابق، ص ١/ ١٤٩.
(٣) المصدر السابق، ص ١/ ١٥٤.
(٤) الموافقات للشاطبي: ٢/ ٢٨٣.
(٥) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السُّنة والجماعة للالكائي: ١/ ١٤٥.
(٦) المصدر السابق، ص ١/ ١٦٨.

دار التدمرية

للنشر والتوزيع

نتشرف بزيارتكم لنا في
جناحنا في معرض الرياض
الدولي من الفترة
٣/٢٧ إلى ١٤٣٢/٤/٧هـ

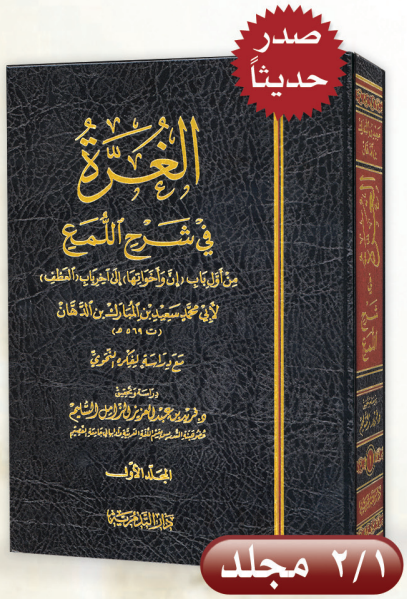

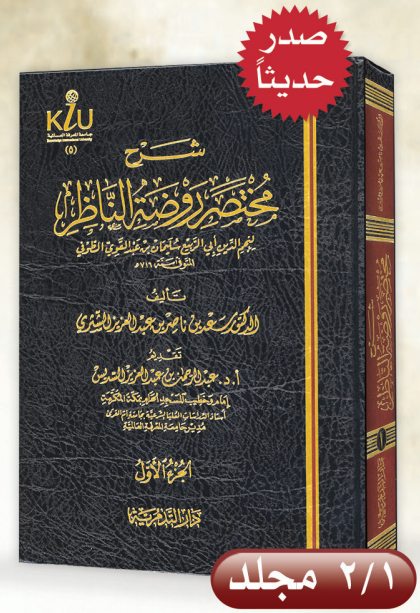

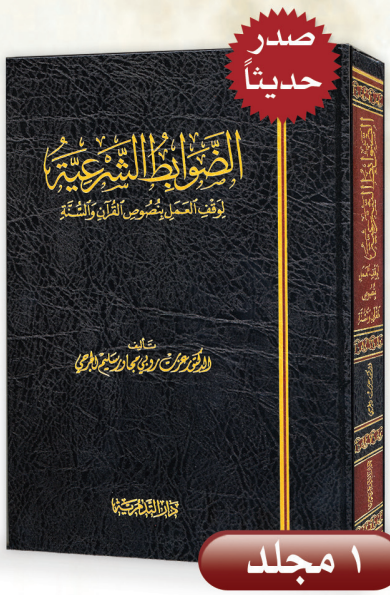

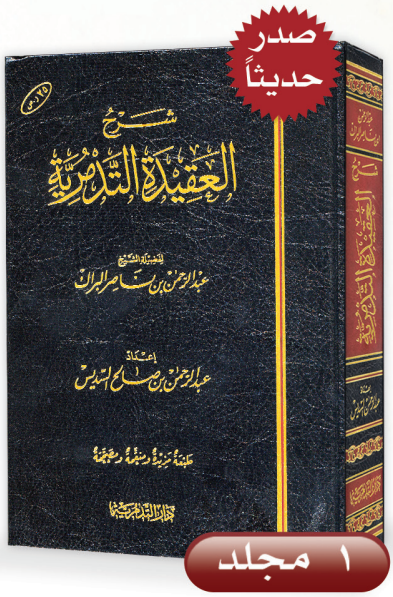

الجديد
والمخفض
دائماً

الرياض ـ الدائري الشرقي ـ جنوب مخرج ١٥ مقابل جامع الراجحي
الجديد هاتف: ٤٩٢٥١٩٢/٤٩٢٤٧٠٦ فاكس: ٤٩٣٧١٣٠
بريدة ـ طريق الشاحنات ـ حي الصفرا ـ هاتف ٣٢٦٢٢٦٢
tadmoria@hotmail.com

الأستاذ د. مصطفى حلمي لـ (البيان):

الدين محرك للسلوك السياسي الغربي

حاوره: البيان

مصطفى محمد حلمي، ولد عام ١٩٣٢م.

حصل على الليسانس في الفلسفة من كلية الآداب بجامعة الإسكندرية، ثم على درجة الماجستير من الكلية نفسها، وكانت أطروحته في (الإمامة عند أهل السُّنة والجماعة)، ثم حصل على الدكتوراه في الكلية، وكانت رسالته عن (موقف المدرسة السلفية من التصوف).

عمل أستاذاً في عدد من الجامعات الإسلامية: كجامعة القاهرة، وجامعة الملك سعود وجامعة أم القرى بالسعودية، والجامعة الإسلامية بباكستان.

اهتم بالدفاع عن عقيدة أهل السُّنة والجماعة وتصحيح ما يطرأ على واقع المسلمين من مخالفات منهجية لها، وقد اعتنى في بحوثه التي قاربت الـ ٣٠ بين بحث وتحقيق بموضوعات: (السلفية، التصوف، الفكر السياسي الإسلامي، الغزو الثقافي، أسلمة العلوم)، وأهم دراساته هي دراساته عن السلفية التي نال بها جائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية عام ١٩٨٧م.

البيان: في حياة عامرة حافلة بالمواقف والشخصيات والأحداث العاصفة التي حدثت في مجتمعاتنا... ماذا علَّمتك الحياة؟

الشيخ مصطفى حلمي: بادئ ذي بَدْء أشكركم على هذه الثقة بشخصي الفقير إلى الله، وأسأله - سبحانه - أن يغفر لي ما لا تعلمون.

نعم، نزلتْ بمجتمعاتنا انقلابات كان لها أثرها البالغ في الحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وكانت ثمرة مرَّة لنجاح الاستعمار في تهميش الدين في حياتنا، بينما ينغرس الغرب حتى النخاع في مذاهبه الفلسفية وأهدافه السياسية. وعانيت - أنا وأبناء جيلي - من آثار الغزو الثقافي الذي أدَّى إلى تشويه تاريخنا الإسلامي، وتجزئة أمتنا بأفكار الوطنية والقومية، واستيراد النظم المستوردة لتحل محل النظم الإسلامية في الاجتماع والاقتصاد والسياسة والتعليم والتربية، فَعَقدتُ العزمَ على تصحيح المفاهيم لشباب الصحوة؛ إنقاذاً لهم من البلبلة في المفاهيم والحيرة التي عشناها وكابدناها.

البيان: هل يمكن أن توجز لنا أهم معالم هذا الغزو، وطبيعة الصراع بين المسلمين وبين أعدائهم؟

الشيخ مصطفى حلمي: لقد آن الأوان لأن يدرك المسلمون طبيعة هذا الصراع الطويل؛ إنه صراع بين الإيمان والطغيان: بين الإيمان الذي حمل أمانته نبينا ﷺ لتحرير الإنسان ورفض الخضوع لقيم الحياة المادية والمعنوية، وبين تحرير العباد من عبودية العباد إلى عبودية رب العباد؛ لتبقى العبودية لله وحدَه.

لقد ارتكب الاستعمار الغربي ضمن جرائمه الكثيرة ثلاث جرائم كان لها أثر بالغ في تحطيم الأمة وإبعادها عن مسارها:

الأولى: إلغاء الخلافة العثمانية عام ١٩٢٤م، وفرض العَلمانية الفاجرة على أغلب الدول العربية والإسلامية مستخدمة كافة ألوان البطش والقمع.

الثانية: غرس الدولة اليهودية اللقيطة في الأرض الإسلامية عام ١٩٤٨م، ودعمها عسكرياً واقتصادياً وسياسياً، وإجهاض أي حركة إسلامية للنهضة وَفْقَ النموذج الإسلامي.

الثالثة: تغيير مناهج التعليم في المدارس والجامعات، ومن ثَـمَّ تربية عناصر من الساسة والقادة وَفْقَ ثقافة المستعمر ونُظُمه، فتشتت الأمة بين نموذجين: الديمقراطي الرأسمالي، والاشتراكي.

البيان: ما تقييمكم لجدوى ما يسمى بالحوار الديني، وهل هو مجرد محاولة لتخدير المسلمين؟

الشيخ مصطفى حلمي: لم يعد خافياً أن الدين أصبح محركاً للسلوك السياسي الغربي من وراء ستار، وأسفرت الروح العدائية عن وجهها القبيح؛ على الرغم من محاولة إخفائها حتى لا توقظ الحمية الدينية لدى المسلمين. وإمعاناً في التغرير والتخدير وخداع المسلمين نادى الغرب بما سماه «الحوار الديني»؛ بينما هو في الواقع يخطط لإبادة الإسلام وتشويه صورته بكل وسيلة. فبعد تساقُط الأنظمة الشيوعية كسقوط أوراق الشجر في فصل الخريف، أخذت العقائد الدفينة في القلوب تظهر بقوة على الألسنة وفي الدوائر السياسية، والكتابات الصحفية الغربية. وحسبنا في ذلك شهادة (د. مراد هوفمان) الذي أمضى أربع سنوات مديراً إعلامياً لحلف الأطلنطي وهو يعلن أنه رأى بعينيه كيف يخططون لإبادة الإسلام وتشويه صورته. ويتبين من هذه الشهادة: أن دعاوى الحوار ما هي إلا نوع من تخدير الضحية ليسهل الإجهاز عليها، وهو (الطُّعم) الذي يستدرج المسلمين للخروج عن دينهم، وهو ما فطن إليه شيخ الأزهر السابق جاد الحق - رحمه الله - من أن هذه الحوارات بلا جدوى؛ فكيف يُطلَب من الضحية أن تقيم سلاماً مع الجاني؟ فالتعصب الكنسي يتخذ من الحوار ذريعة لكسب الوقت لعمليات التبشير. إن دعوات الحوار - باختصار - تُحرِّكها: إما أصابع صهيونية خفية؛ وإما مساعٍ تفتح العالم العربي والإسلامي لعمليات التبشير.

البيان: تعالت أصوات مراوغة تنادي بالتجديد وتحديث الإسلام ليتلاءم مع العصر؛ فما دوافعها يا ترى، وما تقييمكم لأهدافها ومراميها؟

د. مصطفى حلمي: إن السؤال الجدير بالطرح، هو: ما معنى التجديد، وما منطلقاته؟

إن التجديد بمعناه الصحيح يعني رد المسلمين إلى حقيقة الإسلام؛ فدور المجددين الحقيقي هو إفهام الناس وتوعيتهم كلما انتكسوا في جاهلية عدم الفهم الصحيح للإسلام؛ فإنما التجديد يكون في فهم الإسلام لا في الإسلام نفسه. أما اللاهثون وراء التجديد حسب مفاهيمهم؛ فهذه الدعوى تحمل خطراً عظيماً نخشى أن يتحول الإسلام على أثرها إلى كائن شبه «هلامي» تُفقِده حقائقه وأصوله وقيمه الثابتة التي أجمعت عليها الأمة منذ أن أشرقت

شمس الرسالة المحمدية. وكم كانت أختنا مريم جميلة – وهي أمريكية اهتدت إلى الإسلام – على حق حين رأت أن التجديد بهذه الكيفية هو نزع لحم الإسلام حتى يُعَرُّو عظمه، ثم يسلبون العظم أيضاً إن استطاعوا، إن حقيقة التجديد هي هدم كل مظاهر الإسلام التي تحمل ميزات ثابتة وثقافة مستقلة فريدة. وهي دعوى يتبناها التغريبيون، تؤدي في حقيقتها إلى تخريب الإسلام وإذابة الشخصية الإسلامية في بوتقة الحضارة الغربية. وإن العجب لا ينقضي ممن يحرصون على هوية أمتهم وقيمها الرفيعة المستمَدة من تراثها؛ كيف رضي هؤلاء بمسخ شخصيتها وتدميرها بتقليد حضارة العصر المدمرة؟ فكل محاولة لتفسير الإسلام بتقريبه إلى قيم العصر (أي الغرب) ستفضي إلي التنازل عن هويتنا وعن الإسلام أصلاً.

البيان: يرى بعضهم حتمية المنهج السلفي لقيام النهضة الإسلامية في حين يروِّج آخرون أنه عودة إلى الوراء وسَير في اتجاه معاكس للعصر؛ فما تعليقكم؟

د. مصطفى حلمي: هذه الفكرة تتكرر بشكل ممل على ألسنة بعض العَلمانيين والحداثيين والمستغربين المتشبعين بآراء المستشرقين المعادية لعقائد الإسلام، والكارهة لشريعته عامة ولمذهب السلف خاصة؛ لأنه الدعامة التي قامت عليها الحركات الإصلاحية، والمنطلق للريادة والحضارة الإسلامية، وبقدر ما انحلت رابطة الالتزام بين المسلمين والإسلام كان تقهقرهم وصيرورتهم فريسة لغيرهم. فالمذهب السلفي هو الذي حافظ على النقاء التام للعقيدة الإسلامية (عقيدة السلف الصالح)؛ لأن هذه الأمة لن يصلح آخرها إلا بما صلح به أَوَّلها. ويمكننا أن نقرر أن ثمة تلازماً ثابتاً بين الدين والنهضة؛ إذ إن أي إهمال لتعاليم الإسلام فسيرجع بالأمة إلى الوراء ومن ثَـمَّ تتكالب عليها الأمم كما نشاهده في عصرنا الحاضر مصداقاً لخبر الرسول ﷺ.

وبذلك نفهم السر الكامن وراء عداء المستشرقين وأذنابهم للإسلام وخاصة منهج السلف؛ لذا تعرَّض لأشد الهجمات ضراوة، وفي الوقت نفسه اهتم المستشرقون بالشخصيات والمذاهب المخالفة لعقائد السلف؛ فالمنهج السلفي ضرورة لقيام النهضة الإسلامية الحديثة وهذه الحقيقة أعلنها اللورد هادلي بقوله: «قد كنت أعجب دائماً مما كنت أقرؤه عن أبطال الإسلام وعن أولائك الذين خرجوا من العراء حفاة الأقدام فاستطاعوا أن يكوِّنوا أعظم قوات العالم وأعدل قضاة الأرض، وأشهر المشرعين على الإطلاق». ولقد لفتت ظاهرة إمكان إحياء نهضة المسلمين من جديد نظر العالِم الأمريكي جورج سارتون، فقال: «إن المسلمين يمكن أن يعودوا إلى عَظَمتهم الماضية وإلى زعامة العالم السياسية والعلمية كما كانوا من قبل، إذا عادوا إلى فهم حقيقة الحياة في الإسلام والعلوم التي حث الإسلام على الأخذ بها... وإن تلك الهزائم السياسية مُنِي بها المسلمون عندما حادوا عن منهج السلف». فكل باحث موضوعي يوقن بأن أحد أسباب انهيار حضارتنا – إن لم يكن أوَّلها – هو إهمال مذهب السلف. وفي دراسة مستفيضة لتاريخ السلام يلاحظ (محمد أسد) أن سبب الركود والتأخر في المجتمعات الإسلامية إنما هو بسبب هجر تطبيق تعاليم الإسلام. وهذه الملاحظة الدقيقة تجعلنا أكثر اقتناعاً بأن المنهج السلفي كفيل بتحقيق النهضة المرجوَّة بإذن الله؛ لأن الركيزة الأساسية في السلفية هي العناية بأمرين:

الأول: تصحيح العقيدة لإعادتها إلى صفاء التوحيد الخالص.

والثاني: إحياء تعاليم الإسلام في العبادات والمعاملات وتطبيق شريعته، وإزالة التراخي والركود اللذين أصابا المجتمعات فهوت إلى عصر الانحدار. أيشكُّ عاقل مُنصِف بعد هذا البيان أن هدف السلفية هو إحياء الأمة لتباشر رسالتها مضياً نحو المستقبل، لا إعادتها إلى الماضي؟

البيان: وسط هذا التلوث الإعلامي والحرب على قنوات الفضيلة الإسلامية؛ كيف السبيل إلى النجاة من طوفان الغزو الثقافي والإعلامي الضاغط؟

د. مصطفى حلمي: مع الأسف أن العالَم الإسلامي يتعرض اليوم لحملات تشويه وتشكيك وطعن بدينه بواسطة البث الإعلامي للأقمار الصناعية، والمحطات الفضائية الدولية، ولا يدفع هذا التشويه ويبطل مفعولَه إلا وسائل مشابهة؛ فقد أصبح ذلك ضرورة من ضرورات الحياة المعاصرة للأمة الإسلامية. فمسؤولية الحكومات ليست في تكبيل الإعلام الهادف ومحاربته بل في دعم أجهزة الإعلام للحفاظ على مقومات الشخصية الإسلامية إزاء سموم الغزو العدائي.

كما يجب علينا أن لا ننتظر نحن (أفراداً ومجتمعات) ولا أن نكتفي بالفرجة والسلبية متذرعين بموقف الحكومات، ومن ثَمَّ نعلق المسؤولية على غيرنا. هذا الموقف السلبي يتنافى مع أوامر الشرع الذي يحتم علينا التحرك إزاء هذا التلوث الإعلامي الكريه، لقد

أصبحت اليد الطولى في عصرنا مع الأسف للأعلى صوتاً، لا للأقوى حجة؛ بفعل أجهزة الإعلام الجبارة التي لم يعرف العالم لها مثيلاً من قبل، وأصبح في قدرة من يملكها فرض ثقافته على الآخرين في ظل ما يسمى بـ (العولمة). إن الغزو الثقافي هو حرب فكرية، ولا يماري في ذلك إلا مماحك؛ فماذا أعددنا لها؟ وماذا فعلنا لنجعل المسلم المعاصر يصمد في هذه الحرب؟

إن أعظم سلاح للصمود هو الاستمساك بكتاب الله - عز وجل - وسُنة نبيِّه ﷺ. ومن أسلحة الصمود

أيضاً: ثبات المسلم على عقائده ومبادئه. وكذلك على المسلم أن لا يهتز أمام حملات التشكيك في أنظمة الإسلام وتشريعاته. وكذلك واجب على المسلم أن يتسلح بالجهاد العلمي المتواصل، لتسلَم له ثقافته ويحتفظ بأصالة شخصيته لكي لا تذوب بفعل أجهزة الإعلام الجبارة القائمة على فكرة العولمة الهادفة إلى صهر الثقافات كلها في أتون الثقافة الغربية.

البيان: برزت في عصرنا مؤسسات تربوية زاحمت الأسرة في التربية؛ فهل من سبيل لأن تستعيد الأسرة دَوْرَها المنشود في التأثير والتربية الجادة؟

الشيخ مصطفى حلمي: في ظل غياب التربية الدينية في المدارس، وتهميش المادة الدينية وعدم إعطائها حقها؛ فإنه على الأسرة المسلمة الحذر واليقظة؛ لأنهم مسؤولون أمام الله - تعالى - عن أولادهم، ولأن أغلب المؤسسات قد تنازلت عن دورها التربوي؛ فمَنْ غيرُنا يربي الأولاد على العقيدة الصحيحة ومحبة النبي ﷺ، ومعرفة العبادات وأدائها على هدى النبي ﷺ؟

فالأسرة مسؤولة مسؤولية كاملة عن تربية الأولاد، فَلْيتقِ الآباءُ اللهَ في أبنائهم فلم يعد هناك - مع الأسف - مؤسسات تربي أو تنشئ التنشئة الإسلامية؟

البيان: في عصر العولمة والانفتاح الثقافي والمعلوماتي؛ هل من سبيل للحيلولة دون وقوع أولادنا فريسة لطوفان الغزو الثقافي الغربي المدمر؟

الشيخ مصطفى حلمي: لا بد من مراقبة الأولاد، فلا يُترَكون هكذا أمام «الإنترنت» بلا مراقبة، وعلينا أن نُحْسن توجيههم إلى شَغْل أوقاتهم بما ينفع؛ لأن هذه الأجهزة وإن كانت تحمل الفوائد إلا أنها تحمل في طياتها سمّاً قاتلاً؛ فكم أدَّت إلى خراب بيوت كانت بالأمس عامرة، وتحطيم شباب كان بالأمس ملتزماً، فالحذر الحذر حتى لا ننخدع بهذه التكنولوجيا. نعم، قد تعطيك معلومات لكن العلم ليس مجرد معلومات باردة. علينا انتقاء المعلومات وغربلة ما يبثه الإعلام، ومعرفة الصالح من الطالح، وتمييز الضار من النافع؛ فلا بد من الانضباط، وأي قيمة للعلم دون العمل؟ والشأن كله أن يُرزقَ العبد العلم النافع والعمل الصالح.

البيان: ما تقييمكم للدور الذي تقوم به القنوات الفضائية الإسلامية في الدعوة والتربية؟

الشيخ مصطفى حلمي: يمكن الاستفادة منها بشروط، منها: أن توضع خطة متكاملة متوازنة؛ بحيث تتفق هذه القنوات على الموضوعات التي يراد علاجها، ثم تُقسَم الأدوار؛ فهذه فضائية متخصصة في الدعوة، وأخرى معنيَّة بالتاريخ الإسلامي، وثالثة تتصدى لكشف الشبهات والرد على أهل البدع... وهكذا.

إننا بحاجة إلى المنهجية لا الفوضوية التي قلَّما تثمر؛ فلا بد أن يجد المشاهد جديداً كل يوم، ويعثر على الفائدة المركزة بدلاً من الارتجالية والعشوائية التي نراها. ونسأل الله لهم جميعاً التوفيق والسداد.

البيان: ثمة مقولة يدندن حولها بعضهم، بأن دَوْر المسجد قد انتهى أو ضعف في ظل ثورة الإعلام والفضائيات؛ فما رأيكم؟

د. مصطفى حلمي: سيبقى المسجد بلا شك هو قلعتنا الأُولَى والحصن الأول لشباب الأمة، وشتان شتان بين من يجلس متكئاً على أريكته ليستمع إلى العلماء عبر الفضائيات، وبين إنسان يجلس في المسجد يصغي بقلبه وجوارحه للشيخ.

إن أثر التربية في المساجد جليل وخطير؛ فعلى إخواننا الدعاة وطلاب العلم الاهتمام بالمساجد بالدعوة الهادفة، والتربية الصحيحة، وإخراج جيل قرآني متخلق بأخلاق القرآن، معتصم بهويته الإسلامية، يفخر بها ويزهو ويعتز.

البيان: صارت هوية مصر مسار جدل

بين الإسلاميين وخصومهم؛ فكيف ترى هذا الملف؟ وهل من مرتكزات لهذه القضية؟

د. مصطفى حلمي: هذه القضية ليست وليدة اليوم، إنما هي قضية لها ارتباط وثيق جداً بالاستعمار الغربي؛ فهو الذي دأب على تمكين التغريبيين من الوصول إلى مراكز القيادة والتأثير، وعمل على إقصاء أصحاب المشروع الإسلامي وحجب أصحابه عن الناس، فحظي المشروع التغريبي وسدنتُه بالسلطة والنفوذ والتلميع والتشجيع. أما المشروع الإسلامي - إن صح التعبير - فلقد أدَّى دوراً لا ينكَر على الرغم من محاربتهم له بلا هوادة؛ فكان بحق بمثابة الشرايين التي تغذِّي الصحوة الإسلامية، يساعدها على الفرقان بين الحق والباطل. والعجيب أن أكثر المفكرين العَلمانيين الذين حملوا لواء التغريب ودافعوا عن المشروع التغريبي، قد رجع أكثرهم إلى الحق؛ فرجع طه حسين عن بعض آرائه، وكذلك زكي نجيب محمود، ومصطفى محمود، ومحمد عمارة. نعم هنالك أفراخ للعلمانية لا زالت تنفث سمومها في عصرنا وتحتاج إلى وعي وكشف لهؤلاء ليحذرَهم الناس، وعلى الرغم من انعزال هؤلاء عن الواقع إلا أنهم يحسنون - مع الأسف - تفريخ تلاميذَ في الجامعات والإعلام والصحافة؛ حيث ينثرون الشبهات، ويغرسون الاتجاهات المنحرفة أينما حلُّوا؛ فلا بد إذن من الوعي واليقظة مع عدم تشتيت الجهود في الرد على هؤلاء. وعلينا أن ننشغل بالتربية والتأصيل وبناء الجيل بناءً إيمانياً وعقدياً وتربوياً متوازناً؛ فنكتفي بالإشارات البسيطة والرد على شبهاتهم بحسب قيمتها وأهميتها؛ لأن من أساليب المخطط العدائي الماكر هو تفريق الجهد في الفعل وردِّ الفعل، وتشتيت الطاقة فَلْنحذر من هذا الاستدراج وعدم الوقوع في شَرَك هذا المخطط الغربي الخبيث.

البيان: الهجمة الغربية الشرسة المنظمة على ثوابتنا باتت أمراً مستفزاً لا يطاق؛ فما تفسيركم لهذا العداء للإسلام والمسلمين؟

الشيخ مصطفى حلمي: إن هذه الهجمة المشاهَدة عسكرياً وفكرياً واقتصادياً وإعلامياً ليست عقداً منفرطاً؛ إنها خطة إستراتجية مُحكَمة تظهر في بلد ثم تنتقل إلى آخر، ويتولى كِبْرها دولة هنا ودويلة هناك في ما يشبه توزيع الأدوار، وهي وثيقة الصلة بالحرب الصليبية، بل إنها - حقاً - حرب صليبية بشهادة مفكرين غربيين أمناء لا بشهادة المسلمين، وهذه الحرب لها شقان:

الأول: الغزو العسكري كما نرى في العراق وأفغانستان وغيرهما من البلاد والحواضر الإسلامية.

الثاني: الحرب النفسية لخلخلة العقيدة، وزلزلة ثوابت أجيال جهلت عقيدتها الصحيحة. وهدفهم فصل الأمة وإبعادها عن دينها؛ لأنهم علموا من خلال دراسات مستفيضة أن الأمة متى استمسكت بدينها استحالت عليهم، وكانت عَصيَّة أبية؛ فلا سبيل إلى غزوها إلا بإبعادها عن دينها، وعزلها عن الفهم الصحيح للإسلام. قال - تعالى -: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وربما يخفى على كثيرين أن الغزو الاستعماري بنوعيه (العسكري والثقافي) هو سر تردِّي أحوالنا. إن السبب الرئيس في هذا العداء السافر للإسلام: أنه يشكل بعقيدته وعباداته وشريعته وقيمه نقطة المقاومة الرئيسية إذا تسلَّحت به الأمة دفاعاً عن نفسها ودينها؛ وهكذا سيبقي الإسلام في أعماق الأمة يؤدي دَوْره المزدوج؛ أي: المحافظة على ذاتية الأمة، كما أنه هو الدرع الذي به تدافع أمتنا عن كيانها في الوقت نفسه. ورُبَّ ضارة نافعة؛ فدلالة حملات التشويه والإساءة للإسلام اعتراف بأن العالم الإسلامي ليس جثة هامدة أو كمّاً مهمَلاً.

البيان: إزاء ظاهرة فقدان الهوية الإسلامية والذوبان في ثقافات وعادات وافدة؛ ما أسباب ذلك، وكيف العلاج؟

د. مصطفى حلمي: قد لا يعلم كثيرون أن الاستعمار البريطاني لمصر، والفرنسي للجزائر وتونس والمغرب لم يكن مجرد احتلال عسكري عفوي، إنما كان همُّه استئصال هوية الأمة، واجتثاث عقيدتها؛ فقام الفرنسيون بتحريم اللغة العربية ومحاربتها وفرض اللغة الفرنسية وهدم المساجد وتعذيب المجاهدين. ولا يخفى ما قام به «دنلوب» المبشر الأسكتلندي من تخريب وتدمير لمناهج التعليم؛ فقام بتدريس جميع المواد باللغة الإنجليزية، وعمل على اضطهاد أساتذة اللغة العربية وعلماء الأزهر وشنَّ حرباً لا هوادة فيها على الشعور الديني والإحساس الوطني للشباب المسلم. فسادت المجتمعات الإسلامية الغربةُ الفكرية والثقافية «فكان التصدع الثقافي وأثر الغزو الثقافي ليس على مظاهر الحياة الإسلامية فحسب، بل على عقول المسلمين ومناهجهم التربوية.

وباختصار فقد استغرقت عملية التغريب سنوات طويلة، فعلينا أن نبذل

جهداً جهيداً، ونصبر في البناء دون عجلة، ولا بد من طول النَّفَس وعدم الهزيمة؛ فعلى الرغم من المحاولات المسعورة، والمؤامرات التي حاكها الاستعمار لخلع الأمة عن دينها؛ فإن الأمة ما زالت معتزة متمسكة بدينها. لقد ظن أتاتورك اليهودي أنه أبعد تركيا عن الإسلام إلى الأبد، وخُيِّل للذين تابعوا خططه الشيطانية أنه لن تقوم للإسلام قائمة؛ ولكن هذا الطاغية اليهودي خاب وخسر ومات في أسوأ حال، ولو عاش ورأى عودة الإسلام إلى تركيا لمات حسرة وكمداً.

وهكذا لن تستطيع العَلمانية أن تزيح الإسلام؛ لأن مبادئ الإسلام الراسخة أقوى واتقى وأبقى أثراً في شغاف القلوب. وسبيلنا للحفاظ على الهوية هو التصدي للعولمة ويكون بأمور، منها:

أولاً: إحداث وعي إسلامي عامٍّ بواسطة تعاون أجهزة الإعلام بكافة الدول الإسلامية؛ لأن مسؤولية المحافظة على الهوية مشتركة بين الأفراد والمجتمعات والدول.

ثانياً: التسلح بعقيدة التوحيد التي تُظهِر أصالة أمة الإسلام وتحمي هويتها الخاصة التي لا تشاركها فيها أمة من الأمم.

ثالثاً: التأسي برسول الله ﷺ؛ لأنه الأسوة الحسنة في كل العصور وهو وحدَه ﷺ الذي ضرب المثل الأعلى للسلوك الإنساني، وحين نتخذه أسوة لنا فإن ذلك يعصم المسلمين (شباباً وشيباً) من الافتتان بكل ناعق.

رابعاً: إعلاء شأن اللغة العربية، والاعتزاز بها؛ لأنها إحدى مفردات الهوية الإسلامية فضلاً عن أنها لغة القرآن، ولقد وحَّدتْ الأمةَ عبر تاريخها المشرِّف. وما إهمال اللغة العربية في السنوات الأخيرة إلا نذير خطر على أمتنا، وتسهيل دَوْر العولمة في ابتلاع أجيال تتخطفها اللغات الأجنبية لا سيما الإنجليزية.

خامساً: للإعلام والقنوات الفضائية التي ألغت الحدود دور حاسم؛ فهي بحق سلاح فعَّال إذا استطعنا استنفار أجهزة الإعلام بالدول العربية والإسلامية كافة وتوحيد الخطة العامة نحو هدف واحد، ضد تيار العولمة.

البيان: هل ترى أن الخطاب السلفي المعاصر قد نجح في عصر التعايش وتجديد الخطاب الديني في النفاذ إلى القلوب، أم أنه بحاجة إلى تجديد؟

د. مصطفى حلمي: لا شك أن المنهج السلفي قد نجح وحقق نجاحاً باهراً إلى الآن؛ فها نحن نرى إقبال الشباب وحرصهم على حلقات ودروس الدعاة والمشايخ السلفيين، والسر في ذلك أنهم سلكوا الطريق الصحيح الذي يثمر حتماً ثمراته المرجوَّة. وَلْيحذر إخواننا من تفرُّق الكلمة، والاختلاف المذموم الذي يؤدي إلى الفشل وذهاب الريح؛ فليست المنابر للشتائم وذكر الخلافات؛ إذ المستفيد الأول من هذه الأمور هم خصوم الدعوة، والخسارة الكبرى تعود على الصحوة وأبنائها الذين يتوراثون هذا الخلاف فيشقون بناره المستعرة. فإذا صح الاتفاق على الأصول كان ما سواها سهلاً، ونسأل الله ان يحفظ الأمة ويصونها من هذه الفتنة، (فتنة التفرق والتخريب).

إننا في أمسِّ الحاجة إلى البناء الصحيح للفرد المسلم والمجتمعات الإسلامية؛ إذ لا تنقصنا السواعد والعقول كما يقول مالك بن بني، رحمه الله؛ ولكننا في حاجة إلى حشدها وتجميعها لتجديد مجرى التاريخ نحو الهدف المنشود؛ لذا أنصح إخواننا الدعاة وطلاب العلم بالحذر من أن يجرفنا تيار التباغض والتدابر المرسوم لنا بمكر ودهاء؛ حتى لا نحقق - دون قصد منا - رغبات أعداء الإسلام الساعين لبث الفرقة والخصومة بين المسلمين. فلا سبيل لنهوض المسلمين إلا بوحدة جماعتهم، ووحدة الجماعة ليس لها من سبيل إلا الإسلام الصحيح، والإسلام الصحيح مصدره القرآن والسُّنة، وهذه خلاصة الاتجاه السلفي؛ أنه عودة بالإسلام إلى معينة الصافي من كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ.

البيان: للمجددين في الإسلام مكانة عظيمة؛ فماذا وراء دعاوى تجديد الإسلام التي تعاظمت في الآونة الأخيرة؟

الشيخ مصطفى حلمي: نريد أن نصحح المفهوم الذي راج أخيراً ونعلن: «أن التجديد يكون في المسلمين لا في الإسلام»، وهذه حقيقة يجهلها هؤلاء، كما نؤكد أن التجديد في الإسلام يختلف جداً عن التجديد عند النصارى؛ فالتجديد عندهم إنما هو تجديد في العقيدة نفسها،

كما غير «بولس» العقيدة النصرانية، وهذا أمر معروف في تاريخ النصرانية. وأكبر طعنة أصابت النصرانية باسم هذا التجديد المزعوم هي تبرئة اليهود من دم عيسى - عليه السلام - في حين توجد نصوص في كتبهم المحرَّفة على لسان عيسى - عليه السلام - تقول: إن دمي في أعناق هؤلاء؛ وأعجبني جداً كلمة لمراد هوفمان تقول: «الإسلام كالبلورة اللامعة، يأتي المسلمون ببدعهم فيهيلون التراب فوق هذه البلورة المصقولة، فيأتي المجدد فينفض عنها التراب ويعيد إليها نقاءها ورونقها؛ هذا هو التجديد عندنا، وشتان بين مفهوم التجديد والمجدد عندنا وعند النصارى.

البيان: كيف السبيل برأيكم إلى استعادة الأمة الإسلامية هويتها؟ وهل ثمة تعارض بين حفاظ الأمة على هويتها وبين مسايرتها للنهضة العصرية كما يزعم التنويريون؟

الشيخ مصطفى حلمي: إن الحفاظ على الهوية لا يتعارض ألبته مع الأخذ بأسباب التقدم التقني؛ فالحضارة كالطائر لها جناحان: جناح عقدي ديني وروحي، وجناح مادي علمي تقني، ولقد جمعت الحضارة الإسلامية بينهما في انسجام عجيب لم يشهد له التاريخ مثيلاً؛ فحضارة الإسلام هي التي علَّمت الدنيا: أنه بالدين يرتقي الإنسان إلى الثريا. والغربُ مَدِين لحضارة الإسلام الزاهرة؛ لأن الغرب ما عرف التقدم والنهضة إلا حين أخذ منَّا المنهج التجريبي بعد أن عَلِموا كم كان المنهج الأرسطي عقيماً، وظل هذا المنهج مخيماً على الأوروبيين طيلة ألف سنة، وما بلغوا ما هم فيه الآن إلا بعد أن أخذوا منهج أصول الفقه من المسلمين، الذي كان يُعلِي من شأن التجربة. فلا نطلب من الناس أن يعيشوا بوسائل السلف نفسها؛ وإنما نريد أن نرتقي إلى مستوى السلف الأخلاقي والعملي والدعوي المدهش.

البيان: الصراع الذي عاشه جيلكم بين العادات والتقاليد الراكدة، وبين تقاليد ونظم الغرب الوافدة كانت ثمرته مرَّة؛ فهلا تنقل لجيلنا هذه التجربة بحلوها ومرِّها؟

الشيخ مصطفى حلمي: لقد كابدنا كثيراً تحت وطأة التعليم التغريبي، وكم تعبنا من الازدواجية ومحاولات سحق هويتنا وصُهرِنا في بوتقة التغريب الآثمة؛ ولكن قيض الله لنا جيلاً من الأساتذة الأوفياء لتاريخهم المعتزين بإسلامهم فتحوا عيوننا ونبَّهونا إلى هذه المصيدة، ثم بصَّرونا بالمنهج السلفي وبكتابات شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - فأبصرنا الطريق، وزالت الغشاوة، وعلمنا يقيناً أن منهج السلف هو الأعلم والأحكم والأسلم وما أحوج هذا الجيل الحائر إلى هذا الطراز من الأساتذة وإلى المعاهد والمناهج الصحيحة؛ لتضع لهم خريطة الطريق نحو البصيرة والسلامة والقناعة بمنهج أهل السُّنة والجماعة.

البيان: إن الصورة النمطية المشوهة التي روجتها الآلة الإعلامية الغربية الجبارة قد ازدادت عنفاً كما ذكرت عقب أحداث ٢٠٠١/٩/١١م؛ فكيف يمكن مواجهتها؟ وما مسؤوليتنا إزاء هذه الهجمة؟ وهل من دور للإعلام العربي والإسلامي لصدِّ افتراءات وأكاذيب الإعلام الغربي؟

د. مصطفى حلمي: بداية لا بد لنا معاشرَ العلماء والدعاة وشباب الصحوة أن ننتبه إلى نقطة غاية في الأهمية. وهي أن القصة الرسمية لأحداث الحادي عشر من سبتمبر ما هي إلا أكذوبة، وأرجو أن ترجعوا إلى بحثي المتواضع (خواطر حول كتاب الإسلام بين الشرق والغرب)؛ ففيه ناقشت هذه المسألة بالمصادر، وقد أثبت أن الرواية الرسمية رواية كاذبة واستندتُ إلى علماء وباحثين غربيين وأمريكيين، فأرجو الرجوع إليها؛ حيث الرد المقنع بالأدلة على أن الرواية الرسمية كاذبة، فهذه المعلومة لا بد من إشاعتها بين المسلمين حتى لا تكون ذريعة لاتهامنا بالإرهاب كما أنصح بكتاب الفيلسوف الفرنسي الذي أسلم (روجيه جارودي) بعنوان (إرهاب الغرب)؛ فلا بد أن نكون مدركين لهذه الحقيقة، وأن هذه التهمة باطلة وأن الرواية نفسَها أكذوبة ويرجَّح أنها من صنع المخابرات الأمريكية التي تسيطر الآن على فكر الغرب؛ حتى

يشـــكلوا جبهة ويوحـــدوا صفوفهم ضد الإســـلام؛ بينما يُطلَب منَّا الآن أن نطرح الدين جانباً، مـــع أن الغرب ما تقدم إلا لَـمَّا تمسك بالدين.

وأنصح بالرجوع إلـــى كتابنا (منهج الســـلف لا الحداثة طريق النهضة)؛ وهو عبارة عن عـــدة مقالات وآخر مقالة فيه أعطيتها هذا العنـــوان (خدعونا فقالوا: إن الغـــرب تخلى عن دينه)، وها هو مراد هوفمان يعلن أن مجابهة الإسلام لم تعد مجرد شـــعار ولكن هناك إســـتراتيجية مُحْكَمة من أجل حرب الإسلام.

البيان: هـذا العـداء السـافر الـذي أشرتم إليه واضح جداً، ويظهر حيناً بعد حين. ما تفسيركم لهذا العداء؟ وهل من عودة إلى نهضة إسلامية مرجعيتها الكتاب والسُّنة؟

د. مصطفى حلمي: لا بد أن نعلم أن العـــداء بيننا لن ينتهـــي ما دام هناك حياة علـــى الأرض. والقـــرآن يقرر هذا فينبغـــي أن نتأمَّل هذه الحقيقـــة ونُعِدَّ أنفســـنا لذلك. أما فكرة الحـــوار التي يخدعوننا بهـــا أتدرون مـــا معنى كلمة الحـــوار؟ معنى الحوار أن يكون بين اثنين متكافئـــين؛ فكيف وهـــم مغتصبون غزة متسلطون علينا؛ فمن نحاور إذن؟

البيان: ثمـة طـرح يـرى أن حقيقة الصـراع بين المسلمين وأعدائهم إنما هو صراع بين الإيمان والطغيان وبين الحرية والعبـودية. ما مدى صحة هـذا الطرح؟ وما أدلته من وجهة نظركم؟

د. مصطفى حلمي: الصراع له عدة أســـباب: فقد يكون عقائدياً، وقد يكون صراع مصالح وســـيطرة وفَـــرْض نفوذ، ولكن في ضوء القرآن الكريم نستطيع أن نفهم أن الصـــراع بيننا وبينهم هو صراع عقائدي ترتب عليه صراع المصالح ونهب الثروات والسيطرة على الشعوب؛ فهو في جوهره صراع قائم على العقيدة؛ ولذلك جاءت سنة الدفع في القرآن الكريم التي اعتبرها (ماركس) صراعاً بين الطبقات، وإن سُـــنة المدافعة بين الحـــق والباطل ستظل إلى قيام الساعة.

البيان: في الحقيقة لم نرتوِ من هذا اللقاء الثر، ولكن في الختام نتطلع إلى بعض الدرر نختم بها هذا الحديث الماتع؛ توجهون بها أبناءكم الدعاة وطلبة العلم الباحثين عن التأصيل العلمي، والمشتغلين بالقضية الإسلامية؟

د. مصطفى حلمي:

أولاً: أنا دائماً أذكـــر لطلابي عبارة منسوبة لأحد علمائنا لا يحضرني اسمه الآن. يقول فيهـــا: «إن العلم يطلب منك عمرك كله وأنت من بعضه في شك».

فعلينا أن نحتســـب عنـــد الله - عز وجل - طلـــب العلم حتى نؤجر؛ فلا يُطلَب العلم لشـــهرة، ولا لشهوة، ولا لمكسب، فإن وُجِدت الشـــهرة عرضـــاً فـــلا بأس ولكـــن لا تكن غايته لحديث النبي ﷺ المخيف الذي رواه أبو هريـــرة - رضي الله عنه - وفيه: «ورجل تعلم العلم وعلَّمه وقرأ القرآن فأتى به فعرَّفه نعمه فعرفهـــا. قال: فما عملت فيها؟ قـــال: تعلَّمت العلـــم وعلَّمته وقرأت فيـــك القرآن. قال: كذبـــت ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالـــم. وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ. فقد قيل، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار»[1].

ثانياً: يواصل الليلَ بالنهار، وأنا أذكر أننـــي لما كنت اكتب حياة الجويني قال ما معناه: أنا أقضي وقتي كله في طلب العلم وأظل أقرأ وأكتب فلا أنام إلا إذا غشيني النوم.

فهـــذه حياة علماء الأمة وإلا لما ألَّفوا هذه الكتب الكبيرة. فليت شبابنا يقتدون بعلمائنا الأفـــذاذ هؤلاء؛ فيواصلون الليل بالنهار مع الصبر والاحتساب؛ فإن العلم يحتاج إلى الصبر الجميل!

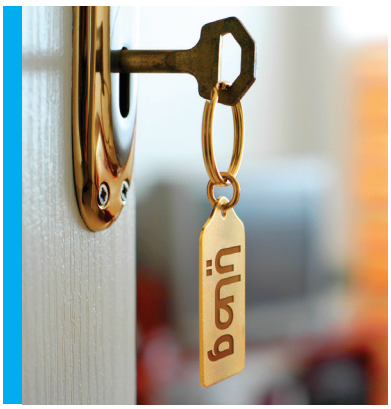

البيان: مـن الـواضـح ضعف مستوى كثير من طلاب علم هذا الزمان، وهناك نوع من ضحالة علمية. فهل من وصايا أو معالم منهجية؟

الشيخ مصطفى حلمي:

أولاً: على طالب العلم أن يقرأ كثيراً ويكتب قليلاً.

ثانيـــاً: عليه أن يعيـــد النظر قبل أن يدوِّن ويكتب؛ فيراجع نفسه مرة بعد مرة حتى يتثبت.

ثالثاً: أن يُكثِر من الأدلة.

رابعاً: اســـتخدام البلاغة؛ لأن اللغة هي ثوب الفكر وكلمـــا كان بليغاً وصلت فكرته إلى القلب.

وأخـيراً عليه بالإخلاص؛ لأنه جماع الأمر كله.

البيان: في الختام نشكركم - فضيلة الشيخ - على هذا اللقاء الماتع سائلين الله أن يبارك لكم فـــي علمكم وجهدكم، وأن يجعله مثاقيل بِرٍّ في موازين حسناتكم.

(١) رواه مسلم.

رِيادُ الحـــقِّ

لا تـقْـضِ همّـاً فَـالـسُّـنُـونَ ثِـوَاني ... وَالْخُلْدُ فِي النَّعْمَاءِ مَحْضُ أَمَـاني
إلاَّ الَّـذي يَـوْمَ القِيَامَةِ كَائِنٌ ... لِـلْـمُـؤْمِـنِينَ بِـجَـنَّـةِ الـرِّضْـوَانِ
وَاشْـهَـدْ عَلَيْنَا يَـا زَمَـانُ فَإِنَّـنَا ... صِرْنَـا عَبِيدَ الْقَهْرِ وَالطُّغْيَانِ
يَلْهُو بِنَا السَّجَّانُ يَغْسِلُ حُوبَهُ ... بِـدِمَـائِـنَـا وَيَجِـدُّ فِي الْـبُـهْـتَـانِ
يَرْضَى لَنَا الشِّرْكَ الْـمَقِيتَ وَيَنْحَنِي ... لأَئِـمَّـةِ الـطَّـاغُـوتِ وَالـصُّـلْـبَـانِ
وَإِذَا رَفَعْنَا الصَّوْتَ بِالشَّكْوَى غَدَا ... جَـبَـلاً عَـلَـيْـنَـا ثَـائِـرَ الـبُـرْكَـانِ
لا يَسْتَقِيمُ لَنَا وَإِنْ صِرْنَـا لَهُ ... جُنْداً نَـذُودُ عَنِ الْحِمَى الْفَيْنَانِ
يُـغْـرِيـهِ مِـنَّـا أَنَّ مِـنْ أَبْـنَـائِـنَـا ... رَهْـطـاً غَـدَوْا رَمْـزاً لِكُلِّ هَـوَانِ
خَلْفَ «الْكَوَالِيسِ» اللَّعِينَةِ أَقْسَمُوا ... أَنْ يَقْسِمُوا الأَوْطَـانَ بِالْمِيزَانِ:
هَذِي لَكُمْ مِلْكُ الْيَمِينِ، وَحَظُّنَا ... مَـا شِئْتُمُوا مِـنْ سَـائِـرِ الْـبُـلْـدَانِ
إِنْ تَمْنَحُونَا الْعَطْفَ نَحْمَدْ رِفْدَكُمْ ... وَنَصُـنْ مَقَاصِـدَكُمْ عَـنِ الْعُـدْوَانِ

* * *

اِشْـهَـدْ عَلَيْنَا يَـا زَمَـانُ فَإِنَّنَا ... هُـنَّـا عَـلَى الأَعْـمَـاقِ وَالـشُّـطْـآنِ
لَمْ يَبْـقَ فِي دُنْيَا الْوُجُودِ مُدَافِعاً ... عَـنَّـا سِـوَى مَـا كَـانَ مِـنْ فَـنَّـانِ
أَمْـلَى بِـرِيـشَـتِـهِ النَّبِيهَةِ قِصَّةً ... أَحْـدَاثُـهَـا مَجْـنُـونَـةُ الْـعُـنْـوَانِ
يَقْتَادُنَا الجِـلْـوازُ نَحْوَ حُتُوفِنَا ... ظُـلْـماً بِـلا ذَنْـبٍ وَلا اسْـتِـئْـذَانِ
أَعْـطَـاهُ سَـيِّـدُهُ الشِّفَارَ فَحَدَّهَا ... حَـتَّـى أَسَـالَ لُـعَـابَهَـا لِـطِـعَـانِ
وَمَـضَى بِهَـا نَحْوَ الـرِّقَـابِ يَخُزُّهَا ... حَـزَّ الْمَغِيظِ الْـحَـانِـقِ الْـهَـذْيَـانِ
لا شَيْءَ يَـرْدَعُـهُ إِذَا بَـاعَ الْحِمَى ... لا شَيْءَ يَمْنَعُهُ عَـنِ الإِثْـخَـانِ

شعر: مروان كُجُك(*) (رحمه الله)

فَالشَّعْبُ قُيِّدَ وَالْعِمَادُ تَقَوَّضَتْ ... والسَّاحُ أَضْحَتْ مَرْتَعَ الذِّئبَانِ
كُلُّ الَّذِي يَرْجُوهُ أَنْ يَرْضَى الْعِدَى ... عَنْهُ وَيَبْقَى سَالِمَ الأَرْدَانِ
يَمْشِي عَلَى دَمِنَا الْمُرَاقِ، يَزِفُّهُ ... جَيْشٌ مِنَ الشُّذَّاذِ والْخِصيَانِ
وَيَحُوطُهُ بَغْيُ الطَّوَاغِيتِ الأُلَى ... قَصَفُوا زُهُورَ الْخَيْرِ وَالإِحْسَانِ
لَمْ يَبْقَ فِي تِلْكَ الرُّبُوعِ ضَرَاغِمٌ ... أَوْ جَحْفَلٌ يَحْمِي حِمَى الأَوْطَانِ
وَالرَّافِضُونَ الذُّلَّ بَاتُوا طُعْمَةً ... لِلْقَهْرِ وَالتَّعْذِيبِ والسَّجَّانِ
يُمْسُونَ لا يَدْرُونَ بِدْءَ مَسَائهم ... فَمَسَاؤُهُمْ وَصَبَاحُهُمْ سِيَّانِ

❋ ❋ ❋

زَعَمَ الطُّغَاةُ الْحَقَّ فِي مِنْهَاجِهِمْ ... وَتَشَدَّقُوا بِالْوَهْمِ كَالصِّبْيَانِ
بِئْسَ الرِّجَالُ غَدَاةَ يُنْشَرُ سِفْرُهُمْ ... بَيْنَ الْخَلائِقِ وَاضِحاً لِعِيَانِ
فَاشْهَدْ عَلَيْنَا يَا زَمَانُ فَإِنَّنَا ... بِعْنَا النُّفُوسَ لِرَبِّهَا الدَّيَّانِ
وَدِمَاؤُنَا طَوْعاً لَهُ مَبْذُولَةٌ ... حَتَّى يَفِيضَ الْعَدْلُ فِي الأَكْوَانِ
وَتَقُومَ للدِّينِ الْحَنِيفِ عِمَادُهُ ... فِي الأَرْضِ بَيْنَ أَبَاعِدٍ وَدَوَانِي
وَيُنِيرَ هَذَا الْكَوْنَ قُرْآنُ الْهُدَى ... وَيَسُودَهُ عَدْلٌ وَرُوحُ حَنَانِ
وَلَيَبْلُغَنَّ الدِّينُ ما بَلَغَ النَّهَا ... رُ بِنُورِهِ، واللَّيْلُ مِنْ دَوَرَانِ
فَاصْبِرْ لِهَمِّكَ وَانْتَظِرْ فَلَقَ الصَّبَا ... حِ يَجِيءُ بِالْبُشْرَى، وَصَوْتِ أَذَانِ:
اللَّهُ أَكْبَرُ يَا رِيَاحَ الْحَقِّ هُبِّي ... وَانْشُرِي الْيُسْرى بكل مَكَانِ
قُولِي لِكُلِّ مُعَذَّبٍ مُسْتَضْعَفٍ: ... إِنَّ الظَّلامَ دَقَائِقٌ وَثَوَانِي

❋ ❋ ❋

(*) سُلِّمت القصيدة للمجلة قبل أن توافي المنيَّة الشاعرَ، رحمه الله.

الفهمَ الفهم!

د. يوسف بن صالح الصغير(*)

لا شك أن من أعظم العِبَر وأشدِّها وَقْعاً على النفس التغيُّر المفاجئ للأحوال؛ فالموت أو المرض بعد الصحة، والفقر بعد الغنى، والذل بعد العز، والضعف بعد القوة، وعكسها كلُّها عِبَر، وما يَصْدق على الفرد يصح تطبيقه على الجماعة أو الحزب أو الدولة وعلى الأمة كذلك.

إن من تفكَّر في تعاقب الليل والنهار المستمر فَهِم أن تتابع الأضداد سُنة كونية ثابتة؛ فالتوحيد يعقبه الشرك، والتمكين يعقبه الذل والهوان، والغنى يعقبه الفقر عند التفريط في أسباب هذه النعم؛ فلا يركَنَنَّ أحد إلى ما في يده؛ لأنها كلها على سبيل العارية والاختبار. وبالمقابل؛ فمن كان ابتلي بشيء من المصائب المؤلمة: من بدعة تلبَّسها، أو ذنب أدمن عليه، أو فقر، أو جهل، أو ذُلٍّ، فلا ييئس ولا يركن إلى واقعه الذي يمكن تغييره إذا اتخذ الأسباب والسبل التي بيَّنها الله لعباده وهداهم إليها. ومن أعظم الخزي أن يمهل الله العبد ويمد له في العمر ويبسط له في الدنيا ومع ذلك يتمادى في ظلم نفسه بالمعصية، بل يتعدى ظلمُه إلى الآخرين، بل يتجاوز إلى أن يتحمل وزر محاولة إضلال أمة وإبعادها عن منهج الله مستغلاً في ذلك ما أعطاه الله من جاه وسلطة.

لقد وصل (بورقيبة) إلى الحكم في تونس وهو يحمل لقب المجاهد الأكبر، في مرحلة كان الشعار هو تصفية الاستعمار، ولم يكن أحد يتصور أن مرحلة ما بعد الاستعمار ستكون أشد

(*) أستاذ مشارك في كلية الهندسة – جامعة الملك سعود – الرياض.

وطـــأة وأكثر إيلاماً؛ فقد اختيرت تونـــس لتكون محلاً لتطبيق عملية إعادة التشـــكل الاجتماعي؛ فهناك شبه تقديس رسمي لرأس الهرم، وكان هناك تناقض بين الواقع والشـــعارات؛ فمن يتســـمى بالمجاهد الأكبر يأمر العمال بالفطر في رمضان حتى لا يتأثـــر الإنتاج. وفـــي الواقع كانت نظرية النظـــام أن البقاء بالســـلطة رهن بتكوين شعب فاقد للمبادئ وأن مظاهر التدين والانتماء تتناقض مع ســـمات الدولة المتحضـــرة؛ ولذلك فقد ســـبقوا الآخرين بشعارات تجفيف المنابع وتحرير المرأة وتكميم الأفواه والتضييق على رواد المساجد وترهيبهم... وتفاقَم الوضع مـــع عزل بورقيبة على يد ربيب نعمتـه (زين العابدين ابن علي) حتـــى تم تفريغ البلد من جميع قياداتـــه التي لا تنتمي للحزب الحاكم. وكانت اليد الطولى في إدارة البلاد تقوم على استغلال النفوذ مع ما يصاحب ذلك من فساد مالي وإداري وقبضة أمنية حديدية، وهو ما يسمح لنا أن نطلق على تونس بحق أنها الدولة الســـجن؛ أي أنها مبنية على أساس أن النزلاء هم الأعداء وأنَّ التحكم بهم هو المهمة الرئيسة والوحيدة.

لقد تمتـــع النظام التونســـي برعاية غربيـــة وتغطية لكل الجرائـــم التـــي كان يرتكبهـــا؛ لأنه يقـــود مســـيرة التغريب: فالحرية هي الشـــعار، ويُقصَد بها الفهم الليبرالي للحرية، إنها حرية الانعتـــاق من كل الضوابط الشـــرعية والاجتماعية. أما الديمقراطية فهي الدثار؛ فهنـــاك أحزاب ومجلس نواب ولكنَّ هنـــاك فقط حزب واحد يحكم، وهناك نظـــام جمهوري معلَن ولكن البلد تحكمه أســـرة رئاســـية. وهذا كله لا بأس به عند الغرب بشرط النجاح في المهم؛ وهو كما قال السفير الأمريكي: «مكافحة التطرف». فحسب تســـريبات ويكيليكس التي تحمل عنـــوان (تونس المضطربة... مـــاذا ينبغي أن نفعـــل؟)، والتي صدرت عن السفارة الأمريكية في تونس في ١٣/ ٧/ ٢٠٠٩م، يقول الســـفير الأمريكي في تونس (روبرت جوديك): «التغيير الحقيقي في تونس ســـوف يحتاج إلـــى انتظار رحيل ابن علي» وأضـــاف جوديك في البرقية: «معظم المواطنين هناك (أي: في تونس) يشـــعرون بالإحباط بســـبب غياب الحريات السياسية، وارتفاع مســـتوى البطالة، والفساد في السلطة، وعدم المساواة،

بينما يشـــكل التطـــرف تهديداً متواصـــلاً، والرئيس ابن علي على أعتاب الشـــيخوخة، ونظامه متصلب، ولا توجد مؤشرات واضحـــة حول خليفتـــه المنتظر، والنتيجـــة: تونس مضطربة، وعلاقاتنـــا معها أيضاً». إنها إشـــارة واضحة إلى أن الفســـاد والبطالـــة وغياب الحريات اجتمعت مـــع نمو التطرف وضعف رأس الهـــرم وعدم قدرته على مواجهـــة التحديات؛ ولذا فمن الأفضل غيابه؛ فالفاشـــل أو العاجـــز لا قيمة له. والمثير في الأمر أن الرئيس إلى آخر لحظه لم يتوقع تسلســـل الأحداث؛ فـــردود أفعاله متأخرة دائماً؛ ففـــي البداية وصف المتظاهرين بالإرهاب، ثم وعد بتوفير العمل، ثم وعد بالحرية وعدم ترشيح نفســـه مدى الحياة في تتابع سريع حسب سقف المطالب التي يرفعهـــا المتظاهـــرون، وعندما هرب اتجه إلـــى من عمل من أجلهم وأفنى عُمُره في خدمة مصالحهم ولكن اكتشف متأخراً أيضاً أنه لا قيمة لشـــخص زين العابدين الذي تحول من رئيس إلى كبش فـــداء؛ لذلك فإن تدارُك الأوضـــاع وإنقاذَ ما يمكن إنقاذه يحتِّم أن يبقى النظـــام ويذهب الرئيس وتذهب عائلته؛ فلم يُســـمَح لطائرته بالهبوط في باريـــس، بل طُلِب من عائلته اللاجئة المغادرة، وأخيراً اتجه الرئيس إلى الشـــرق في رحلته الأخيرة متذكراً أنه فهم الوضع في تونس بعد فوات الأوان، وقد يكون متحسراً على أن الشخصيتين الوحيدتين اللتين أشادتا به وتمنيَتا بقاءه علناً هما: (العقيد القذافي ونتنياهو).

الجامع العلوي

خالد الرباط
سيد عزت عيد
بمشاركة الباحثين بدار الفلاح

١ المقدمات
٢ الترجمة
٣ العقيدة
٤ العقيدة
٥ الفقه
٦ الفقه
٧ الفقه
٨ الفقه
٩ الفقه
١٠ الفقه
١١ الفقه

الموسوعة الفقهية

دار الفلاح

١٨ شارع أحمس - حي الجامعة - الفيوم

ت ٠١٠٠٠٥٩٢٠٠

التوضيح
لشرح الجامع الصحيح

بتحقيق
دار الفلاح

الطبعة الشرعية الوحيدة بإذن من
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية دولة قطر

طبعة جديدة منقحة تتميز بالآتي:
تصويب أخطاء الطبعة الأولى
إيراد السقط الموجود في عدة مواضع
إضافة مجلدات خطية جديدة
طبعة تجارية مخفضة

مطابع الأنوار
على صحاح الآثار

مؤلفات الإمام أحمد

دار الفلاح
للبحث العلمي وتحقيق التراث
الفيوم

١٢ الفقه
١٣ الفقه
١٤ الحديث
١٥ الحديث
١٦ الرجال
١٧ الرجال
١٨ الرجال
١٩ الرجال
٢٠ الأدب والزهد
٢١ فهارس
٢٢ فهارس

ة الحنبلية الجامعة

شراؤك لمطبوعات

دار الفلاح

دعم للبحث العلمي

طبوعتنا من :

) / الرياض :(كنوز اشبيليا)

نهاية أزمة... أم بداية أزمات؟

هل انتهت أزمة السودان؟

أم نحن أمام بداية أزمات جديدة؟

وهل طوي ملف الانفصال؟

أم ستتداعى الحركات الانفصالية ليس في السودان فحسب، بل في عدد من الدول العربية والإسلامية؟

من العسير جداً أن نقرأ أحداث السودان بمعزل عن محيطها الإقليمي والعربي، ومن العسير جداً أن نختزل المستقبل السوداني في دولة جنوبية. إننا أمام ملفات غاية في التعقيد والتداخل، وهذا يتطلب منّا رؤية عميقة لواقعنا، واستشرافاً بصيراً لمستقبلنا.

نعم! أمر محزن ما حدث... لكن لا ينبغي أن يكون ذلك نفقاً خانقاً من الاحباط والاستسلام، بل نرجو أن يكون منطلقاً للتصحيح والبناء؛ إذ الاستدراك ما يزال بالإمكان. والعقلاء هم الذين يصنعون من الأزمات فرصاً جديدة للعمل والعطاء وتجديد الحيوية.

وها نحن في مجلة البيان نفتح هذا الملف الشائك، لنقول لإخواننا في السودان: إننا شركاء في الحاضر، وشركاء في المستقبل؛ فنحن أمة واحدة، مهما سعى الأعداء لتفريق شملنا، وتمزيق صفنا.

﴿ وَإِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾.

[المؤمنون: ٥٢]

الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

تجدون كتبنا
في
معرض الرياض
الدولي للكتاب

صدر حديثاً

من إصداراتنا

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

مؤسسة الدرر السنية - المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ - جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
تلفاكس : ٠٣٨٦٨٠١٢٣ بريد إلكتروني nashr@dorar.net

السودان...
مِنْ شدِّ الأطراف إلى البتر

مصطفى شفيق علام(*)

ليس أدلَّ على واقع الأمة الإسلامية وما يحاك لها من مخططات ومشاريع تستهدف تفتيتها ووأد كل محاولة لنهوضها ووحدتها: مما يشهده السودان من أزمات متلاحقة تعصف بوحدته وتعبث بأمنه؛ فمنذ أن نال السودان استقلاله في عام ١٩٥٦م، دخلت البلاد في حالة من الصراع الداخلي المرير لم تنقطع إلا قليلاً؛ حيث كانت أوضاع الصراع وحلقاته تتعقد بمرور الوقت وتتشابك روابطها الداخلية بأخرى خارجية (إقليمية ودولية)، تؤججها وتسعى لإذكائها تحقيقاً لمصالحها وإستراتيجياتها الآنيةِ منها والمستقبلية.

ولقد اشتدت وطأة التدخل الأجنبي في السودان استغلالاً لمشكلاته الداخلية، منذ أن تسلمت حكومة الإنقاذ مقاليد السلطة أواخر ثمانينيات القرن الفائت وأعلنت عن توجهات فكرية وحضارية حاولت أن تعكس من خلالها قيماً إسلامية رغبة في الأصالة والتحرر، وبُعْداً عن موروثات الحقبة الاستعمارية الغربية وما خلَّفته من نظريات وممارسات لا تتفق وحاضنةَ الشعب السوداني الدينية والثقافية والسياسية والاجتماعية.

ولقد عمدت الإستراتيجيات الغربية منذ نهاية الخمسينيات من القرن الماضي، ومع دخول جُلِّ الدول الإسلامية مرحلة الاستقلال عن الاستعمار الغربي المباشر، عمدت تلك الإستراتيجيات إلى تطويع مبدأ «شد الأطراف» Peripheral doctrine في تعاملها مع الدول الإسلامية، الذي يعني وَفْقاً للدكتور حامد ربيع: «عدم قدرة الجسد على الحركة بكامل قدراته وقواه»[1]، ويتلخص هذا المبدأ في إقامة تحالفات غير رسمية مع الدول الواقعة على أطراف العالم الإسلامي لاستخدامها كأداة للضغط على تلك الدول في الوقت والسياق المناسبين، وكذلك خلق حالة من الاضطرابات والقلاقل على تخوم مناطق التماس بين بلدان العالم الإسلامي وجيرانه المحيطين به على نطاق رقعته الجغرافية الممتدة.

(*) مدير وحدة العلاقات الدولية بالمركز العربي للدراسات الإنسانية بالقاهرة.

(١) انظر في تفصيل هذا المبدأ وتطبيقاته: حامد ربيع، الثقافة العربية بين الغزو الصهيوني وإرادة التكامل القومي، القاهرة، دار الموقف العربي، ١٩٨٣م.

السودان جسر للتواصل الحضاري:

لا شـــك أن ما يشكله السودان من بُعْد حضاري يتمثل في هويته الإســـلامية العربية الإفريقية، يؤهله أن يكون جسراً فعالاً للتواصل بين إفريقيا شـــمال الصحراء وإفريقيا جنوبها، وبين شـــرق إفريقيا وغربها، ومن ثَمَّ يعد السودان حلقة اتصال بين القارة الإفريقية (قارة الإســـلام) وقلب العالم الإسلامي؛ حيث يشـــكِّل طريق الحج القديم الذي يبدأ من الأطلســـي غرباً وحتى الجزيرة العربية شـــرقاً مروراً بمصر والســـودان، رباطاً من التواصل الاجتماعي والثقافي بين أبناء شعوب وحواضر إسلامية عدة، ومن ثَمَّ فإن استقرار السودان ووحدَته يعني تمدده الحضاري شـــرقاً وغرباً وجنوباً، وهو ما يعني: أن حالة التمازج الثقافي التي شـــكلت السودان والتي يشكِّل الإسلام جوهرها ومكوِّنها الرئيـــس، يمكن أن تعم هذه المناطق وتعيد صياغتها لتندرج في إطار الأمة الإســـلامية وكيانها القيمي الجامع، وهذا ما لا تريده القـــوى الغربية الكبرى المناوئة لتوجهات الأمة الوحدوية الجامعة ولو في إطارها الشكلي والشعائري.

ولما كانت معظم أزمات الســـودان الرئيسة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمحيطـــه الإقليمي العربي والإفريقي ومن ثَمَّ الإســـلامي؛ لذا فإنه يمكن القول: إن التحديات المتعددة التـــي يواجهها ذلك البلد، والتي يتداخل فيها العســـكري والسياســـي مع الاقتصـــادي والاجتماعي والثقافي؛ إنما تنعكس على مرتكزات أمن الأمة الإســـلامية باتساع نطاقها وأبعادها ومراميها.

إن ما يواجهه الســـودان من تحديات - ولا سيما قضية انفصال الجنوب - إنما هو في التحليل الأخير محاولة لتغيير هوية الســـودان الحضارية الإسلامية في إطار تنافس قيمي بين رؤيتين متضادتين[1]:

الأولى: ترى الســـودان جـــزءاً من محيطه الحضـــاري (العربي الإفريقي الإسلامي).

والثانية: ترمي لربطه بإفريقيا فقط في إطار ما يسمى بـ «أفرقة الوجه الحضاري للســـودان» ومن ثَمَّ ربطـــه بالعالم الغربي ومنظومته الفكرية ذات الصبغة المسيحية الأنجلوسكسونية.

وإذا ما نجحت الرؤية الأخيرة في تمرير تلك المخططات التفتيتية بتغيير الهوية الحضارية للســـودان، فـــإن ارتباط هذا البلد بمحيطه (العربي الإســـلامي) سيضعف ومن ثَمَّ يبقى خيار الانفصال والتفتت في مناطق أخرى مشابهة من العالم الإسلامي أمراً قائماً، بل مرغوباً من قِبَل القـــوى الغربية المهيمنة على مجمل تفاعلات النظام الدولي الراهن.

(١) لمزيد من التفاصيل بشأن هاتين الرؤيتين انظر: حسن الحاج علي، «أزمات السودان وتحديات أمن المنطقة العربية»، في «الأمة في مواجهة مشاريع التفتيت»، التقرير الإستراتيجي السابع لمجلة البيان، يناير ٢٠١٠م، ص ١٦٣.

واشنطن... وتهيئة المناخ للبتر:

في يناير من عام ٢٠٠٤م أصدر مركز الدراسات الإســـتراتيجية والدولية بواشـــنطن Center For Strategic & International Studies تقريراً مهمّاً عن الســـودان بعنوان: «لضمان السلام: إســـتراتيجية ما بعـــد الصراع في الســـودان». To Guarantee The Peace: An Action Strategy For A post-conflict Sudan

تضمَّن رؤية الولايات المتحدة الأمريكية لمســـتقبل الســـودان في إشـــارات ربما لم يفطن لهـــا كثيرون آنذاك؛ ولا سيما أنها سبقت اتفاقية نيفاشا الشهيرة عام ٢٠٠٥م التـــي وضعت لَبِنـــة الانفصال وأعطت مآلاته شـــرعية فـــي أطر قانونية زائفـــة، ولعلنا في هذا الإطار ننقل بعض المقتطفـــات من هذا التقرير نظراً لأهميته ودلالته الإســـتراتيجية للتحول باتجاه بتر جنوب السودان عن دولة الوحدة الجامعة. يقول: (إن السودان يشكل بلداً رئيساً في الحرب الأمريكية ضد الأنظمة «الفاشلة» والنزاعات المتصلة والإرهاب في القرن الإفريقي ومنطقة البحر الأحمر، وإذا قُدِّر للولايات المتحدة أن تفشـــل في اتخاذ خطوات كفيلة بمنع السودان من الانزلاق في إطار الدول «الفاشلة»، فإن عدم الاستقرار في الإقليم سوف يؤدي إلى تهديد المصالح الأمريكيـــة الحيوية فيه...) ويمضي التقرير قائلاً: (... كما أن السودان يعتبر قُطْراً مهماً لتطبيق إستراتيجية واشنطن الهادفة إلى إدخال الديمقراطية والانفتاح في الشرق الأوسط ولا سيما بين المجتمعات المسلمة؛ فإنهاء الحرب في الســـودان يهيئ الفرصة مع الشـــركاء العرب والأصدقـــاء والحلفاء الآخرين للترويج لرؤية واشـنطن وإستراتيجيتها في المنطقة، وإن الالتزام بســـودان ما بعد النزاع ســـيتردد صداه في مـــا وراء الخرطوم؛ خاصة في ظـــل الصعوبات الدبلوماسية التي تواجهها واشنطن في الدول العربية والإسلامية بشكل عام)[2].

ويمكن القـــول اســـتناداً لما ســـبق: إن انفصال

(٢) John Love, Daniel Werbel-Sanborn, Lance Lesher, To Guarantee The Peace: An Action Strategy For A post-conflict Sudan, Center For Strategic | International Studies, January, 2004.

جنوب السودان لم يكن وليد نتيجة الاستفتاء، وَفْق الراجح من الشواهد والدلائل، ولكنه بدأ مع إقرار اتفاق نيفاشا للسلام عام ٢٠٠٥م؛ حيث جاءت تجليات هذا الاتفاق في إطار تهيئة المناخ للانفصال ولعل الفترة الانتقالية التي أقرها الاتفاق ومدَّتها ستة أعوام ليست إلا فترة تدريبية للجنوبيين لإدارة دولتهم المنتظرة بمباركة غربية وأمريكية وصمت وعجز عربي وإسلامي مريب؛ لذلك فلا غرو أن حكومة جنوب السودان المتمخضة عن نيفاشا لا تستخدم الرمز الدولي السوداني في شبكتها التليفونية، وعوضاً عن ذلك فإنها تستخدم رمز أوغندا، كما أنها تقيم شبكة علاقات سياسية وتجارية بالعالم الخارجي دون المرور ببوابة الخرطوم؛ إذ تمتلك الحركة مكاتب اتصال وتمثيل سياسية في العديد من الدول الأجنبية، ولا تختلف هذه المكاتب الخارجية عن السفارات من حيث الجوهر أو الوظيفة إلا في المسمى فقط، وتبلغ صلاحيات حكومة الجنوب حدّاً يصل إلى إصدار تأشيرات الدخول للإقليم؛ وربما يجري ذلك في كثير من الأحيان بدون علم وزارة الخارجية السودانية ذاتها[١].

وعليه فإن الواقع الحالي يؤكد أن جنوب السودان قد أضحى شبه دولة، بل هناك رموز دولة بالفعل، مثل علم الحركة الذي يخفق فوق عدد من المؤسسات الحكومية بالجنوب وليس علم الدولة السودانية الأم، والمنهج التعليمي المختلف عن نظيره في الشمال، والاستقلالية الكبيرة عن الحكومة الاتحادية في الخرطوم في مجالات التمويل والتخطيط والإدارة، كما تتجلى التعبئة الجماهيرية باتجاه الانفصال في حثِّ المواطنين الجنوبيين على التصويت للحرية (بمعنى الانفصال) وقيام شباب الحركة الشعبية بمسيرات تطالب بالانفصال صراحة[٢].

وقد قامت الحركة الشعبية بتكوين لجنة لإعداد النشيد الوطني، وإنشاء وكالة أنباء جنوب السودان، والتخطيط لإنشاء الخطوط الجوية لجنوب السودان. ونظراً لوجود تخوُّف وقلق من حدوث عنف واضطرابات بعد الانفصال فقد عمدت الحركة إلى تقوية جيشها وتطوير قدراته لمجابهة احتمالات حرب قد تنجم مع الشمال. وفي هذا المسعى قامت الحركة بدعم من وزارة الخارجية الأمريكية بعقد اتفاق مع شركة دين كورب الأمريكية الخاصة لتدريب قوات الحركة الشعبية وتحويلهم لقوة عسكرية محترفة، وبلغت قيمة العقد ٤٠ مليون دولار لإنجاز هذه المهمة بهدف تحقيق الاستقرار في جنوب السودان، كما قامت الحركة بعقد اتفاق آخر مع شركة بلاك ووتر لتوفير حماية أمنية لكبار مسؤولي الحركة، وتدريب جيشها الوليد؛ وذلك بمساعدة ديك تشيني نائب الرئيس الأمريكي السابق[٣].

وقد سعت الحركة إلى التزوُّد بالعتاد العسكري الثقيل وخاصة في السنتين الأخيرتين؛ ففي أكتوبر ٢٠٠٨م احتجز قراصنة صوماليون سفينة أوكرانية تحمل دبابات كانت في طريقها للحركة الشعبية عبر كينيا، كما أن الحركة شرعت في شراء ١١ طائرة حربية متقدمة من المفترض أن تكون قد تسلَّمتها بنهاية أغسطس ٢٠١٠م، وقد جرى تدريب الطيارين في أوغندا وأمريكا، على أن يكون دخول هذه الطائرات الخدمة نهاية عام ٢٠١٠م مع اقتراب الانفصال الفعلي لدولة الجنوب[٤].

كرة الثلج... وتأثير العدوى:

وإذا كانت بعض الاستطلاعات المستقلة حول توجهات الناخبين في جنوب السودان قد أكدت أن نحو ٧٠ ٪ منهم أو يزيد يفضلون الانفصال وتأسيس دولة مستقلة[٥] في استفتاء تقرير المصير (الذي قد يكون أُعلِن عن نتائجه أثناء طباعة هذا المقال)، فإن السؤال الذي يجب أن يطرح بقوة خلال المرحلة الحالية إنما يتعلق بتأثيرات الانفصال المنتظر على الأمة الإسلامية، وكيف يمكن مجابهة زيادة كرة الثلج التي تمثلها سابقة الانفصال في المنطقة؛ بحيث لا تنتقل العدوى إلى دول أخرى ربما تتشابه ظروفها وأزماتها مع كثير مما يعانيه السودان، مثل: العراق، واليمن، وباكستان، وربما تركيا... وغيرها من الدول التي تتكون من عرقيات أو إثنيات مختلفة. الأمر الذي يمكن تسميته بمنطق «التفجير الذاتي» للعالم الإسلامي. ولعل التقاليد الأمريكية في التعامل الداخلي مع أزمات العالم الإسلامي تسترجع منطق التفتيت نفسه الذي برعت فيه دبلوماسية الإمبراطورية البريطانية الآفلة في أثناء الثورة العربية ضد العثمانيين زمن الحرب العالمية الأولى، والذي يستند إلى مقولتهم الشهيرة: «لا تحاول أن تفعل بنفسك معظم الأشياء ضد الدولة العثمانية، فمن الأفضل أن يحاول العرب فعل ذلك بدلاً من أن تفعله أنت بإتقان،

(١) انظر: عبد الوهاب الأفندي، الانزلاق نحو الانفصال والكوابح المعطلة: المشهد السوداني في نهاية عام ٢٠٠٩م، الجزيرة. نت، ٢٣/١٢/٢٠٠٩م.

(٢) «مسيرات تطالب بانفصال جنوب السودان عن الشمال»، الجزيرة نت. ١٢/٨/٢٠١٠م.

(٣) «أميركا تخطط لإعلان «دولة النيل» جنوب السودان، موقع العالم الإخباري. ٢/٨/٢٠١٠.
http://www.alalam-news.com/node/263089

(٤) «الجيش الشعبي يشتري ١١ طائرة عسكرية متقدمة»، الأحداث. ٢٢ أغسطس ٢٠١٠م.

(٥) See: Samuel Hillary Gama, Speculations on Security in South Sudan's Post Referendum, ISS Today, Pretoria: The institute for Security Studies, September 2009.

إنها حربهم ونحن هناك لمساعدتهم وليس من أجل كسبها لهم»[1].

لذلك فإن الولايات المتحدة لن تقول: إنها ستفتت هذه الدولة أو تلك من دول العالم الإسلامي، ولكنها ستقوم بذلك عبر سياسة إشعال الأزمات وإثارة النعرات الأولية الطائفية والمذهبية والعرقية في إطار إستراتيجية الفك والتركيب التي تنتهجها بشأن مفردات الأمة الإسلامية لتحويلها إلى كيانات فسيفسائية غير متجانسة قابلة للانفجار الذاتي وَفْقاً للخبرة البريطانية سالفة البيان، بينما تبدو واشنطن في صورة المدافع عن حقوق الإنسان وراعية حق تقرير المصير لمن يبتغي إلى ذلك سبيلاً.

إن ما يحدث اليوم في السودان ربما يحدث غداً في غيره من البلدان الإسلامية، ومخطئ من يظن أن واشنطن تتحرك في سياساتها لاعتبارات قيمية أو أخلاقية أو إنسانية. ومن ثَمَّ فإن الاهتمام الواسع الذي تبديه الإدارة الأمريكية بدفعها باتجاه انفصال الجنوب؛ إنما يهدف بالأساس لإعادة صياغة السودان على أسس جديدة تتضمن القضاء على نظام الإنقاذ، والتخلص من كل أطروحاته الإسلامية التي ما زال يحتفظ بها على الرغم من الضغوط الغربية والأمريكية على الخرطوم، والعمل على تغليب الوجه الإفريقي للسودان على وجهه العربي الإسلامي، والعمل على استغلاله اقتصادياً من قبل الشركات النفطية الأمريكية، مع تجزئته من الداخل إلى كيانات فسيفسائية متعددة تتيح لواشنطن، إدارتها جميعاً بسهولة بواسطة أحد موظفي الخارجية الأمريكية، وبعد ذلك رَبْط جنوب السودان بالقرن الإفريقي وشرق إفريقيا وسلخه من سياقه الإسلامي. وتسعى واشنطن في رؤيتها البعيدة إلى تطويق الدول العربية – وخاصة مصر – وحرمانها من أي نفوذ قائم أو محتمَل داخل القارة الإفريقية، واحتواء الدولة المصرية من الجنوب والعمل على إضعافها باعتبار أن ضعف مصر يلقي بظلاله على جل الدول العربية لما لها من ثقل سياسي وتأثير تاريخي على محيطها الإقليمي، هذا الأمر سيلقي بظلاله لا على الأمن القومي في مصر والسودان فحسب، بل إن الأمر سيتعدى ذلك إلى المساس بمنظومة أمن المنطقة العربية والإسلامية بمفهومها الشامل.

وختاماً؛ فإن مخططات تفتيت العالم الإسلامي ليست بالأمر الجديد، ولربما يوحي انفصال جنوب السودان المنتظر ببدء موجة جديدة من موجات تنفيذ وتفعيل هذه المخططات، ولعلنا في هذا السياق نستدعي دراسة إسرائيلية قديمة نسبياً ربما لم يلتفت لها أحد في حينها، بيد أن الوقائع المُعاشة تؤكد أن القوى (الصهيوأمريكية) تسعى جاهدة لتفعيل تلك المخططات التفتيتية للأمة؛ ففي عام ١٩٨٢ نشرت مجلة (كيفونيم) – التي تصدر بالعبرية، وتعد لسان حال الصهيونية العالمية – دراسة تُعَد بمثابة وثيقة مهمة تحت عنوان «إستراتيجية إسرائيل في الثمانينيات» أكدت أن هدف إسرائيل هو تقسيم المنطقة العربية إلى دول صغيرة وكذلك العمل على تفكيك الدول القائمة وتفتيتها ومن ثَمَّ إعادة ترتيب الأوراق في منطقة الشرق الأوسط لتصبح منطقة فسيفسائية تذوب الدولة العبرية في إطارها؛ بحيث لا تشعر إسرائيل بالاغتراب في محيطها الإقليمي وتصبح مكوناً من مكونات فسيفساء المنطقة ككل[2].

إن القوى (الصهيوأمريكية) على قناعة راسخة بأن العالم الإسلامي تتنازعه الانقسامات العرقية والطائفية والمذهبية، ومن ثَمَّ تعمل بشتى الطرق على اختراقه وإضعافه من الداخل من خلال التآمر مع الأقليات المتضمنة داخل جسد الأمة واستقطابها وتشجيعها على التمرد على دولها الأم وإقامة دويلات منفصلة أو كيانات هشة يمكن احتواؤها في إطار كيانات إقليمية أخرى غير إسلامية. ومن ثَمَّ تصبح ورقة الأقليات هي الوسيلة المثلى لإنهاك الأمة الإسلامية من الداخل ومن ثَمَّ يسهل تجزئتها وتفتيتها وانتهاب خيراتها.

وفي هذا السياق، فإن السودان يُعَد وَفْقاً لهذه الرؤية بمثابة البداية المثالية الناجحة لحلقات التفتيت؛ حيث يرى وزير الأمن الداخلي الإسرائيلي السابق آفي ديختر[3] أن الهدف الرئيس من اهتمام إسرائيل بالتدخل في شؤون السودان يتمثل في تفتيت السودان وشغله بالحروب الأهلية؛ لأنه بموارده ومساحته الشاسعة وعدد سكانه يمكن أن يصبح دولة إقليمية قوية، وإنه يجب أن لا يُسمح لهذا البلد – رغم بُعده عن إسرائيل – بأن يصبح قوة مضافة إلى قوة العالم العربي؛ لأن موارده إن استُثمرت في ظل أوضاع مستقرة فستجعل منه قوة يُحسَب لها ألف حساب؛ ولذلك لا بد من أن تعمل إسرائيل على إضعاف السودان، وهذا من ضرورات دعم وتعظيم الأمن القومي الإسرائيلي ببُعدِه الإستراتيجي.

---

(١) Mahdi Nazemroaya, America's "Divide and Rule" strategies in the middle east, Global research, January 17, 2008.

(٢) The Zionist conspiracy to divide the arab states into small units, the free arab voice, July22, 20. At. www.freearabvoice.org.

(٣) أنظر في ذلك: محمد جمال عرفة ، جنوب السودان يتسلح ... والوحدة تترنح، إسلام أون لاين، ٢٣ ديسمبر ٢٠٠٨م.

الصهيونية العالمية في إفريقيا
ومآلات انفصال جنوب السودان

الفريق أول ركن (م) العباس عبد الرحمن خليفة(*)

مقدمة:

يتميز السودان بموقعه الجغرافي متوسطاً القارة الإفريقية، ويمثل بذلك مَعْبَراً للحضارات والثقافات شمالاً وجنوباً، وشرقاً وغرباً. وساعد السودان بهويته العربية الإفريقية الإسلامية على أن يكون جسراً للثقافة الإسلامية – تحديداً – إلى قلب القارة الإفريقية ومشرقها وغربها، وحقق رباطاً من التواصل الاجتماعي والثقافي بين إفريقيا والدول العربية شمالاً وشرقاً، وقد انتبهت دول الاستعمار قديماً لهذا الموقع الفريد؛ فقامت الإدارة البريطانية بقفل مناطق جنوب السودان عن شماله بما عرف بـ (قانون المناطق المقفلة)، وحرَّمت حركة مواطني الشمال إلى الجنوب، ومواطني الجنوب إلى الشمال؛ لتضع حاجزاً للتواصل الثقافي الاجتماعي بينهما بذلك القانون، ثم أوقفت إنشاء الطرق بين جنوب أوغندا وشمالها الذي وصلته رسالة الإسلام واعتنقها جزء من مواطنيه؛ لتحقيق منع انتقال هذه الحضارة جنوباً. ولم يغبّ هذا الهدف عن إستراتيجية محاربة الإسلام في إفريقيا؛ فوضعت السياسات والخطط لتحقيقه مستقبلاً؛ فما شهدناه من أحداث عدم الاستقرار في السودان منذ استقلاله توِّج بانفصال جنوب السودان عن شماله في الاستفتاء الذي عقد في التاسع من يناير ٢٠١١م.

ومما لا شك فيه أن هذه الإستراتيجية لن تنتهي بانفصال جنوب السودان عن شماله، بل ستستمر تحقيقاً لكل أهداف الإستراتيجية التي سنتعرض لها في ما بعد؛ وذلك لوضع نهاية للثقافة الإسلامية كما يتصورون في إفريقيا وغيرها من بلاد الإسلام؛ إذ إن كل التحديات التي تواجه السودان لا بد أنها مؤثرة في محيطه الإقليمي والعربي والإسلامي.

وقد أثبتت الدراسات وما تنشره وسائل الإعلام الغربية والصهيونية ارتباط أهداف تلك الإستراتيجية بغاية واضحة، هي: إنهاء الوجود والمظهر الإسلامي في إفريقيا ممثلاً في السودان: إمَّا بتغيير هويته العربية الإسلامية إلى (الأفريقانية المسيحية)، أو بتقسيم هذا البلد إلى عدة دويلات وخلق حالة من عدم الاستقرار تمنعه من بناء دولة قوية تستطيع نشر ثقافتها وحضارتها إلى ما حولها من دول، ويدخل هذا في ظل مخططات ومشاريع تقسيم وتجزئة الدول الإسلامية في ما يُعرَف بمشروع الشرق الأوسط الجديد أو الكبير.

(*) مدير أكاديمية نميري العسكرية (سابقاً).

محاولات انفصال جنوب السودان عبر التاريخ:

بدأ تاريخ السودان بإنشـــاء ممالك متفرقة لم تأخذ شكل الدولـــة القطرية إلا بدخول الاســـتعمار التركي المصري، الذي تلته الثورة المهدية لتوحِّد السودان وتضم إليه أجزاء من جنوب الســـودان الحالي، ثم جاء الاســـتعمار الإنجليزي المصري عام ١٨٩٨م حتى نال الســـودان استقلاله في يناير ١٩٥٦م بحدوده الحالية.

اندلع النزاع بين شـــمال الســـودان وجنوبه في أغسطس من عام ١٩٥٥م؛ أي قبل نيل الســـودان لاستقلاله الرسمي من المســـتعمر، واســـتمر حتى عام ١٩٧٣م؛ حيث تم توقيع اتفاقية سلام في أديس أبابا بين حكومة الرئيس جعفر النميري وحركة متمردي جنوب السودان بقيادة (جوزيف لاقو)، ونَعُمت المنطقة بهدوء الأحوال ووقف الاقتتال حتى اندلع التمرد مرة أخرى في عام ١٩٨٣م، واســـتمر حتى توقيع اتفاقية السلام الشامل في نيفاشـــا بكينيا بين حكومة جمهورية السودان والحركة الشعبية لتحرير جنوب السودان بقيادة (جون قرنق).

الأهمية الإستراتيجية:

يحتل الســـودان موقعـــه على الخريطة السياســـية للقارة الإفريقية بين خطي العرض (٤ و ٢٢ درجة) شـــمالاً، وخطي الطول (٢٢ و ٢٥ درجة) شـــرقاً، بمســـاحة قدرها مليون ميل مربع؛ ممثِّـــلا بذلك أكبر دولة في إفريقيا، والدولة العاشـــرة من حيث المســـاحةُ في العالم، وله حدود مع تسع دول إفريقية وشـــاطئ على ســـاحل البحر الأحمر الغربي بطـــول أكثر من ٧٠٠ كم، والســـودان بموقعه هذا يمثل رابطاً بين شمال القارة الإفريقية وجنوبها، ويصل غربها بشرقها، وانتشرت على أرضه الحضارات الإفريقية والعربية والأديان السماوية.

تحتوي أرض الســـودان علـــى كثير من المـــوارد الطبيعية المتنوعة والمســـاحات الزراعية الواســـعة (أكثر من ٢٠٠ مليون فدان)، إضافة إلى توفُّر الميـــاه (أنهار، أمطار، مياه الجوفية)، وأكثر من ١٢٠ مليون رأس من الماشية.

ويمثل موقع الســـودان أهمية إســـتراتيجية باعتباره عمقاً إســـتراتيجياً للأمة العربية الإسلامية عامة، ولجمهورية مصر بصفـــة خاصة، وهو - كمـــا ذكرنا - الجزء الـــذي تعبر عليه الثقافات والحضارات بين الشمال والجنوب أو الشرق والغرب، كما أن هذا الوضع يمثل أهميـــة قصوى للدول الكبرى خاصة أمريكا وأوروبا التي تســـعى لإيجاد موطئ قدم لها للوصول إلى المـــوارد الإفريقية الطبيعية والبشـــرية، وللتأثير على الأوضاع السياســـية في الإقليم، وللحدِّ من نشر الثقافة الإسلامية في القارة الإفريقيـــة أو أي أفكار إيديولوجية أخرى لا تتماشـــى مع فكرها، كما أن ســـاحل البحر الأحمـــر يجعله محط أنظار القوات البحرية الدولية؛ لتجنيده أو الســـيطرة عليه للسيطرة على الممرات البحرية والقـــرن الإفريقي وضمان حرية البوارج البحرية.

هذا الموقع الإســـتراتيجي أوقع السودان في دائرة اهتمام الـــدول العظمى وإســـرائيل أو الصهيونيـــة العالمية منذ قديم الزمان؛ باعتبار أن القارة الإفريقية ككل محط لأنظارهم. غير أن للسودان وضعه الخاص في دائرة الاهتمام؛ فقد استهدفت إســـرائيل إفريقيا منذ نشـــأة الكيان الصهيونـــي موقعاً بديلاً للوطن المزمع إنشاؤه في حالة تهديد المقترح الأول (فلسطين)، فكانت البدائل الإفريقية هي إثيوبيا وشـــمال أوغندا والسودان مقتَرحـــاً أوَّلياً، ثم نيجيريا بديلاً ثانيـــاً، وجنوب إفريقيا بديلاً ثالثاً، ليشـــكل هذا المثلث قاعدة لاحتواء وإيقاف المد الإسلامي تمهيداً للقضاء عليه.

ركزت الدراســـات التي شـــملت الأهداف الإسرائيلية في إفريقيا على وجود بيئة محيطة ببيئة الكيان الصهيوني لتضمن هـــذا الـــوجـــود وتدعمـــه، بالإضـــافة لكونه مَعِينـــاً لا ينضب؛ لما تميزت به القارة الإفريقية من موقع إســـتراتيجي وثروات غير محدودة. وبالفعل أتاحت البيئة الإفريقية لإسرائيل كسر حاجز العزلة العربية والطوق الذي فُرِض عليها سياســـياً واقتصادياً، فنفـــذت إلى إفريقيا للحصول على تأييـــد دولي أكبر، إضافة إلـــى تهديد مصادر المياه العربية في إفريقيا للتأثير على الأمن المائي العربي؛ خاصة مياه النيل، وكذلك السيطرة على الملاحة في البحر الأحمر.

ودخلت قضية الســـيطرة على اقتصاديـــات الدول العربية عبر هذا الهـــدف لعرقلة نموِّها، إضافة لخلق تيارات مناهضة للعرب ومؤيدة لإســـرائيل في إفريقيا؛ إذ شكَّلت إفريقيا سوقاً لصادرات إســـرائيل الصناعية، ومورداً هاماً للخامات المعدنية وتصديـــر الطاقات الصناعية الفائضة لديهـــا، ولتحقيق ذلك كان لا بد من كســـب الكيان الغربي في أوروبا وأمريكا لضمان الدعم والتمويـــل ومواجهة التكتل الشـــيوعي في إفريقيا مما ساعد على ذلك قِصَر النظر العربي في الأهداف الإسرائيلية؛ إذ تركز المعتقَد في اهتمام إســـرائيل بمنطقة الشرق الأوسط فقط؛ فقصَّر الاهتمام العربي الإسلامي بإفريقيا؛ وهو ما أتاح

لإسـرائيل فرصة التمدد فيها وتطويـق الأمن العربي والتأثير على العلاقات الإفريقية العربية وعرقلة المد الإسلامي.

أشـارت دراسـات كثير إلى أن ما يقارب ١٥ - ١٧ ٪ من سـكان إسـرائيل قدموا من إفريقيا في فترة مـا بين عامي ١٩٤٨م - ١٩٦٧م، وأن الاسـتعمار الغربـي لإفريقيا قد مهد لإسـرائيل ومكَّنها من التغلغل إلى تلك المسـتعمرات منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، ومن التبشير بمشروعها والسيطرة على مقدرات تلك البلاد بعد نيلها الاستقلال.

فالاهتمام الإسـرائيلي بإفريقيا كانت لـه خلفيات كثيرة وقديمة، أهمها ما ارتبط بالأمن القومي الإسـرائيلي والهيمنة عليها؛ حيث أشـار (ناحوم غولدمان) في كتابه (إسـرائيل إلى أين؟) إلى أن اهتمام المفكرين الإسـرائيليين والمؤسسـين لتلك الدولة لـم يقتصر على إنشـاء وطن يضم اليهـود فقط، بل استخدام هذه الرقعة من الأرض لتطبيق الأفكار الأساسية في التاريخ اليهودي، وذكر أن دولة إسرائيل لا يمكن أن تبقى إلا إذا شكلت ظاهرة (فريدة) لا مثيل لها في الوجود.

ويؤكد الدكتور علي مزروعي «أن مؤسس الصهيونية واصل التفكير في إفريقيا على أنها امتداد لإسـرائيل أكثر من كونها وطناً لليهـود، ولما كانت هناك أعداد كبيـرة من اليهود الذين أرادوا الاسـتقرار معاً في مناطق يستطيعون فلاحتها بأنفسهم ويسـمونها وطناً مشـتركاً فقد اعتبرت فلسـطين مكاناً غير مناسـب لكل اليهود الذين أرادوا الاستقرار معاً بهذه الطريقة، ولذلك فإن (هرتزل) رأى أن شـرق إفريقيا يعتبر مكاناً مناسباً للموجة الثانية من الاستعمار اليهـودي لا الموجة الأولى»، هكذا تظهر فكرة اهتمام إسرائيل بإفريقيا والوجود المكثف فيها.

أسباب اهتمام اليهود بإفريقيا:

أولاً: الموقع الإستراتيجي: حيث إن إفريقيا تطل على البحر الأحمر والأبيض المتوسـط والمحيط الأطلسـي، وبها تقع أهم ثلاثة مضايق تؤثـر على حركة التجـارة العالمية، وقد ظهرت بالنسـبة لها أهميـة البحر الأحمر ومضيق بـاب المندب بعد السيطرة البحرية المصرية واليمنية عليه في حرب عام ١٩٧٣م.

ثانياً: الحد مـن الوجود العربي والإسـلامي في إفريقيا ومحاصرة المصالح المشتركة بين الدول العربية جنوب الصحراء وشمالها والوصول إلى منابع النيل.

ثالثـاً: وجود جاليات كبيرة مـن اليهود في عدد من الدول الإفريقيـة، مثل: جنوب إفريقيا، وإثيوبيـا، وزيمبابوي، وكينيا والكنغـو الديمقراطية. وقد قالت (غولـدا مائير) عن أهمية وجود الجاليات اليهودية: «إن على إسرائيل في مواجهتها للدول العربيـة داخل حدودها وعلى المسـرح الدولي أن تبذل جهوداً فائقة لاكتشـاف مسـالك جديدة تمكِّنها من اختراق الحصار المفـروض عليهـا وأن تذكر أن لها حليفاً مخلصـاً وأخوياً في يهود العالم».

رابعاً: ربط الوجود اليهودي في إفريقيا بأرض المعياد عبر الزيارات والتبرعات المالية مقدمة لمجيئهم إلى إسـرائيل: وقد عبَّر (ليفي شكوك) عن زيارة اليهود للدولة العبرية قائلاً: «نعمل معهم ليعود كل واحد منهم حاملاً معه شـيئاً من روح إسرائيل وصدى منجزاتها وبهجة كلامها».

من خلال الأهـداف الإسـرائيلية في إفريقيـا وَضَحَت ضرورة دعم الدول الغربية في أوروبا وأمريكا للنشاط اليهودي لتحقيق تلك الأهداف، ومن المعلوم أن السـيطرة اليهودية على أوروبا نفسـها نبعت في الفكر اليهودي أصلاً لتحقيق الأحلام والأهـداف اليهودية فـي إيجاد الوطن والتمـدد عبر العالم؛ لإحكام السـيطرة، وتحقيق أهداف الأمن القومي الإسرائيلي؛ لذلك شـكلت مسـاهمات مختلف الدول الغربية دعماً للوجود الإسـرائيلي في إفريقيا؛ حيث شـجعت الدول التي استعمرت إفريقيـا - مثل فرنسـا وبريطانيا والبرتغـال - هذا الوجود، وهيأت القارة لقبول إسـرائيل والسماح لها بفتح قنصليات في مدن إفريقية قبل الاسـتقلال، وتمكينها من حرية الحركة من تلك الدول وإليها، إضافة إلى تسهيلات مُنحَت لإسرائيل لخدمة مصالحها. واستغلت الدولة الإسرائيلية نفوذ الدول الاستعمارية القديم والحديث لدعم علاقتها مع دول إفريقيا، وهو ما يؤكده قرار السوق الأوروبية المشتركة بأن تكون إسرائيل مقراً لتدريب المبعوثين القادمين من الدول الإفريقية، وسعت الولايات المتحدة لإدخالها في إفريقيا عبر وكالات الأمم المتحدة المتخصصة.

أيضاً بـرز الارتباط الأيديولوجي بـين الصهيونية وحركة الجماعة الإفريقية والزنجية من خلال التعامل بخصوصية مع جماعات إفريقية بعينها؛ تدعيماً لاسـتمرارها في السلطة إن كانت حاكمة، أو توسـيعاً لدورها في نشر حالة عدم الاستقرار السياسي في بعض دول إفريقيا، كما في حالة السودان. ويرى الباحثـون أن هذه الخصوصية تنطلق من عدة أوجه، منها زعم تعرُّض كلٍّ من اليهود والأفارقة لاضطهاد مشـترك؛ فكلاهما ضحايـا للاضطهاد والتميز العنصري، وأن الشـعب الإفريقي عانى من المآسـي مثل ما عانى اليهود، وأن الشعبين اعتُبِرا من

الأجناس المنحطة عبر تاريخ المدنية الغربية.

لقد توحَّدت الروابط الإفريقية الإسـرائيلية وقويت بشكل أعمق في العقدين الأخيرين من القرن العشرين، وهو ما يفسر تعزيز المخطط الإسـرائيلي في إفريقيا على حساب السلامة الإقليميـة لبعض الدول الإفريقية مثل السـودان ونيجيريا من جهة. كمـا عملت على تكريس التفرقـة العنصرية ضد بعض الشعوب الإفريقية من جهة أخرى.

وتخدم العلاقـات أو الوجـود الإسـرائيلي فـي إفريقيا المصالـح الغربية الاقتصادية والسياسـية، بل الإسـتراتيجية الغربية كلها؛ حيث إن أصل وجود دولة إسرائيل بُنِي على أساس حماية المصالح الغربية والدفاع عنها؛ لذا شـكَّل الدعم الغربي أساساً في النشاط الإسرائيلي؛ تحقيقاً لتلك المصالح المتقاطعة والمشـتركة، فأصبح من الطبيعي توجه إسـرائيل إلى إفريقيا لتحل محل الاستعمار الغربي.

كما أن موقع السودان الفريد في القارة الإفريقية لا بد أن يجعله موضع اهتمام الفكر الإسرائيلي الصهيوني الغربي، وأن تشـمَله تلك المخططات التي تهدف إلى تمزيقه أو تحويله إلى دولة إفريقية زنجية، وتنهي ارتباطـه بالدول العربية ،وتقضي على الإسـلام فيه، وتمنع عبورَه إلى الدول الإفريقية المجاورة كما حدث في السابق؛ حيث خوطب (اللورد كرومر) حاكم عام السـودان في العهد البريطاني من قِبَـل (هرتزل) و (حاييم وايزمان) لإقامة وطن قومي لليهود في السودان في عام ١٩٠٣م، وهو ما يعد مؤشراً لهذا الاهتمام منذ القِدَم به وبإفريقيا. ومن هنا ظهر اهتمام إسـرائيل بالجاليات اليهودية ودورها في قيام الوطن القومي واليهود الإشـكناز في شـمال إفريقيا وشرقها، واليهود السـفارديم في الشـمال الإفريقي، ونجـد أن اليهود الفلاشا قد جرى ترحيلهم من إثيوبيا عبر السودان، وقد لعبت الجاليات اليهودية دوراً كبيراً في تنفيذ الأهداف الإسـرائيلية من حيث الدعمُ المـادي منذ قيام المؤتمر الأول في (بازل) عام ١٨٩٧م، ومثلـت مركزاً للإمداد بالمعلومات عن القارة الإفريقية التي تعتبر بعـض مناطقها مناطق اهتمام يهودي: كمنابع النيل في منطقة البحيرات والهضبة الإثيوبية ومجرى نهر النيل.

اتخذت إسـرائيل عـدة آليات للتدخل فـي إفريقيا منها المدخل الأيديولوجي؛ باعتبار مرور الشعبين بظروف الاضطهاد العنصري نفسـها، فأوهمت الأفارقة بأنها تقـوم بحماية كل الشـعوب التي مرت بمثـل تلك الظروف، ثـم مدخل المجتمع المدنـي والتنمية؛ فأشـاعت أنها تقوم بدعـم المجتمع المدني والديمقراطية في إفريقيا، واتخذته مدخلاً للنفاذ داخل نسيج المجتمعات المدنية الإفريقية، بالإضافـة لتحرُّكها في مكافحة الأمراض الوبائية المسـتوطِنة في القارة عبر إقامة مراكز طبية في بعض البلدان الإفريقية.

أيضاً تدخَّلت إسرائيل في إفريقيا عبر اكتساب مصداقية كبيرة لـدى الدول الإفريقية في مجال التعاون العسـكري، أو مـا يُعرَف بالمدخـل الأمني؛ خاصة في مجال الاسـتخبارات والتدريب العسـكري، تمثَّل ذلك في شكل شركات أمنية تتبنَّى تدريب عناصر ومليشـيات غالبها قَبَلي لإشعال الصراع داخل الأقطار الإفريقية؛ لإسـقاط بعـض الأنظمة أو لدعم بعضها، ولإحكام السـيطرة السياسية والاقتصادية والإستراتيجية، كما تقوم بتوسـيع دور حـركات المعارضة في الـدول غير الموالية لإسرائيل؛ لنشـر حالة من عدم الاستقرار السياسي، والتعامل مع الأشخاص أو ذوي النفوذ الذين يُتوقَّع لهم مستقبل سياسي في بلدانهم.

وضعت إسرائيل إستراتيجية مُحْكَمة لمواجهة الدول العربية والإسلامية والحد من المد الإسـلامي في إفريقيا التي يشكل المسلمون نصف سكانها عن طريق الدعاية والإعلام، بتصويرهم غـزاة في أذهان الأفارقة وتجَّاراً للرقيـق، وأقامت تحالفاً مع اليمين المسـيحي لمواجهتهـم بالتعاون مع المنظمات الكنسـية والـوكالات اليهودية، وظهر أثر هذا في السـودان في شـكل ضغوط عالمية بشأن قضيتَي دارفور والجنوب سابقاً.

كما سـاعدت اتفاقية (كامب ديفيد) وإقامة مصر وبعض الدول العربية علاقات مع إسـرائيل وتطبيعها وتبادل السفراء معها، سـاعد ذلك إسـرائيل وشـجعها على أن تقدم نفسها لإفريقيـا، وعلى أن تقيم علاقات مع الأفارقة الذين سـاعدوا العرب سابقاً ودعموهم في حربهم ضدها بقطع العلاقات معها بعد احتلال سيناء، باعتبار أنه ليس هناك مبرر لقطع العلاقات معها بعد اتفاقية (كامب ديفيد).

وبذلك تمكَّنت إسـرائيل من بنـاء علاقات مع دول الجوار السوداني. فتمثلت علاقتها مع إثيوبيا – مثلاً – بمدِّها بخبراء ومستشارين في المجال العسكري والأمني والزراعي، ومساعدتها في بناء السـدود على النيل الأزرق. ثم الوجود الإسرائيلي في جيبوتي في القاعدة الفرنسـية منذ سبعينيات القرن الماضي، والقاعدة الأمريكية التي أنشـئت مؤخراً لمراقبة الدول العربية المطلة على البحر الأحمر. أما في منطقة البحيرات فقد كثفت إسـرائيل وجودها في أوغندا؛ حيـث أصبحت العلاقة بينهما

علاقة إستراتيجية في كل المجالات. كما بَنَت إسرائيل علاقات مع النخب الحاكمة في كينيا ونَفَذَت من خلالهم إلى مواقع صنع القرار. ولإسرائيل وجود مكثف في الكنغو الديمقراطية عبر الوجود الفرنسي.

وبذلك أصبحت إسرائيل تحاصر السودان عبر دول الجوار أو المحيط الإقليمي لجنوب السودان، ثم توَّجت هذا بالدخول إلى الجنوب السوداني قبل الاستفتاء من خلال التجارة والمستشارين، وهو الذي سيزداد في حالة الانفصال عن الشمال ليصبح مهدِّداً للأمن القومي السوداني، وأمن مصر المائي ثم أمنها القومي، ويظهر تهديد الأمن القومي السوداني حالياً في تأليب هذه الدول ضد السودان، وهو ما أدى ببعض هذه الدول لقطع علاقاتها مع السودان.

وسابقاً قامت إثيوبيا وإرتريا بدعم جماعات المعارضة السودانية (التجمع الوطني) عام ١٩٩٥م، وقامت أوغندا بالدعم اللوجستي والعسكري للحركة الشعبية ضد حكومة السودان. وتشكَّل محور (إرتريا، إثيوبيا، أوغندا) ضد السودان بدعم (أمريكي - إسرائيلي) من أجل تنفيذ سياسة الاحتواء الأمريكية لإسقاط حكومة الإنقاذ في السودان، وتوترت العلاقات السودانية التشادية بتأليب (أمريكي - إسرائيلي) وقامت بدعم المعارضة السودانية ممثَّلة في الحركات المسلحة بدارفور.

بقيام التمرد في عام ١٩٨٣م بقيادة (جون قرنق) وفَّرت إسرائيل الخبراء في مجال التدريب العسكري للحركة الشعبية وأمدَّتهم بالسلاح عبر دول الجوار، إضافة للمِنَح الجامعية للعناصر الشعبية، واستمر ذلك حتى توقيع اتفاقية نيفاشا في عام ٢٠٠٥م.

من خلال ما ظهر من الدور الإسرائيلي في القارة الإفريقية عامة وفي السودان خاصة في السابق، فإن قيام الدولة الجديدة في جنوب السودان بعد الاستفتاء سيؤدي إلى استمرار الدور الإسرائيلي؛ تنفيذاً للأهداف الصهيونية والأمريكية، وستقوم بتنفيذ سياسة شد الأطراف لإنهاك المركز ثم القضاء عليه، وهو ما يؤدي إلى تقسيم السودان إلى دويلات كما هو مخطط أمريكياً بعد فشل تحويل السودان إلى دولة إفريقية زنجية مسيحية بقيادة جنوبية بموت (جون قرنق)، وفشل مخطط السودان الجديد، وبذلك تضمن أمريكا الصهيونية تحقيق أهدافها في إيقاف المد الإسلامي إفريقياً، والقضاء على الحكومة الإسلامية في الخرطوم، واستمرار حالة عدم الاستقرار في السودان، والمحافظة على الموارد الطبيعية؛ وخاصة البترول والمعادن دون استغلال حتى يحين قطافها أمريكياً.

مآلات الانفصال على شمال السودان:

سينتج عن الانفصال دولة ضعيفة واهية إدارياً، لا تتفق قاعدتها ولا قيادتها على أهداف ومصالح عامة، وستعاني هذه الدولة من ضعف الموقف الاقتصادي على الرغم من وجود المورد الوحيد - وهو البترول - الذي: إما أن يعبر خطوط أنابيب الشمال كما هو حادث الآن إلى موانئه ثم الأسواق العالمية، وستدفع مقابل ذلك جلَّ عائدها لحكومة الشمال، وإما أن تضطر إلى إنشاء أنابيب لها عبر كينيا إلى الأسواق العالمية، وتشير الدراسات إلى أن التكلفة ستكون عالية جداً تستهلك جزءاً كبيراً من عائد البترول مقارنة بالتصدير لو جرى عبر موانئ السودان الشمالي، إضافة إلى أن عمر الفترة المتبقية لبترول الجنوب قد لا تتعدى عشرة أعوام كما تتناول ذلك الأجهزة الإعلامية.

ولا شك أن هذه المعلومات لا تغيب عن أذهان قادة المنطقة الجنوبية الذين ينادون بالانفصال، والواقع يقول: إن جُلَّ الجنوبيين لا يرغبون في حرب جديدة بعد الحصول على

كلِّ مـــا أرادوه من إعلان تمرُّدهم على حكومة الشـــمال، وقد آن أوان قطـــف الثمار؛ فلا ضـــرورة ولا رغبة في الدخول في حرب جديدة تمزق الممزَّق وتذهب بكل نتائج النضال السابقة، ولكن تبقى السياســـة العالمية وتحكُّمها في مصير من يكون في معيَّتهـــا؛ فعليهم دفع فاتورة باهظة الثمـــن مقابل ما نالوه من دعم في السابق، وسيضطرون إلى دخول حرب مفروضة عليهم استجابة للرغبة الأمريكية الصهيونية التي لن تدعم بأكثر مما هو مطلوب من تنفيذ حرب لا تحســـم الصـــراع، ومن تحقيق الانفصال لإقامة القواعد الأمريكيـــة في الجنوب. وهذا حال الأمريكي في معظم المواقع التي تشهد قيام القواعد العسكرية؛ حيث لا تنمية، ولا نهضة، ولا اهتمام بأهل البلد، بل ســـيطرة وتحقيق للمآرب الأمريكية والصهيونية.

أما بالنســـبة للشـــمال الـــذي لا يرغب فـــي دخول حرب جديدة بعد التنازل الكبير في اتفاقية الســـلام (نيفاشـــا) ثمناً لإيقـــاف الحرب، فليس الحال هنا بأحســـن منه في الجنوب؛ حيث سيضطر إلى الدفاع عن نفسه بعد تحرش جيش الحركة الشـــعبية في بؤر الصراع التي تولدت عن (نيفاشا)، متمثلة في عدم ترســـيم الحدود أو الاتفاق عليـــه، والصراع على مناطق (أبيي)، وجنوب كردفان وجنوب النيل الأزرق من خلال المشورة الشـــعبية التي جاءت في الاتفاقية، ولم يتـــم الاتفاق أو وضع التفاصيـــل التي تزيل غموض مفهومها إلى غير ذلك من نقاط الخـــلاف والنزاع؛ وبناءً عليه ســـتضطر حكومة الشـــمال إلى الدفاع عن سيادتها ومقدَّراتها ضد العدوان الجديد، ولكن في ظروف اقتصادية متردية؛ لعدم وجود تهيئة لحرب جديدة منذ إيقاف إطلاق النار عام ٢٠٠٣م.

وبذلك ستتشـــب الحرب كما هو مخطط لها؛ لا لتحســـم الصـــراع أو تحقق أهداف أيٍّ من الطرفـــين المتنازعين، ولكن لإيجاد (فوضى خلاَّقة)، وخلق حالة عدم الاســـتقرار وإيقاف التنميـــة، وتحقيق الهـــدف الأمريكي المعلـــن أمريكياً المخفي صهيونياً، وتكتمـــل بذلك الدائرة المحُرِقـــة ليبدأ عندها دعم الحركات المســـلحة في دارفور، وتزداد حدة الصراع، لتستنزف مزيـــداً من موارد الشـــمال، وتزداد حدَّة الجذب والشـــد من الأطـــراف. وقد تتفاقم حدة الصراع في مناطق جنوب كردفان وجنـــوب النيل الأزرق كما هـــو مخطط لها لاكتمـــال الدائرة الجهنمية. وستبقى مشكلة دارفور تراوح مكانها لتأجيج الصراع بدعم الحركات المســـلحة كما تشـــير الأخبار حالياً، ويؤدي كل ذلك إلى عدم الاســـتقرار وتوقف التنميـــة، وعدم القدرة على التصدي للعدوان؛ وذلك على خلفية عدم إنشـــاء قوات مسلحة برؤيـــة جديدة وأهداف مقنِعـــة وعقيدة قتالية بنَّاءة؛ بســـبب ضعف المورد المادي الاقتصادي، وبسبب طول المواجهة المطلوب حمايتها؛ إذ ســـتمثل حدود الدولة الجديد أطول حدود مع أيٍّ من الجارات القديمات، كما ســـتطول خطوط الإمداد وستزداد المعارضة الداخلية شـــططاً على شـــططها مما يصعِّب الوحدة والتماسك الداخلي، وهو مطلوب جداً في هذه الحالة.

مآلات الانفصال على الوضع الإقليمي وتأثيره على السودان:

ستســـعى الدولة الجديـــدة بدعم (أوروبـــي – أمريكي – صهيوني) لكسب ودِّ البلاد والأقطار الإفريقية المجاورة للسودان للتأثير على الوضع في السودان، وذلك كالتالي:

أولاً: توثيـــق العلاقات مع تشـــاد وإفريقيا الوســـطى من خلال فرنسا وبدعم منها؛ لزيادة عزلة السودان واستمرار دعم الحركات المسلحة في دارفور التي تأثَّر نشاطها كثيراً بتحسين العلاقات مع تشـــاد وإفريقيا الوســـطى، وإعادة العلاقات إلى مربع الصدام الذي توقف في الآونة الأخيرة مع تشاد.

ثانيـــاً: تجميع حركات دارفور في تشـــاد وأراضي الدولة الجديدة لتوســـيع جبهـــة القتال بالنســـبة للقوات المســـلحة السودانية، وخلق منطقة عازلة في جنوب دارفور مما يحقق لهم السيطرة على المناطق المتنازَع عليها في حفرة النحاس وغيرها، ومناطق المعادن الهامة كـ (اليورانيوم)، والبترول في دارفور.

ثالثـــاً: تقوية العلاقات الأزلية مـــع أوغندا وكينيا والكنغو الديمقراطيـــة لتأمين الحدود الجنوبيـــة وإيجاد عمق دفاعي، وفتح الاختناق وإيجاد منفذ إلى البحر عبر كينيا للاستغناء عن خط أنابيب البترول عبر شمال السودان، والتخلص من بطاقة الضغوط السودانية عبر الحاجة لميناء بورتسودان.

رابعـــاً: التأثيـــر على العلاقـــات مع إثيوبيـــا على خلفية العلاقات القديمـــة بينها وبين الحركة الشـــعبية؛ خاصة عند توقُّف ضخ البتـــرول وانتفاء المصالح الاقتصادية بين شـــمال السودان وإثيوبيا التي يمثل البترول عصبها وتشير الأخبار إلى بدء إنشاء خط حديدي بين إثيوبيا وجنوب السودان، وقد يجدد ذلك أطماع الإثيوبيين في الأراضي الزراعية السودانية المجاورة لها (مناطق الفشقة) التي تبخر أملها فيها لقوة العلاقات بينهما مؤخراً.

خامســـاً: العلاقات (الإرترية – الإســـرائيلية) قديمة جداً

ويمكن تجديدها؛ وخاصة أن العلاقات بين إرتريا وحكومة الشمال متذبذبة وغير ثابتة على ضوء عداء القيادة الإرترية للمد الإسلامي وتوجُّه الحكومة في السودان، وهو ما سيصُب في خانة دعم الدولة الجديدة في الجنوب ويزيد الخناق والضغط والعزلة الدولية على الشمال.

سادساً: من المعلوم تاريخياً دعم حكومة القذافي لمتمردي الجنوب منذ القِدَم، وكان لذلك أثره في نشاطها بفاعلية. إضافة إلى توجُّه العقيد القذافي بالانتماء إفريقياً والبعد عن المنطقة العربية التي فشل في زعامتها، وتنازُل القذافي في الآونة الأخيرة واستجابتِه للضغط الأمريكي بعد أن كان يتزعم قِطاع المواجهة للسياسات الأمريكية، كل ذلك قد يدعم الدولة الجديدة في ظل دعم القذافي للحركات المسلحة في دارفور كسباً للعنصر الحاكم في تشاد وطمعه في إقليم أوزو التشادي.

سابعاً: من المعلوم والمؤسف إستراتيجياً أن السياسات المصرية تُبْنى على المصلحة الآنية (بعد اتفاقية كامب ديفيد)، ويتمثل ذلك في الدعم الأمريكي لمصر وخضوعها للرؤية الأمريكية الخاضعة بدورها للمصالح الإسرائيلية، إضافة إلى تهديد مصر والتلويح لها بتعديل اتفاقية مياه النيل الذي يمثل عصب حياتها، وإضافة إلى توجُّسها الإيديولوجي من توجُّه النظام في الخرطوم. كل ذلك قد يصب في مصلحة الدولة الجديدة في ظل العلاقات المصرية المتنامية مع أوغندا وخَطْبِ ودِّ الجنوبيين بتجاوز الشمال.

ثامناً: بقية دول الإقليم في المنطقة الإفريقية: من المؤكد أنها ستتفق مع الدولة الجديدة لاشتراك الرؤى واستجابة للإعلام الغربي والصهيوني الذي أظهر السودان بمظهر الدولة الأصولية المتطرفة التي تسعى لغرض هيمنتها على الأفارقة والقضاء عليهم ونشر الإسلام الذي يرفضونه.

تاسعاً: أما الدول العربية والإسلامية في المنطقة: فقد تستمر في سياسات المهادنة للرغبات الأمريكية في المنطقة (عدا بعضها)، وقد تُمكِّن من تمرير كل السياسات الغربية عبر المنظمات الدولية، ويتحقق بذلك سحق السودان في نهاية الصراع بعد تدويله وتقطيعه أشلاءً وتمزيقه شر ممزق، لا قدَّر الله.

المخرَج من الأزمة:

أخيراً: في مواجهة ذلك لا بد من إيجاد الحلول لتفادي كل النتائج القاتمة الناتجة عن خلق دولة في جنوب السودان، ويظهر من القراءة الأولية للأمر أن الحل الناجح لمشاكل السودان الأزلية كالتالي:

١ - قبل كل شيء لا بد لأهل الشمال السوداني المسلم من العودة إلى الله عودة حقيقة، وإعداد ما استطاعوا من قوة والتوكل على الله؛ لإيجاد المخرج من هذا الموقف المعقَّد القاتم، مصداقاً لقوله - تعالى -: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢ - ٣].

٢ - توحيد الجبهة الداخلية وتفعيلها، وتغيير الواقع السوداني الحزبي في السودان، وظهور قيادات حزبية تؤمن بالمصلحة العامة للوطن قبل الحزب والجبهة.

٣ - البناء الداخلي للإنسان السوداني وتفعيل برامج التربية الوطنية في مسعى لإيجاد قيادات حقيقية تؤمن بوطنها ومصالحه، ثم تعمل على تأمينه وتنميته وتطويره.

٤ - الاهتمام بالبِنية التحتية للدولة وتطويرها، والتوزيع العادل للثروة والسلطة وتنمية أقاليم السودان المختلفة وَفْق المصلحة العامة.

٥ - إيجاد سياسة خارجية متوازنة وتحرُّك فاعل في الارتباط بالدول ذات المصالح المشتركة في المجال الاقتصادي أو ذات الأهداف الإستراتيجية المتفق عليها.

٦ - التفكير الجاد في عدم مواجهة التخطيط الغربي الصهيوني بردود أفعال آنية؛ بل الانتقال إلى مرحلة إستراتيجيات مسبقة، أو تغير إستراتيجيات الصراع في المنطقة، والاستفادة من المعطيات الواقعية لحال الإقليم وأحوال الدولة الجديدة ومكوناتها وتركيبتها السكانية وعلاقتها الداخلية والخارجية وقدراتها على بناء وتسيير دفة الحكم، أو إدارة الصراع المسلح في ظل عدم قناعة الدولة الجديدة بذلك الصراع الذي تحرِّكه عناصر أجنبية وقلة لا تستشعر مصالحة المواطن الجنوبي، وضرورة العمل على كسب ودِّ المواطن الجنوبي العادي أو القيادي الذي يؤمن بمصالح الجنوب ومُواطِنه قبل مصلحته أو مصلحة القوى الدولية التي تحرِّك الصراع وتحدد اتجاهات السياسة في العالم. وهؤلاء يمثِّلون أكثر من ثلثَي مواطني الإقليم الجنوبي، ولهم من الاستعدادات المادية والمعنوية ما يمكنهم من قيادة المنطقة وتوجيه دفة الصراع فيها، وهذا يتطلب الجرأة والثقة بالنفس، والخروج من التقليدية في إدارة الصراع، ولكن ليس على طريقة (نيفاشا).

مركز سطام للعسل

ثقة العميل هي رأس مالنا منذ سنوات

تختلف فوائد العسل حسب فوائد النباتات المحيطة بالنحل..

استفد من هذه الخاصية وابدأ باستعادة النظام الطبيعي لجسمك إلى سابق عهده

١- **عسل الربو:** يقوي مناعة الصدر ضد الحساسية والسعال والبلغم وضيق التنفس.

٢- **عسل القولون العصبي:** يفيد في المشاكل الباطنية والغازات والإمساك والأرق والعصبية وعسر الهضم.

٣- **عسل الصداع:** يفيد في علاج الصداع المزمن والشقيقة.

٤- **عسل المعدة:** للقرحة والحموضة وجرثومة المعدة وسوء الهضم.

٥- **عسل البروستاتا:** لالتهاب البروستاتا وأعراضه كمشاكل البول وضعف الحيوانات المنوية وألم أسفل الظهر والضعف الجنسي.

٦- **عسل الكبد:** يساعد في تنظيم أنزيمات الكبد ويقوي مناعة الكبد ضد الفيروسات.

٧- **عسل الجيوب الأنفية:** لالتهاب الجيوب الأنفية والرشح المزمن.

٨- **عسل التسمين:** لفتح الشهية وزيادة الوزن.

٩- **عسل الروماتيزم وآلام المفاصل والركب.**

١٠- **عسل لتنشيط الذاكرة.**

١١- **عسل الزلوع الخاص بكبار السن.**

جميع أنواع العسل في هذا الإعلان مضمونة مخبرياً وخالية من الخلطات المجهولة.

ملاحظة: ليس لدينا موزعون ومنتجاتنا متوفرة في مركزنا

الرياض - مخرج ١٥ - هاتف: ٤٩٣١٧٣٧

جوال: ٠٥٠٦٢٤٥٩٨٤

إمكانية الإرسال لمناطق المملكة - رقم الحساب بمصرف الراجحي: ٤٤٩٦٠٨٠١٠٠٦٧٦٨٣

Samer 055 34 99660

انفصال الجنوب...
عودة الشيران الملونة

أحمد سعد
a.saad.f@hotmail.com

في أول أيام الاستفتاء، بثت قناة الجزيرة تقريراً يصور ردود الأفعال في الشارع السوداني، وكان لافتاً للانتباه التناقض الحادُّ في المواقف؛ فقد ظهر أتباع بعض الأحزاب وهم «يرقصون» و «يهتفون» فرحاً بالخلاص من «الصداع الجنوبي»، بينما ظهر فريق آخر وهم يلفُّون منزل إسماعيل الأزهري رئيس الوزراء السوداني الأسبق بالقماش الأسود حِداداً على انفصال الجنوب.

إنها مشكلة خطيرة؛ فما بين «التعزية» و «التهنئة» بون شاسع؛ فكيف استطاع السودانيون تجاوز هذه المسافة الهائلة ليظهر هذا التناقض الصارخ في مواقفهم تجاه أزمة قومية كبرى؟

إن بناء وتكوين ردود الأفعال وتصورات المعالجة في الأزمات الكبرى، يكون مرتكزاً أساسياً على توحُّد الرؤى حول ماهية الأزمة وطبيعتها. أما أن يصل الخلاف إلى درجة التباين في تشخيص الحدث فيَعدُّه بعضهم شفاءً وبعضهم سقماً، فهذا يعني أنه لدينا أزمة ربما تكون أخطر من انفصال الجنوب؛ هذه الأزمة هي: هل توجد لدى السودانيين مصلحة قومية واحدة؟

لنا أن نتخيل – استطراداً مع هذه الظاهرة – أن تخرج تظاهرات في الخرطوم تعبِّر عن فرحها بالخلاص من «صداع» اسمه «دارفور»، أو أن يتظاهر مصريون ترحيباً بتأسيس دولة للأقباط خلاصاً من مشكلاتهم، أو أن يُعرِب سكان الجزائر العاصمة عن بهجتهم بانفصال الأمازيغ في دولة خاصة بهم...

إن الانقسام يحدث في النفوس قبل أن يظهر في الواقع، ولعل في ذلك تفسيراً للتساؤلات التي تستنكر ضعف الجهد المبذول على الجانب السوداني منذ عام ٢٠٠٥م للحيلولة دون بلوغ مشكلة الجنوب إلى هذه المرحلة. ليست هناك مصلحة قومية واحدة يتمسك بها كل السودانيين؛ لذلك نجد بعض الكيانات والأحزاب تنظر إلى الحدث على أنه فرصة ذهبية للقفز على النظام وإسقاطه بثورة شعبية بغضِّ النظر عما سيكون بعد ذلك، وعمَّن سيحكم السودان بعد الثورة، وهكذا انسحبت أحزاب المعارضة في دارفور من مباحثات الدوحة وأعلن الشيخ حسن الترابي دعوتَه إلى الثورة الشعبية.

إن أوضاع السودان قد تتجه نحو الاحتمالات الأسوأ دون أن تبدو هناك بارقة أمل – سواء على المستوى العربي أو المحلي – إذا لم يُستدرَك ذلك. وهذه الاحتمالات مثل: الفوضى السياسية، الحرب الأهلية (الأفغنة) اختفاء البشير لأي سبب خارجي أو داخلي، انهيار الدولة (الصومَلة)، تفكُّك المناطق بعيداً عن المركز وتراجع سيطرة الحكومة (العرقنة)... إلخ.

أزمة الوعي العربي:

يبدو الوعي العربي دوماً متأخراً عن الحدث بخطوة أو خطوتين، ويمكن فهم ذلك من خلال تأمُّل الكتابات والتصورات التي طُرِحت حول الأزمة السودانية؛ إذ إن أغلبها يعالج قضايا لم يعد بالإمكان تداركها، ويطرح حلولاً تتطلب تغيراً جذرياً في حالة الأنظمة العربية، أو أن يتحول الرؤساء العرب إلى «مجددين» لهذه الأمة.

أهم علامات «تأخر الوعي» أن يلتصق بـ «لحظة انفجار الحدث»، حيث تُعالَج قضايا الأمة الحيوية وكأنَّ عقلاءها يديرون قناة فضائية لا تهتم إلا بالساخن من الأحداث، ولا تُعالج إلا المتفجر من الأزمات؛ بينما الوعي الحقيقي يختلف عن «الوعي الإعلامي»؛ حيث تنبغي المبادرة إلى معالجة الأزمات في مرحلة مبكرة قبل أن تتحول إلى عناوين رئيسة في وسائل الإعلام.

من العوارض السلبية أيضاً، تلك الإسقاطات التي يُصِرُّ كثيرون على استخدامها لمعالجة قضايا الأمة غافلين عن تأثيراتها السلبية على الرأي العام، مثل قصة «الثيران الملونة» التي تظهر في الأزمات الكبرى مثل انقسامات الدول واحتلالها، وهي قصة تدور حول ثلاثة ثيران «أبيض، أحمر، أسود» على خلاف في تحديد الألوان وترتيبها، يتحالف الثلاثة مع أسد منهَك القوى لكنه واسع الحيلة، يستميل أحدَهم إلى صفه مستعيناً به في التآمر على رفيقيه حتى ينتهي منهما ثم يستدير إليه، فيصيح الثور الأخير صيحته الشهيرة: «أُكلْت يوم أُكِل الثور الأبيض».

وهكذا يتبدد الوعي بهذا الإسقاط المأساوي والتحليل الساذج للأحداث؛ فلم نرَ حاكماً يُمسي حكيماً فيصيح وهو في لحظات الإفاقة الأخيرة ملخِّصاً تجربته للآخرين، ولا تكمن المعضلة أساساً في جهالة الحاكم أو المحكوم بأبعاد المؤامرة، ولا القوى الكبرى تتقاعس قوَّتها عن الفتك بثلاثة ثيران في وقت واحد.

بعيداً عن «قصة الثيران الملونة»؛ فإن تصوُّر إستراتيجية صائبة للتعامل مع الأزمة السودانية ربما يكمن في معرفة الإمكانات والقدرات المتاح استخدامُها في معالجة هذه الأزمة، ولا أعتقد أن حال الأمة يخرج عن هذه الثلاثية:

في المرحلة الحالية قد لا نمتلك قدرة على إحداث تغيير.

في المرحلة التالية نمتلك قدرة ضعيفة على التغيير.

في المرحلة الثالثة يمكن أن نمتلك قدرة كبيرة على التغيير.

ينبثق عن هذه الرؤية عدة تطبيقات عملية مهمة، منها: أن الحلول الكبيرة التي يجري طرحها وتستغرق وقتاً في تبلورها وبلوغها حالة التأثير في الأحداث - مثل تأسيس كيانات سياسية جديدة - ينبغي أن تستهدف التعامل مع تطورات المستقبل وليس معطيات الحاضر؛ فهي عندما تبلغ مستوى العنفوان سيكون الحاضر قد تحول إلى ماضٍ وأصبح المستقبل واقعاً، ولا يصلح أن تعالج الأزمات الحالية بمعطيات تجاوزتها الأحداث.

ومنها أن الجهود والطاقات يجب أن تتركز على تجنُّب مواطن الخسارة المستقبلية والبدء المبكر في إعداد إستراتيجيات لتجاوزها أو على الأقل التقليل من تداعياتها؛ فالمعالجات الآنية غالباً ما تعجز عن احتواء الأزمات المتفجرة، وفي الحالة السودانية تواجه الدولة منعطفات خطيرة في السنوات المقبلة تتمثل في الاحتمالات الأسوأ التي أشرتُ إليها، وربما يتوجب على القوى السياسية المخلصة في السودان أن تبدأ التفكير من الآن في مرحلة ما بعد البشير أو ما بعد حكم الجبهة الإسلامية.

الدور الإسلامي... تقدم الخطاب وتأخر الفعل:

على الرغم من خطورة الحدث وعِظَم الخطب فإن الحضور الإسلامي في الأزمة السودانية يبدو خافتاً للغاية؛ فباستثناء بعض البيانات وردود الفعل الكلامية فإن قضية تقسيم السودان لا تحتل مكانها اللائق في الأجندة الإسلامية العربية.

قد يفسر بعضهم ذلك بأن «الجدول» مزدحم ولا يكاد يوجد مكان شاغر لأزمات جديدة، وبالكاد تُعطَى كل أزمة قليلاً من الاهتمام بحسب الأولويات؛ فلا مجال للبحث عن معالجات مكتملة أو اهتمامات طويلة الأمد، كما أن الانكفاء الإسلامي على الذات المحلية أصبح سمة لازمة لأغلب التيارات الإسلامية في العقد الأخير، وتراجعت المساحة المتاحة لـ «الآخر الإسلامي» إلى حدِّها الأدنى الذي يقتصر أحياناً على واجب التعزية أو التهنئة في المناسبات.

لكن السبب الأهم في تأخُّر الفعل الإسلامي هو افتقاد الإسلاميين لآليات التحريك السياسي التي تمكِّنهم من معالجة القضايا الطارئة بأسلوب مؤثِّر وفعال، وأهم هذه الآليات:

أولاً: الزعامات الجماهيرية: يفتقد الإسلاميون في العقود الأخيرة إلى رموز علمية أو سياسية أو فكرية تحظى بقَبول جماهيري يمكِّنها من توجيه الرأي العام بمجرد الإفتاء أو إبداء الرأي، وأغلب الزعامات ينحصر تأثيرها في نطاق المناصرين والمريدين من التيار نفسه؛ فلا يتعدى إلى

غيرهم من التيارات الإسلامية فضلاً عن تمدُّده إلى الدائرة الشعبية الواسعة.

ثانياً: وسائل الإعلام المؤثرة: لا توجد حتى الآن وسيلة إعلام إسلامية – انتماءً وليس تخصصاً – لديها القدرة على صياغة الرأي العام العربي إلى مستوى التحريك السياسي للنخبة أو للجماهير، وحتى بعض الوسائل التي بلغت مستوى مقبولاً من الشعبية ليست لديها الإرادة أو القدرة على ممارسة هذا التحريك إلا في القضايا قليلة الأهمية.

ثالثاً: المبادرات: في بعض الأحيان يمكن للإسلاميين ممارسة دور فعال – على الأقل جماهيرياً – عن طريق القيام بمبادرات سياسية في اتجاه الأزمات وأطرافها الأساسيين، مثل: تشكيل لجان للوساطة أو المتابعة، أو إقامة المؤتمرات، أو حتى عرائض المطالبات التي يُدعى الجمهور للتوقيع عليها، مثل هذه الأساليب تُحدث حَراكاً سياسياً، ولكن المشكلة أن حالة «الاستغراق المحلية» تُعرقل أي جهود مؤثرة في هذا السياق.

والحال هكذا فإن أزمة مثل «انفصال الجنوب السوداني» لا تجد تجاوباً إسلامياً مناسباً؛ لأن الإسلاميين يفتقدون إلى آليات التحريك السياسي التي يمكنها التأثير في الحدث، وعوضاً عن ذلك يتمدد الخطاب الإسلامي محاولاً تعويض تراجع الفعل، وحتى في هذا المجال تتفوق جهات أخرى على الإسلاميين في تغطية الحدث ومتابعته، ويكون على الجماهير العربية أن تُلقي بزمامها إلى وسائل إعلام مؤثرة لها توجهاتها الخاصة التي تنطلق منها.

السودان... قراءة جديدة:

يحتاج السودان إلى إعادة قراءته من جديد على كافة الأصعدة (السياسية والاقتصادية والدينية والثقافية)، وهذه مهمة مراكز الأبحاث والدراسات الإسلامية والعربية، يجب تكوين مجموعات وفِرَق بحثية تضطلع بهذه المهمة لتقدم السودان في صياغة جديدة:

• من حيث إمكاناتُه الاقتصادية، وما تحمله من فرص مغرية للمستثمرين يجري عرضها وتوفير قواعد بيانات يستطيع هؤلاء أن يتعرفوا من خلالها على مجالات الاستثمار الواعدة؛ فإن تهيئة المناخ للاستثمار وجذب رؤوس الأموال من شأنه أن يُحدث نوعاً من التوازن الداخلي حفاظاً على المنافع الاقتصادية.

• ومن حيث واقعُه الديني: فإن ما يُجهَل من حال المسلمين في السودان أكثر مما يُعلَم. وأبسط وسائل تحفيز الرأي العام على الاهتمام بقضية مَّا، هو إيجاد القواسم المشتركة مع هذه القضية وتعميقها. والإطلاع على الواقع الديني في السودان بجوانبه الإيجابية والسلبية من شأنه أن يُحدث تطوراً في التعاطف العربي مع قضايا الشعب السوداني وأزماته ويفسح المجال أمام المنظمات الدعوية والخيرية للمارسة دور أكبر في هذا المجتمع.

• ومن حيث واقعُه السياسي: من خلال كشف الجانب التآمري على السودان من قوى دولية تمتلك قدرات استخباراتية على اختراق هذا البلد والتلاعب بمكوناته السياسية والاجتماعية، من خلال أبحاث معمقة وتوثيق دقيق ينطلق من أرض الواقع وليس نقلاً عن الصحف الأجنبية والأبحاث المترجمة.

إن نظرية «الفوضى الخلاَّقة» وتفكيك العالم العربي لم تَمُت بذهاب إدارة جورج بوش؛ فلا يزال مشروع «الشرق الأوسط الجديد» مقبولاً من إدارة باراك أوباما، وتوجد شواهد كثيرة على أن المشروع قيد التنفيذ منذ وقت طويل، منها إصرار الصهاينة على إقرار «يهودية» دولتهم في سياق تفكيك دول المنطقة إلى مكوناتها الدينية والعرقية.

يذكر الباحث مايكل شوسودفيسكي في موقع غلوبال ريسرش أن «خريطة الشرق الأوسط الجديد – على الرغم من أنها ليست رسمية – قد جرى استخدامها من قِبَل أكاديمية الحرب الأمريكية، وطُبِعت في مجلة القوات المسلحة الأمريكية (يونيو ٢٠٠٦م)، في هذه الخريطة جرى تمزيق الدول القومية الحالية وإعادة رسم حدودها الدولية بشكل عرقي أو مذهبي... واستُخدِمت هذه الخريطة في برنامج تدريب كبار الضباط في كلية الدفاع في حلف شمال الأطلسي»[1].

لا مبالغة في قولنا: إن انفصال الجنوب السوداني أخطر في دلالاته وتداعياته من الحرب الصهيونية على غزة عام ٢٠٠٩م، ولكن شتان بين تغطية وسائل الإعلام العربية في الحالتين؛ فقد جاءت تغطية الانفصال بحيادية تعرض الأحداث وكأنها صراع بين طرفين يقع كليهما خارج نطاق التحيُّز العربي، بينما الانفصال – حقيقة – خطوة كارثية ستنشأ في إثرها مضاعفات خطيرة، لعل أقربَها تكوُّن حزام من الدول التي يحكمها النصارى شرق وجنوب وغرب السودان لتَحُول بينها وبين الامتداد الإسلامي في وسط القارة، وهي دول: إريتريا (أغلبية مسلمة تخضع لحكم نصراني)، وإثيوبيا، وجنوب السودان، وإفريقيا الوسطى.

فهل يتدارك العرب خسارتهم في السودان، أم يكتفون بمرثية الثيران الملونة؟

(١) مايكل شوسودوفيسكي، تقرير: تصوير المسلمين كشياطين والمعركة من أجل النفط، موقع غلوبال ريسرش: ٢٠٠٧/١/٧م.

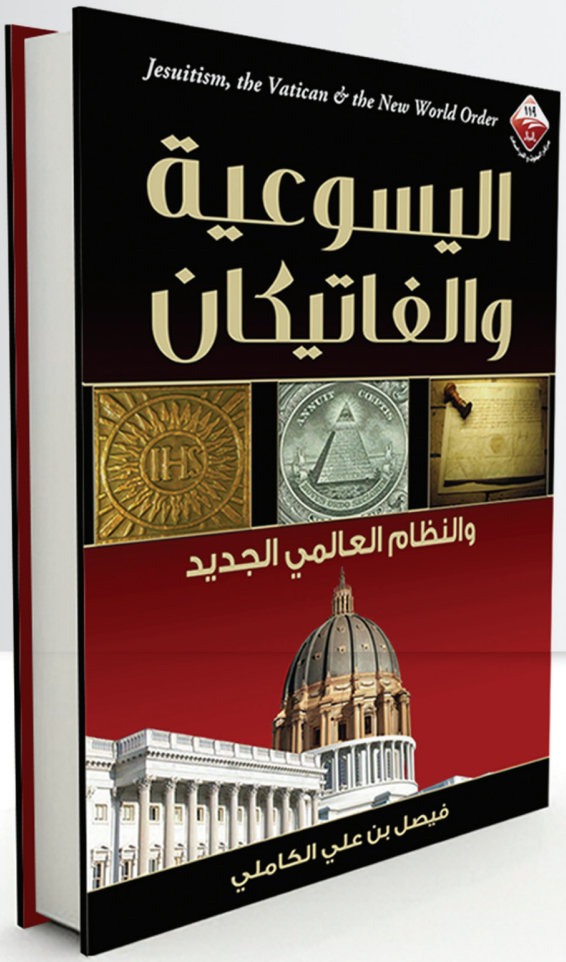

اليسوعية والفاتيكان

و النظام العالمي الجديد.

جديدنا

اكتشف السر بعد خمسمائة عام من نذور الكتمان !

- **ما أخطرُ الجماعات السرية على الإطلاق ؟ ولم لا نعلم عنها شيئاً ؟**
- **ماذا تعرف عن ((أصحاب الأيكة)) الجدد ؟**
- **هل الماسونية حقاً صناعة يهودية ؟ فمن تخدم إذن ؟**
- **لم لا تتغير سياسة أمريكا بتغير الزعماء ؟ ومن هو الموجه الحقيقي لهذه السياسة؟**
- **ما حقيقة التحالف البابوي ـ الصهيوني ؟ وماذا يراد للقدس ؟**

وثائق سرية وحقائق مزعجة تقرؤها لأول مرة بالعربية في كتاب

((اليسوعية والفاتيكان والنظام العالمي الجديد))!

Badr: 0508948947

مجلة البيان

الريـــاض: ـ هـــاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحـــويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فـــاكس: ٤٥٣٢١٢١
التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ - ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ - ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ - ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ - ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥
جـــدة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكـــة والمدينـــة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقـــة الجنوبيـــة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨
المنطقـــة الشرقيـــة: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقـــة القصيـــم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

مستقبل السودان بعد الانفصال

أمير سعيد
amirsaid@gawab.com

لم يكن من بد لأمتيسي ملك أوغندا سوى الطلب من الحكومة المصرية تقديم دعم عسكري لفرض سلطته الموالية للخديوي إسماعيل بمصر، والقبول بالدخول في السلطان المصري الممتد حتى بحيرة فيكتوريا.

ولم تمضِ أعوام كثيرة على ذلك العام (١٨٧٦م) حتى أعلنت القاهرة عن حدودها الجديدة المهيمنة على تلك البلاد من مضيق باب المندب جنوباً إلى ساحل المتوسط شمالاً، ومن أوغندا في الغرب حتى الحدود الغربية للدولة المصرية.

منذ ذلك الحين – ولم تكن «إسرائيل» قد زُرِعت بَعْد – وحتى عقود ثلاثة تلته رنا الغرب وزعماء الحركة الصهيونية بأبصارهم نحو أوغندا كدولة يبدأ من عندها تفكيك المنطقة، وخنق الدول الإسلامية. لم تكن إستراتيجية «شد الأطراف» قد عُرِفَت بهذا المصطلح بَعْد، لكنها بدأت من ذلك الحين. صحيح أن فلسطين قد اختيرت لشقِّ المنطقة العربية، لكن أوغندا لم تكن غائبة عن الحسابات؛ ففي عام ١٩٩٧م كانت المعارك تدار ضد السودان من قِبَل جيوشِ ثلاث دول مجاورة أسهمت بشكل فعال في تقوية نزعة الانفصال ودعمها عسكرياً، حينها كانت غرفة العمليات في عنتيبي الأوغندية والقيادة لعميد «صهيوني».

لم يبدأ التخطيط لتفكيك السودان مع اتفاق نيفاشا، ولا مع بداية التمرد الجنوبي الذي انطلق قبل الاستقلال بعام (أي: ١٩٥٥م)، وهو الذي صار دولة منذ أن أعلنت مفوضية الاستفتاء على «تقرير المصير» ميلادَ دولة الجنوب رسمياً في نهاية شهر يناير الماضي، وعليه فإن إعادة النظر في ما آلت إليه الأمور ومحاولة إرجاع الأمور إلى مربعها الأول لا بد أن يمر بخريطة طريق معاكسة لما استهدف السودانَ خلال قرن ونصف من الزمان، بل إن التفكير في تماسك السودان «الشمالي» الحالي لا بد أن يأخذ بحسبانه قائمة الأسباب الطويلة التي تكاثرت حتى رسمت حدود الانفصال المتعرجة على امتداد عرض السودان، وهي نفسها التي يمكنها أن تمهد الطريق لرسم عدة خطوط جديدة في الشرق والغرب «الشمالي».

وتلك الأسباب هي التي إذا ما عُكِس خط الأحداث من التفكيك والعزل إلى الوحدة والاستقلال، لأمكنها أن تُخرِج السودان «الشمالي» الحالي من نفق مظلم يبدو أنه مقبل عليه في ظل غياب مقومات عدة لا بد من وجودها وتناسقها لصناعة التماسك الوحدوي المطلوب على الأقل في تلك المرحلة الدقيقة التي يمر بها السودان الحالي.

وثمة حزمة من الاستحقاقات المقبلة بعد إعلان الانفصال ترسم مخططات المستقبل السوداني ومحيطها الإقليمي، وتأخذه نحو مزيد من التأزم أو الانفراج المؤقَّت، وتعتمد على عوامل داخلية وأخرى خارجية ستؤثر بلا شك في تشكيل سودان ما بعد الانفصال بشقيه (الشمالي والجنوبي)، لكن علينا أن نصف باختصار الحالة السودانية بعد إعلان نتيجة الاستفتاء.

السودان الشمالي:

ثمة عدة أزمات بانتظاره:

أُوَّلها: تبدو منطقيـــة على خلفية العلاقة بينه وبين «الجار الســـوداني الجنوبي»، الـــذي لا يُتوَقع أن يُحجِـــم عن التدخل المدروس في الشمال، الذي قد يأخذ أطواراً مختلفة.

وثانيها: ملف دارفور المرشح للتفاقم أو الحل؛ بعد أن أنعش الانفصال آمال بعض القوى المتمردة في دارفور في تكرار الذي حدث نفسه، وكذلك في الشرق السوداني أيضاً ملفاً ثالثاً.

وإن الحكومة الســـودانية قد أخفقت علـــى ما يبدو في نقل تأييد الانفصال في الشـــمال إلى خارج حيِّز النخبة التي لا يظهر أنها هي الأخرى متحمســـة لخطـــوة الانفصال، وهو ما يُتوقَّع أن يلقـــي بظلاله على مســـتقبل النظام الحاكـــم واحتمالات تزايد الضغوط عليه لإطاحته من قِبَل القوى الشـــمالية المعارضة على أرضية «الإخفاق في تحقيق وحدة البلاد وفقدان الشرعية الثورية الإنقاذية التي اكتســـبها من مناهضة وحـــرب متمردي الجنوب الســـابقين، فضلاً عن التشكيك في شـــرعية الانتخابات»، وهذا ملف رابع.

والخامس يتعلـــق بقضيتَي تطبيق الشـــريعة وردود أفعال الجهات الرافضة لها في الشمال.

السودان الجنوبي:

من جانـــب آخر يعاني البلد الوليـــد من تداعيات ما بعد فرحـــة الانفصال، التي تعززهـــا قلة الخبرات الإدارية، والحاجة الملحَّة للشـــمال فـــي بعض الملفات الاقتصادية؛ لا سيما في قطاع النفط ذاته، الذي يُنظَر إليـــه على أنه المورد الأساســـي للدولة الجديدة؛ حيث لم يزل الجنوب يعتمد على الشـــمال في تصدير ٨٠ ٪ من النفط السوداني الموجود بالجنوب، وعلى الرغم من هذه الثروة الهائلة قياساً إلى عدد سكان الجنوب الذي يقدر بنحو ثمانيـــة ملايين جنوبي، فإن البلد قد يعاني من أزمة اقتصادية فور ميلاده في وقت لا يتوفر لرعاة الانفصال الغربيـــين النَّفَس الطويل لاســـتمرار تدفق المساعدات إليه إن بدأت؛ إذ يفتقر الجنوب الذي عانى عقوداً من الحرب بشـــكل كبير إلى البِنية التحتية بما في ذلك الطرق والمدارس والمستشفيات. كما أن هناك «القنبلة الإســـلامية الموقوتة» المتمثلة بالأقلية المسلمة في الجنـوب، التي تتـراوح نســـبتها ما بين ٢٠ – ٣٥ ٪ بحسب معطيات غير رســـمية أوردتها دراسة لجماعة الإخوان في الســـودان، وهي التي يبدو أن التشـــكيلة الحكوميـــة الجنوبية المتوقَّعة والمناصب الرئيســـة في الحكم لـــم تأخذ ثقلها بعين الاعتبار، وهو ما قد يفجر أزمة مســـتقبلية، تُذكِيها مشاعر ســـلبية جنوبية تجاه الشمال بسبب تهميش الجنوبيين في الـدولة السـودانية الموحدة السـابقة. ولا يمكن إغفال تأثير الصراع القَبَلي المتوقع في الجنوب ببلد تمتلك قواه السياسية ميليشيات مسلحة ويحوي أكثر من مائتي إثنيَّة.

المخططات المتوقعة لِمَا بعد الانفصال:

١ - تحويل الجنوب إلى أداة لتحويل أو تفكيك الشمال:

هناك بالفعل أسباب تدعو للتفكير في أن الولايات المتحدة قد تُقدِم على تنفيذ ذلك، عبر وكلائها الجنوبيين؛ ولا سيما في ظل إدارة أمريكية ديمقراطية تضع تفكيك السودان على سلَّم أولوياتها؛ غير أن الأمر ليس بهذه البساطة، ودونه عدم قدرة الجنوب على إحداث هذا التغيير في الشمال؛ خصوصاً أن الشمال دولة مستقرة إدارياً وبِنيَة الحكم فيها أصيلة بينما لم تزل الدولة الجنوبية في طور التكوين. كما أن للشمال أوراقه المعروفة في الجنوب مثلما لدى الجنوبيين كذلك.

إلا أن ثمة مؤشرات بعضها يرتقي إلى مصافٍّ الأدلة على ضلوع الجنوب قبل أن يتكون رسمياً في تهديد الاستقرار في الشمال؛ فالتصريح الذي أطلقه ياسر عرمان (نائب الأمين العام للحركة الشعبية لتحرير السودان، ومسؤول قِطاع الشمال بالحركة) قبل أيام قليلة من إعلان نتيجة الاستفتاء، والذي قال فيه: «لن نذهب مجاملة مع الجنوبيين؛ لأن هناك قضايا في جبال النوبة وشمال السودان، وسنبني حركة جديدة ستكون رؤيتها السودان الجديد، وسوف نعمل على شمال قائم على العدالة الاجتماعية، وعلى الديمقراطية» لافتاً الانتباه إلى ما تُزمِع الحركة تنفيذه في الشمال، وسياستها التي تبدو كأنها ستبدأ من نقطة الصفر التي بدأ عندها جون غارانغ زعيم الجبهة الشعبية الراحل مسيرته حول «السودان الجديد»؛ إذ كان عليه أن يغيب للتمهيد للانفصال كآلية لم تتبنَّها الحركة سابقاً في أدبياتها، ثم هو يعاود التذكير من جديد بخطوة «الوحدة» لكن عبر فرض العَلمانية على الشمال أيضاً.

وما أكدته الدوائر الحكومية السودانية قبل الانفصال من إيواء المتمردين الدارفوريين في الجنوب وتسليحهم: كان العلامة الأبرز على أن العلاقات الجنوبية الشمالية قد تشهد تصعيداً كبيراً لم تشهده السنوات الخمس الماضية.

كما أن المظاهرات التي اندلعت في جبال النوبة بولاية جنوب كردفان، والتي شارك فيها متمردون مسلحون شاركوا إلى جانب الحركة الشعبية ضد الحكومة في السودان، ورفعت شعارات الحركة مطالبة بالانفصال تشي بأن طموحات الحركة لا تقف عند حد الانفصال، ولا حتى «السودان الجديد»، عنوان للتفتيت.

وهناك قوات لم تزل تحتفظ بها الجبهة الشعبية في الشمال بوسعها أن تساند حركات تمرد شمالية أو ائتلاف يسعى لإسقاط نظام البشير عبر إحداث فوضى في الوسط والشرق والغرب بالدولة الشمالية.

ومن خارج السودان كله، وبالتزامن مع الانفصال شرعت مراكز البحوث الغربية والمجلات المتخصصة تسوِّق لفكرة ميلاد دول جديدة استناداً إلى تجربة الجنوب، و (مصادفة) فقد كان معظمها يقع في دول إسلامية: كإقليم دارفور وشرق السودان وأرض الصومال... إلخ.

والواقع أن التأثير الأمريكي في كل ما سبق شديد الوضوح بسبب تبنِّي الولايات المتحدة لتلك الدولة الانفصالية الوليدة وتحكُّمها الظاهر في سياستها منذ أن كانت حركة «تمرد» إلى أن صبغتها واشنطن والعواصم الأوروبية بـ «الشرعية».

٢ - إنشاء علاقة متوازنة بين الشمال والجنوب:

يركز هذا المخطط على العلاقات التاريخية والمصالح العريضة المشتركة بين الشمال والجنوب التي لا يمكن تجاهلها، وعلى الحاجة الملحَّة للتعاون بين الدولتين في صناعة النفط المستخرج في معظمه من الجنوب وتكريره وتصديره عبر الشمال، وعلى حالة التفكيك الاصطناعية والحدود غير المنطقية واتصال القبائل على طرفَي الحدود، ووجود «جالية» جنوبية كبيرة في الشمال، واستثمارات شمالية في الجنوب، وكذلك الانطباع السائد بأن طرفَي النزاع قد سئما من الحرب، وأن قادة الجنوب أنفسَهم قد ركنوا إلى حالة من الثراء وفَّرتها حالة السلم التي أفضت إلى تدفق استثمارات في الجنوب على أرضية الاكتشافات النفطية في الجنوب، بل في الشمال أيضاً، الذي يتوقع هو الآخر معدلات نمو باهرة؛ بعد تفرُّغه للنمو والاستثمار... وما إلى ذلك؛ وهو ما سيجعل من العسير على القادة في «البلدين» تقبُّل عودة حالة الحرب مرة أخرى؛ إذ يدرك الساسة على جانبَي الحدود أن كلاً منهما قادر على إشعال النار في هشيم الآخر، وهو ما دعا الوسطاء الأفارقة إلى طرح خيار الكونفيدرالية بين الدولتين، وهو وإن بدا أنه يعيد شيئاً من اللحمة للأشقاء؛ إلا أنه على النقيض يفتح الباب واسعاً أمام تكهنات بخيار قاتل يرنو إلى التمهيد لإحداث فوضى في الشمال من خلال استحقاقات تلك الكونفيدرالية التي يمكن أن تفتح شهية الجنوبيين للحصول على «ضمانات» بل امتيازات في الشمال تعيد الحديث من جديد عن

فكرة «السودان الجديد» بما تستلهمه من فوضى تضمن تحقيقها.

غير أن ارتهان الجبهة الشعبية للغرب ووجود كثير من أوراق الضغط لديه، وكذلك «إسرائيل»، والفكر العَلماني الرافض للإسلام والعروبة لدى الحركة، النازع إلى المصادمة لا التوافق، والشحن المعنوي الذي نجحت القوى الغربية في تعزيزه ضد الشماليين، والترويج لمظالم تاريخية وآنية لحكم «الشمال» في الجنوب، تعود بهذا المخطط خطوات إلى الوراء.

ثمة أمر آخر يضاف إلى استبعاد هذا المخطط، هو استنساخ الحالة التي حكمت العلاقات بين السودان وجيرانه في السابق، والتي قامت على احتفاظ كل طرف بأوراق ضغط ضد الآخر، وتقديم الدعم العسكري واللوجستي لمعارضي الطرف الآخر، وهو ما أوجد دائماً حالة من العداء المكتوم بين تلك الدول المتجاورة، وهو ما يتوقع أن يتكرر بين دولتين قامت إحداهما بالانفصال عن الأخرى عبر الاستقواء بالخارج.

٣ - الحرب المباشرة:

لم تزل بَعدُ واردة، وإرهاصاتها بدأت مع الاشتباكات التي حصلت في منطقة آبيي المتنازع على تبعيتها للشمال أو للجنوب بين مسلحين من قبيلتي المسيرية والدينكا، ومعلوم أن الدعم العسكري الذي تقدمه الولايات المتحدة الأمريكية وعدد من دول الجوار كإثيوبيا وأوغندا الذي تجاوز حدود ملياري دولار، ويشتمل على إنشاء قوات جوية وبحرية وبرية وقواعد عسكرية، هذا إضافة إلى تقاسم عوائد النفط خلال السنوات الخمس الماضية وهو ما أتاح للجنوبيين تحديث جيشهم بنحو مليار دولار وَفْقاً لبعض التقديرات.

وغني عن البيان أن ظروف ما بعد الانفصال ستمنح الجنوبيين مزية التعامل دولياً كدولة ذات سيادة «تعرضت لعدوان» وليس كحركة تمرد، وتقديم الدعم العسكري الفوري سيكون أيسر بكثير؛ ولا سيما مع وجود قوات دولية في الجنوب مثلما هو حاصل الآن.

وإذا كانت توقعات الحرب قد تراجعت كثيراً بعد مرور الاستفتاء «بسلام»، إلا أن بعضه قد يقفز إلى فكرة تصدير الحرب لإنقاذ نظام الحكم في السودان إن تعرض لهزة عنيفة، وهو مخطط ليس مستبعداً بطبيعة الحال بالنظر إلى إمكانية تأجيج المعارضة ضده على خلفية «التخلي» عن الوحدة السودانية، والسماح بالانفصال، وتعزِّزه توقعات بتراجع شعبية

البشير والمؤتمر الوطني، وتصعيد حزب الأمة في الشرق، ومتمردي حركة العدل والمساواة في دارفور التي يدعمها (د. حسن الترابي)، وتفجير قضية المحكمة الدولية من جديد في وجه البشير؛ إذ الملاحظ أن الولايات المتحدة لم تقايض بتلك الورقة الرئيس السوداني في مقابل موافقة الشمال على انفصال الجنوب، وإنما اكتفت بتفعيل ورقة إلغاء إدراج اسم السودان من لائحة الدول الراعية للإرهاب، وتركت ورقة أوكامبو لمرحلة دارفور على ما يبدو، إضافة إلى كونها لم ترمِ بثقلها خلف مفاوضات دارفور التي رعتها قطر مؤخراً، واكتفت بـ «تعريب» الحل مؤقتاً تمهيداً لإفشاله، ومن ثَمَّ ستدخل على خط دارفور عبر مفاوضات ربما تتيح للجنوب استقراراً وتنمية تحضيراً لتدخله في الشمال لاحقاً.

إن تلك المخططات وإن بدا بعضها أقوى من بعض؛ إلا أنها جميعاً مرشحة للحصول في ظل ضبابية تحكم الظرف السوداني الراهن.

والأهم هو التأثير المتوقع لانفصال الجنوب سلمياً بهذه الطريقة الهادئة على مجمل دول المنطقة في أعقاب مرحلة لم تعرف قبلها تلك المنطقة هذا التشقق السهل غير الممتنع في دولها، بل على العكس شهدت عكسه من رواج الفكرة الوحدوية التي كونت الإمارات العربية المتحدة والسعودية من قبل، واليمن الموحد قبل نحو عقدين... أما الآن فنحن نعاني تشقّقاً حاداً، ظهرت مفاعيله مع مطالبات الزعيم الكردي مسعود البرزاني بـ «حق تقرير المصير في كردستان»، وبعده هذيان الحديث عن دولة «مسيحية» في العراق، والأكثر غرابة في مصر أيضاً؛ كالحديث الذي تردد على لسان (د. البرادعي) عن «حقوق» أهل النوبة. وما تفكيك اليمن الموحد مرة أخرى، الجاري بخطى متسارعة عنا ببعيد.

جنوب السودان

على أعتاب دولة رومية كاثوليكيَّة

فيصل بن علي الكاملي(*)
popedia@windowslive.com

هناك في جزيرة مالطة، موطنِ الفرسانِ الإسبتارية، كان أحد القساوسة الكاثوليك – «أنيتو كاسولاني» – يَجمع ما استطاع من أخبار حول أعالي النيل. كان مشروعه يهدف إلى إرسال حملة تنصيرية تجعل من النِّيل طريقاً سريعاً لتنصير إفريقيا الوسطى. عرض «كاسولاني» مشروعَه على البابا «جريجوري السادس عشر» عام ١٨٤٦م فاستحسنه؛ بل أمر بإقامة «الأسقفية التبشيرية [التنصيرية] في إفريقيا الوسطى» تحت إشراف البابا مباشرة. أما «كاسولاني» فكُلِّف بمهمة نشر النصرانية في السودان وحوض النيل ومناطق شاسعة إلى الجنوب والغرب(١).

حطت أول البعثات التنصيرية رحالها في الخرطوم عام ١٨٤٨م. أما في جنوب السودان فتأسست أول إرسالية عام ١٨٥٢م في «غُندكرو»(٢). لم يرحب جوُّ السودان بأولئك المنصِّرين؛ فقد هلك منهم ستة وأربعون بين عامَي ١٨٤٨ و ١٨٦٢م. فلما خشي البابا على رُسله أمر بإيقاف الإرساليات ولم يتبقَ منهم سوى اثنين من أعضاء التنظيم الفرانسيسكاني لحماية ممتلكات المنصِّرين، أما البقية فانسحبوا إلى الأراضي المصرية.

لكن مشروع «كاسولاني» لم ينتهِ بذلك؛ ففي عام ١٨٦٤م استأنف المشروعَ المنصِّر الكاثوليكي القديس «دانيال كمبوني» وهو أحد المنصِّرين الذين أُعيدوا إلى أوطانهم بعد أن أسقمهم حَرُّ السودان. لقد تعلَّم «كمبوني» درساً عملياً أن إفريقيا لا يمكن أن يُنَصِّرها الأوروبيون بمفردهم دون توظيف الطاقات المحلية. وفعلاً نشر فكرته بعد أن باركها

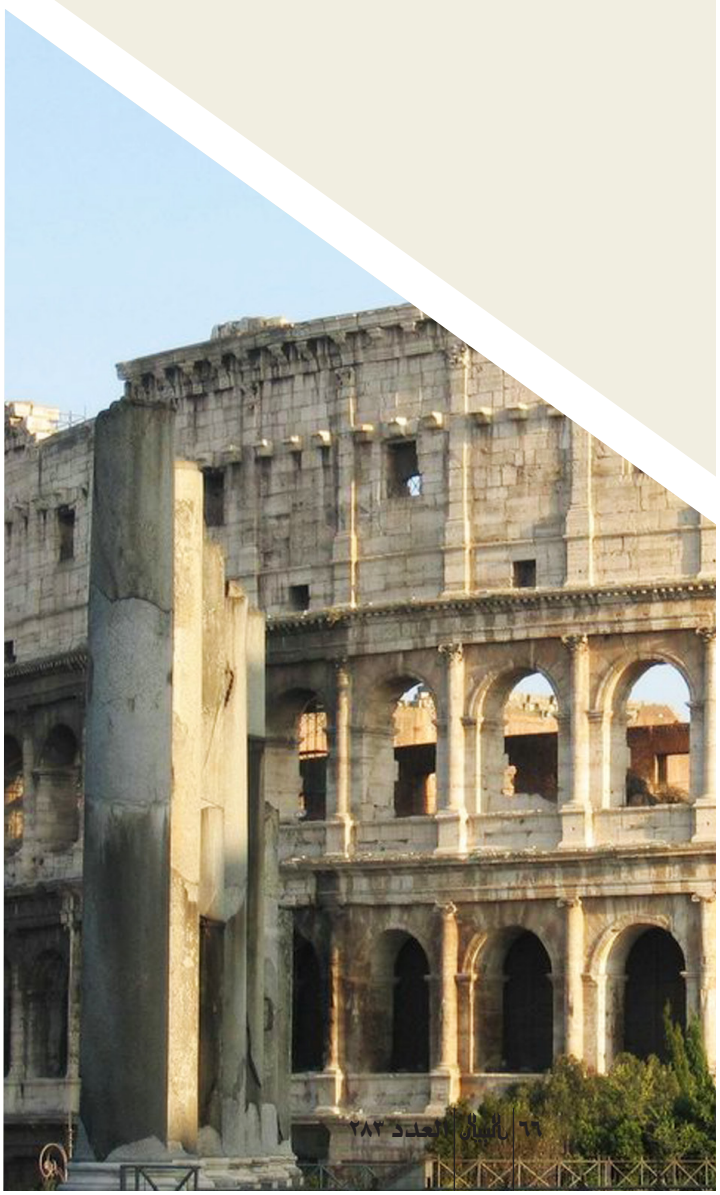

(*) باحث سعودي متخصص في دراسة الأديان – يعمل في مركز الدراسات والبحوث التابع لمجلة البيان.

(1) Nthamburi, Zablun. From Mission to Church (Uzima Press, 1991), p. 48.

(٢) بدأت أول مساعي البابوية عام ١٦٧١م عندما أقام البابا إرساليات نصرانية في صعيد مصر للتواصل مع أتباعه في تلك البقاع. ولكن لانعدام الوجود النصراني هناك آثرت الإرساليات البابوية التوجه إلى إثيوبيا. خلال تلك المرحلة جمعت الإرساليات معلومات قيمة عن السودان.

البابا، وبدأت مراكز تدريب الكاثوليك الأفارقة على السواحل التي كان يقيم بها المنصِّرون. وفي عام ١٨٦٧م أنشأ معهداً في مدينة «فيرونا» الإيطالية لتدريب القساوسة والمنصِّرين الذين يعملون في إفريقيا الوسطى، كما أنشأ مدارس وكليات في القاهرة والخرطوم. وكان من تلاميذه «دِينق سرور» أول قسيس كاثوليكي من جنوب السودان[١]. و «بخيتة كواشي» (التي صارت تعرف بـ «فورتوناتا كواسكي» Fortunata Quasce)، أول راهبة كاثوليكية سودانية[٢].

استمرت جهود المنصِّرين بين مدٍّ وجزرٍ بعد أن نجحوا إلى حد كبير في توظيف سياسة «كمبوني» القائمة على تنصير إفريقيا من قِبَل الأفارقة. لكنَّ جنوب السودان الذي طالما استعصى على المنصِّرين بطبيعته الطاردة أصبح محط أنظار الكنيسة الكاثوليكية التي رأت فيه حلم إقامة دولة كاثوليكية رومية تكون قاعدة للبابوية في إفريقيا. وقد صرح بهذا الجنرال الصليبي «ريجينالد وينجيت» Reginald Wingate – خليفةُ الجنرال «هربرت كيتشِنَر» وأحدُ فرسان «التنظيم المبجل للقديس يوحنا» المتفرع عن فرسان مالطة – عندما أشار إلى «**رغبته في رؤية جنوبٍ نصرانيٍّ يعادل قوة الإسلام في الشمال**»[٣]، يعني شمال السودان.

ليست هذه المرةَ الأولى التي تحاول فيها روما عزل منطقة مَّا لتقيم عليها «دولة كاثوليكية» «تَدُرُّ لبناً وعسلاً»؛ فقد كانت لها تجربة مماثلة في «الباراغواي» التي هي اليوم كاثوليكية رومية بامتياز. يحدثنا «ثيودور جرايسينجر» في كتابه «تاريخ اليسوعية» أنه بعد أن حطت ركائب المنصِّرين اليسوعيين الكاثوليك في الباراغواي قادمة من إسبانيا والبرتغال اجتمع بهم الأب «ستيفان بايز» عام ١٦٠٢م وبلَّغهم وصية جنرالهم في روما بضرورة «**إقامة دولة نصرانية [كاثوليكية] حقيقية ومستقلة** في الباراغواي، يحكمها الجنرال اليسوعي في روما»[٤].

كان سكان الباراغواي يتألفون من قبائل تعبد الأسلاف وتتعلق التمائم وتقدس السحرة والعرافين تماماً كما هو الحال بين القبائل الوثنية في جنوب السودان. أما عن طباعهم فيقول «إدموند باريس»: «كان سكان تلك البلاد من الهنود الرُحَّل الطيِّعين؛ يركع أحدهم لأي سلطة ما دامت تقدِّم له كفايته من الطعام وشيئاً من التبغ»[٥]. فكان أول ما قام به المنصِّرون أن تألَّفوا قلوب هؤلاء البسطاء متظاهرين بالحرص على مصالحهم، والدفاع عن حقوقهم، ومواجهة خصومهم المستبدين من الإسبان والبرتغاليين.

اعتمد المنصِّرون في سبيل السيطرة على الباراغواي وإقامة الدولة الكاثوليكية على سياسة المناطق المقفلة؛ حيث عُزل الهنود الحمر الوثنيون عن الإسبان والبرتغاليين بحجة أن اختلاطهم بهم قد يفسدهم ويتسبب في إقلاق أمنهم. كما مُنِعوا من الحديث بغير اللغة المحلية «الغوارانية». ثم بدأ استغلال هؤلاء البسطاء من قِبَل المنصِّرين فجَنَوا من كدحهم أموالاً طائلة حتى غارت منهم ممالك أوروبا حينئذٍ.

إن هذا المشهد بتفاصيله يتكرر في أحداث جنوب السودان. فالاستفتاء ليس خياراً وإنما هو تتويج للمشروع البريطاني الصليبي الساعي إلى «**رؤية جنوبٍ نصرانيٍّ يعادل قوة الإسلام في الشمال**»؛ وهو ما نشط له المنصِّرون بطبيعة الحال. فسياسة المنصِّرين اليسوعيين في الباراغواي لإقامة دولة كاثوليكية هي السياسة التي سارت عليها بريطانيا لإقامة دولة صليبية في جنوب السودان.

لقد بدأت بريطانيا منذ عام ١٩١٠م بالعمل على عزل سكان جنوب السودان عن المؤثرات العربية والإسلامية كما عُزل الهنود الحمر في الباراغواي عن التأثيرات الخارجية المتمثلة في الإسبان والبرتغاليين. وفي عام ١٩٢٢م صدر ما يعرف بـ«قانون المناطق المُقفَلة» الذي حرَّم دخولَ غير السودنيين إلى داخل مناطق معيَّنة، بل منع انتقال مواطني الشمال إلى الجنوب ومواطني الجنوب إلى الشمال[٦].

وكما مُنِع سكان الباراغواي من الحديث بالإسبانية التي تربطهم بأوروبا أصدر السكرتير الإداري البريطاني والمستشرق «هارولد ماكمايكل» عام ١٩٣٠م مذكرة أكد فيها على **أن القبول باستمرار العربية في الجنوب سيؤدي إلى انتشار الإسلام**؛ وهو ما يضيف إلى الشمال المتعصب – على حد قوله – منطقة لا تقل عنه في المساحة. ليس هذا فحسب، بل زعمت مذكرة أخرى **أن اللغة العربية المنتشرة في الجنوب عسيرة الفهم**

(1) Hill, Richard Leslie. The Opening of the Nile Basin (Barnes & Noble Books, 1975), p. 196.
(2) http://www.dacb.org/stories/sudan/bakhita_kwashe.html
(3) Nthamburi, Zablun. From Mission to Church, p. 59.
(4) Griesinger, Theodor. The Jesuits: A Complete History, p. 136.
(5) Paris, Edmond. The Secret History of the Jesuits, p. 56.
(6) Sudan Almanac, (Republic of the Sudan, 1951), vol. 1937, p. 63.

وأقـرب إلى الرطانة، وبناء عليه شُـجِّع الموظفون على دراسـة اللهجات المحلية، ومن لم يحسـنها لجأ إلى الإنجليزية[1]. وهذا عين ما صنعـه المنصِّرون في الباراغـواي؛ حيث فرضوا على الهنود الأصليين الحديث باللغة الغوارانية المحلية فقط.

إن المتتبع للحَراك التنصيري في جنوب السودان يدرك أن الاستفتاء الشـعبي القائم ليس إلا إضفاءَ شـرعيةٍ على دولة كاثوليكية في جنوب السودان وإعلاناً لقاعدة صليبية تحقق حلم البابوية في جعل النِّيل طريقاً سريعاً لتنصير إفريقيا الوسطى والحد من انتشار الإسلام. لقد كتب «اللورد كيتشِنر» في مذكرةٍ عام ١٨٩٢م قائلاً: «ما لم تعضَّ القوى النصرانية بنواجذها على نصيبها من إفريقيا فإن العرب المحمديين [المسلمين] سيخطون هذه الخطوة، وسـيصبح لهم مركز في وسط القارة يستطيعون منه طرد كافة التأثيرات الحضارية إلى الساحل، وستقع البلاد في عبودية وفوضى كما هو الحال في السودان»[2].

إن قساوسـة الروم لا يريدون للسـودان أن يتوحد؛ فهذا «المكتب اليسـوعي لخدمـة اللاجئـين» Jesuit Refugee Service ينقل عن كبير الأسـاقفة الألمانـي الكاثوليكي «إروين جوزيف إنـدر» قوله أثناء زيارته لجنوب السـودان: «قد تكون هذه المرةَ الأخيرةَ التي أزور فيها سـوداناً موحداً... إن الشمال لم يقدم للجنوب شـيئاً»[3]. كما صرح الأسقف «أركَنبِيلو واني» التابع لإرسالية إفريقيا الداخلية أن «زمان الوحدة قد ولَّى»[4]. أما الأسقف «هيلاري قرنق دِينق» فعبِّر عن الوضع بقوله: «**لقد حاولَـت الخرطومُ بلـع الجنوب، لكن النصرانيـة وقفت معترضة في حلقها فأجبرتها على التقيؤ**»[5].

إن رُسُـل البابـا الذين غيروا معالـم الباراغواي هم الآن في جنوب السودان للغرض نفسـه. فها هو «المكتب اليسوعي لخدمـة اللاجئين» يتحـدث عن جهوده قائـلاً: «عندما توجه «المكتب اليسـوعي لخدمة اللاجئين» إلى جنوب السـودان في نهاية التسـعينات من القرن الماضي شارك أفرادُه في الحديث عـن الرعب الذي يعيشـه المهجَّرون الذيـن حصرتهم الحرب الأهلية. ومع بزوغ عام ٢٠١١م **لا يزال «المكتب اليسوعي لخدمة اللاجئين» في جنوب السـودان يصحب الشـعب في زمن السـلام كمـا فـي زمن الحرب** ... إن السـودان على مفترق سلسـلة من الخِيارات يمكن أن تكون تدشيناً **لمؤسسة ذات مستقبل واعد**»[6]؛ فهل هذه المؤسسة الواعدة هي الدولة الكاثوليكية الجديدة؟

لقد افتتح اليسـوعيون قبل ثلاثة أعوام «مدرسـة لويولا الثانوية» Loyola Secondary School في مدينة «واو»[7]. وها هم يعلنون افتتاح أول جامعة كاثوليكية يسوعية في جنوب السودان يؤسسـها الأب اليسوعي «شـولتيز»[8] بعد دعوة من البابا «بندكت السـادس عشـر» الذي أسـرَّ إلى كبير أساقفة الخرطـوم «زُبير واكو» قوله: «إن معاناة جنوب السـودان التي تخفى علـى كثيرين لا يمكن التغلب عليهـا إلا بالتعليم...»[9]. وهذا التعليم ليس إلا حلقة في مشـروع استعمار الجنوب قال عن مثيله «إدموند باريس»: «لقد قام تعليم سـكان الباراغواي الأصليين على المبادئ نفسـها التي طبقهـا الآباء [الكاثوليك] ويطبقونها الآن **وسيطبِّقونها في كل زمان ومكان**»[10].

ختاماً، علـى الرغم مما اكتنف الوحدة مـن عوائق وحروب أهليـة **كان المنصِّرون أكبـرَ المروجـين لها**، إلا أن الحقيقة هي أن السودان تنازل لروما – طوعاً أو كرهاً – عن مقاليد أرضٍ مسلمةٍ «تدر لبناً وعسلاً» سرعان ما تنهض دولةً كاثوليكيةً يقودها «سلفا كير» «**النصراني المتشـدد والخطيب المألـوف بالكاتدرائية الرومية الكاثوليكية في «جوبا»**» كما وصفته الـ BBC[11].

إن مشـهد الاسـتفتاء يبعث السـرور في قلوب الروم من أمثال «كارتر» و «كيري» و «كلينتون»، لكنه بلا شـك يَحزُن أهل الإسـلام؛ فقد فرط الدعاة إلى الله في دعوة بسطاء الجنوب الوثنيـين يوم كانوا يُقبِلون على دين اللـه أفواجاً، حتى ضُرب بينهم بسور له باب لا يلجه إلا أهل الصليب.

(1) Collins, Robert. Civil War and Revolution in the Sudan (Tsehai Publishers, 2005), p. 276.
(2) Zeleza, Tiyambe. The Roots of African Conflict (Ohio University Press, 2008), p. 87.
(3) http://www.jrsusa.org/news_detail?TN=NEWS-20101221110224
(4) http://www.bibleleague.ca/news-detail-inter.php?id=194
(5) http://www.booksandculture.com/articles/webexclusives/2010/november/surprisessudan.html
(6) http://www.jrsusa.org/Prayers_Detail?TN=DTN-20101216111903
(7) http://www.nwjesuits.info/ACTS/archives/52
(8) http://ncronline.org/news/global/catholic-university-launches-sudan
(9) http://www.gurtong.net/ECM/Editorial/tabid/124/ctl/ArticleView/mid/519/articleId/1761/categoryId/4/Pope-Benedict-XVI-to-Support-Education-in-South-Sudan.aspx
(10) Paris, Edmond. The Secret History of the Jesuits, p. 58.
(11) http://www.bbc.co.uk/news/world-africa-12107760

أوراد

أهل السنة والجماعة

من القرآن الكريم وصحيح السنة والنبوية

قال شيخ الإسلام: (فالأدعية والأذكار النبوية هي أفضل ما يتحراه المتحري من الذكر والدعاء، وسالكها على سبيل أمان وسلامة، والفوائد والنتائج التي تحصل لا يعبر عنها لسان، ولا يحيط بها إنسان).

في هذا الكتاب..

الثناء • الصلاة على الحبيب • الاستغفار • السؤالات • الاستعاذات
تفريج الكرب والهم • الرقية الشرعية • أذكار الصباح والمساء

للتوزيع الخيري والمبيعات في المملكة العربية السعودية - اليمن - السودان
دار رسالة البيان للنشر والتوزيع - هاتف : ٤٥٤٦٨٦٨ - تحويلة ٥٠٢/٥٠٠ - جوال : ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥
المنطقة الغربية : ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ - المنطقة الجنوبية : ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨ - القصيم : ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦
الشرقية : ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ - مكة : ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠

مسلمو جنوب السودان...

إستراتيجية دعوية وأُطُر عملية

م. ماهر سالم قويدر(*)

في البَدء:

تتسارع الأحداث وتتشابك المواقف أثناء كتابة هذا المقال إزاء قضية تقرير مصير جنوب السودان، ولعله عند نشره تكون قد اتضحت الرؤية وبان الأمر وظهرت نتيجة الاستفتاء حول ذلكم المصير، ويظهر لكل ذي عينين أن انفصال جنوب السودان عن سائره واقع ولا بد، وتكثر التساؤلات عن مصير العلاقات بين الشمال والجنوب كدولتين ناشئتين عن ذلك، ولكن لا أحد يتحدث عن مستقبل (مسلمي جنوب السودان) الذين يشكلون ربع سكان الجنوب وأغلبية السكان من حيث العقيدة[1]، ويتردد في النفوس كثير من المخاوف حول ذلك المستقبل؛ فـ (الحركة الشعبية) القابضة على زمام الأمور في جنوب السودان يسيطر عليها طابع نصراني وارتباطات بالكنيسة، وتملؤها أضغان وأحقاد تاريخية نحو الإسلام ومَنْ يمثله غرستْها يد الاستعمار البريطاني، إضافة إلى علاقاتها التاريخية منذ نشأتها بالحركة الصهيونية العالمية.

ينقسم مسلمو جنوب السودان إلى حركات (صوفية وسلفية وأخرى حركية ذات صلة بإسلاميي السودان عموماً)، ومع قرب الاستفتاء واحتمالات انفصال الجنوب قرروا عقد مؤتمرهم التأسيسي في الجنوب وتدشين «المجلس الإسلامي العام لجنوب السودان» ليشرف رسمياً على شؤونهم ويوحِّدهم في حال أصبحت هناك دولة جنوبية مستقلة عن الشمال في مؤتمر جامع.

وهكذا تدرجت مواقف المسلمين في جنوب السودان تجاه الانفصال: من رفضه في ظل المخاطر المحتملة، إلى الحياد والوقوف موقف المتفرج، والانكفاء إلى الداخل وللمة الصف المسلم؛ لتحقيق مصالح الحفاظ على حريتهم الدينية، والإشراف على الأوقاف والهيئات الإسلامية بالجنوب. كل ذلك نتيجة التجاهل الذي تعرضوا له خلال معالجة قضية الجنوب، والخذلان والتخاذل العام وتراخي القبضة الحكومية عن الجنوب ككل.

ويبدو تكوين ذلك المجلس خطوة مهمة على طريق الاعتراف الرسمي بحقوق مسلمي الجنوب وفتح الطريق أمامهم للعمل بحُرية ودون عوائق بعدما كانت مؤسساتهم تتعرض للنهب والاعتداء عليها من قِبَل متطرفي الحركة الشعبية أو جماعات جنوبية أخرى نصرانية متطرفة[2].

وفي ظل هذا الواقع المضطرب والمستقبل الذي يكسوه الغَبَش، لا بد من رؤية إسلامية لمعالجة الأمر، تُخرِج المسلمين من المأزق الذي أدخلوا أنفسهم فيه بغياب أنظارهم عن هذا الجزء من جسد الأمة. وفي ما هو آتٍ محاولة لوضع إطار نظري وخطة أوَّلية لعمل إسلامي دعوي موجَّه لجنوب السودان، يخدم المسلمين هنالك، بإعداد ودعم أفرادهم وكياناتهم، وترقية طرحهم، أخذاً بسنن الله – تعالى – الكونية في التغيير، وبسننه الشرعية في اتباع منهج الحق.

(*) المدير العام لإذاعة وقناة طيبة الفضائية السودان.

(١) محمد جمال عرفة، مسلمو جنوب السودان... كيف يواجهون الانفصال؟ مقال بموقع (إفريقيا اليوم) الإلكتروني، 30 يونيو 2010م. مع التحفظ على أن المسلمين يشكلون ربع سكان الجنوب، فبعض الإحصائيات تشير إلى أنهم 35 % من مجمل السكان، بينما يمثل النصارى 30 %، والنسبة المتبقية هم من الوثنيين.

(٢) محمد جمال عرفة، مسلمو جنوب السودان في مؤتمرهم: هل يستعدُّون لانفصال محتمَل؟ مقال بموقع السودان الإسلامي، 29 مارس 2010م.

ضرورة التخطيط الإستراتيجي:

التخطيط الإستراتيجي سمة مميزة للمجتمعات المتحضرة، تضع للناس غايات سامية لبلوغها وتحقيقها تتمثل فيها الأشواق التي تَنْشُدها تلك المجتمعات وتحشد طاقاتها كلها للوصول إليها، وترسم لها الطريق لبلوغها، وتحدد نقاط تفاعلها مع عالمها وبيئتها.

إن جوهر الفكر الإستراتيجي والحلول الإستراتيجية هو القدرة على إنتاج المستقبل التاريخي المختار، وليس المستقبل الذي فرضه الغير، أو تمليه المصادفات العمياء، أو تشكله المضاعفات العارضة، وهو (أي الفكر الإستراتيجي) ينطوي على معاني الرؤية التنبؤية للمستقبل والبصيرة باتجاهات تشكُّله وتطوُّر وقائعه، والإبصار للأخطار القادمة ودرئها في الوقت المناسب، وحساب الآثار والانعكاسات الوقتية لبعض البرامج أثناء صناعة ذلك المستقبل المختار وتفاديها أو تخفيف وقعها. وهذه الرؤية المستقبلية هي نقيض الغفلة والتخمين الاعتباطي، ولا سبيل معها للارتجالات والمفاجآت إلا بما تفرضه - جبراً - أقدار الله وحينها يتصل دفع أقدار الله بأقدار الله.

هذه الإستراتيجية:

إن الإستراتيجية التي نحن بصددها ينبغي أن تكون:

أولاً: البدايةَ الشاملة للنهضة الدعوية والتنمية الإسلامية في جنوب السودان وكذلك الموجَّهة إليه، وتحريك القطاعات الدعوية وتعبئة قواها في إطار عمل إسلامي خلاقٍّ يفجر الطاقات الكامنة ويستنهض الهمم المستكينة.

وثانياً: تخطيطاً شاملاً يستوعب كل الجهود الدعوية في اتساق وتناغم وتكامل لتحقيق النهضة الدعوية والتنمية الإسلامية والتمكين للإسلام الذي يشتاقه كل مؤمن.

وثالثاً: خطةً شاملة للتوظيف الأمثل لمجمل الموارد والطاقات التي تزخر بها الساحة الدعوية.

ورابعاً: خطةً طموحة تحيي الأمل، وتجدد الثقة في قدرات الصحوة الإسلامية المعطاءة وترسم صورة لما يمكن أن يتحقق بجهد أبنائها إذا ما أُحكِم التخطيط وصدق العزم وعلت الهمة وأُتقِن العمل.

وسادساً: هادية للتحول نحو التمكين للواقع الذي نصبو إليه، وهو: «بسط الدعوة الإسلامية في جنوب السودان».

إن الساحة الدعوية في شتى أصقاع الأرض تشهد كثيراً من البرامج والخطط والكيانات والتوجهات لكنها لا تستهدي بإستراتيجية شاملة، وغاب عن معظمها الإبداع والتطوير فجاءت في أكثرها فوقية أو سطحية منفصلة عن الواقع أو مستغرقة في جزء ضئيل منه؛ فحققت في أحسن الأحوال نجاحاً محدوداً تبدَّى في المحافظة على جذوة الدعوة مشتعلة، ولعل هذا من حكمة الله البالغة. كما أنها كرَّست أغلب الجهد في الأعمال الموسمية أو المشاريع الفردية: كفالةً ليتيم أو حفراً لبئر أو توزيعاً لأضاحٍ، وما واقع العمل الإسلامي بخافٍ على ذي بصيرة.

غير أن هذه الإستراتيجية الدعوية ينبغي أن تختلف عن البرامج والخطط الأخرى المعمول بها من حيث إنها:

أولاً: خطة أصيلة كبرى لتفجير طاقات الدعوة الإسلامية المبدعة كلها والاعتماد على الذات بالمعاني المجتمعة لموارد الدعوة ولقدرات الروح والشمائل، ولقوى المعرفة والمهارة في العمل الدعوي في إفريقيا التي حبا الله بها دعاة السودان بغير انغلاق أو عزلة أو استسلام للضغوط والإكراهات.

وثانياً: حركة الفعل الدعوي بأطيافه المختلفة للتخطيط لنفسه وليست حركة فئة معيَّنة أو مذهب محدد.

وثالثاً: إستراتيجية تهتم بالإنسان المسلم بكل أبعاده كمحور أساسي تدور حوله الخطط والبرامج، ولا تقتصر على القوالب النمطية والوسائل التقليدية، ولا تنحاز إلى التوجه الإلقائي والوعظي وحدَه، بل تمزج بين حاجات الروح وضرورات المعيشة والتقدم.

ورابعاً: إستراتيجية قد حددت أهدافاً واضحة (كمّاً ونوعاً) ينبني عليها التخطيط، ورسمت إطاراً زمنياً معلوماً يجري فيه الإنجاز، وأقامت المؤشرات والمعايير لقياس العمل وتقييم الأداء.

وخامساً: تمتاز عن غيرها باتساق برامجها وخططها في المجالات المختلفة وَفْقَ رؤية جامعة موحَّدة، تربط الأصول بالحاضر والمستقبل، وتصل الدنيا بالآخرة، وتعبِّئ طاقات الدعاة لبلوغ غاياتها المرسومة.

ولما كان التخطيط الإستراتيجي لا ينطلق من فراغ؛ فإن كلَّ إيجابيات العمل الدعوي الماضي والحاضر وكلَّ ما شَابَهُ من سلبيات وخلل وكلَّ ما أنجز في تأسيسه؛ اعتُمِد قاعدة متينة لإستراتيجيتنا هذه.

واستناداً إلى ذلك كله حددت هذه الإستراتيجية الغاية الدعوية والأهداف الرسالية والموجِّهات العامة كما يلي: استشرافاً لمستقبل واعد لجنوب السودان، واستلهاماً لروح جديدة في التعاطي مع واقعه المعقَّد؛ تأتي خطتنا بأربع غاياتٍ مؤدَّاها المنشود «بسط الدعوة الإسلامية في جنوب السودان» بحول الله وقوته.

الغايات الدعوية الإستراتيجية:

انبثقت من قراءتنا لواقع الجنوب أربع غايات رئيسة، يتمحور حولها العمل الدعوي في المستقبل القريب بمشيئة الله – تعالى – وعونه، وهي كالتالي:

• تنمية العنصر البشري المسلم وزيادة معدلات نموِّه، والمحافظة الكمية والنوعية على المسلمين وتقليص كَمِّ الوثنيين والنصرانيين في الجنوب لصالح الإسلام.

• توطين العمل الإسلامي، والترقي بواقعه، وبناء المجتمع المسلم بأيدي أكفياء.

• التنمية المستدامة للدعاة، وبناؤهم وتطويرهم.

• تفعيل النخب المسلمة، وتعزيز الانتماء للإسلام، وتنمية الوازع الديني للمثقفين والمؤثرين وصناع القرار من المسلمين.

إن الغايات الأربع المذكورة قد بُنِيَت بناءً متدرجاً لتصل – بإذن الله – بالدعوة الإسلامية في جنوب السودان إلى مرحلة التمكين للإسلام، وهي الرؤية الشاملة التي تنطلق منها هذه الغايات.

تنمية العنصر البشري المسلم:

يعاني جنوب السودان من مشكلات حادة تؤثر بالضرورة في العنصر البشري المسلم وزيادة معدلات نموِّه؛ فالحرب الطويلة التي شهدها الإقليم، والواقع الذي فرضته هذه الحرب متمثلاً في ضعف البُنَى التحتية وتخلُّف الخدمات الصحية والتعليمية، أنتج وضعاً أقل ما يوصف به: أنه بائس؛ إذ تعتَبَر المؤشرات الصحية في جميع أنحاء المنطقة سيئة جداً[1]. ويعاني الوضع الغذائي سوءاً حادّاً بين الحوامل والرضَّع؛ حيث تبلغ حالات الوفاة ٥٠ حالة وفاة طفل رضيع من كل ١٠٠٠ مولود، إضافة إلى أن ما لا يقل عن ٤٥ ٪ من سكان الجنوب لا يستطيعون الحصول على مياه شرب نقية؛ فالتدابير والاحتياطات اللازمة للصحة البيئية في التعامل مع الموارد المائية الشحيحة في أصلها قليلة.

ورغم أن هذه الإحصاءات عامة لكل الجنوب إلا أننا إذا علمنا أن أغلب المنظمات العاملة في الجنوب – إن لم تكن كلها – هي منظمات نصرانية لاستطعنا أن نستنتج كيف وَضْعُ المسلمين هناك، الأمر الذي يستلزم الإسهام في حلِّها لتقليل عدد غير المسلمين في واقع يعتبر الزيادة السكانية معياراً لتقسيم الثروات والسلطات والصلاحيات ويتفاخر بكثرة البنين والبنات.

ويعد الوثنيون رصيداً مخزوناً لمن يسبق إليهم في جنوب السودان؛ لذا كانت قرى ومناطق الوثنيين مضماراً لسباق محموم بين المسلمين والنصارى: أيهم يسبق فتنحاز أعداد منهم إلى جانبه وصفِّه. ورغم تناقص الوثنية في جنوب السودان لحساب الإسلام والنصرانية، إلا أنه لا تزال نسبتهم مرتفعة؛ حيث تتراوح نسبتهم بـ ٦٥ ٪ في عام ١٩٨٣م حسب تقديرات مجلس الكنائس العالمي.

إن الخبرة التراكمية الكبيرة في العمل وسط الوثنيين في إفريقيا، وإدخال كثير منهم في دين الفطرة، تجعل العمل وسط هذه الفئة مثمراً بإذن الله. لقد استطاعت منظمة مثل (المنتدى الإسلامي) في توغو وحدها – بفضل من الله – إدخال ١٢٩٥٠ نسمة في دين الله الحق خلال ٦ سنوات فقط[2]، وذلك في منطقة محصورة في الدولة، وهذا يعني أنه قد أضيفت نسبة ٠,٢٣٣٪ لصالح المسلمين من جملة السكان بالدولة الذين يبلغ عددهم ٥,٥٤٨,٧٠٢ نسمة.

إن توجيه برامج مُحكَمَة تدور في محور تنمية العنصر البشري المسلم وزيادة معدلات نموِّه، بتقليص كم الوثنيين لصالح المسلمين؛ لَمِن المهمات في المرحلة القادمة؛ لتمكين الإسلام في جنوب السودان.

وإن من المنح التي تلفعت بأثواب المحن مؤخراً على المسلمين والعمل الإسلامي: الحَراكُ الكبير في المجتمعات النصرانية لتتعرف على الإسلام، وليست إفريقيا ببدع من دول العالم التي دخلت في دوائر الانديا الكبيرة للقيم والمفاهيم الإسلامية التي أُبرِزت لتعكس الصورة الحقيقية لهذا الدين العظيم. إن أعداد النصارى الداخلين في الإسلام في ازدياد؛ غير أن كثيراً من الأحداث والمسالك التي تنتهجها الفئات المسلمة تفتقر إلى التوجيه السليم وتحتاج إلى كثير من المراجعات. لقد أثبت التاريخ أن للتعايش والاندماج والمخالطة للمجتمعات غير المسلمة دوراً كبيراً في نشر الإسلام وتمكينه بينهم بمجرد المعاملة العادية والأخلاق التي يتصف بها المسلم فطرةً.

وليزداد نور الفطرة التي فطر الله – سبحانه – عليها الناس: يتطلب الأمر إشاعة نور الوحي وقيم الهدى بين المسلمين بتزكية المجتمع أفراداً وجماعات وتربيتهم تربية إسلامية راشدة عبر برامج هادية تحافظ على رأس المال، وتؤهل لربح جديد.

إن الاهتمام بالفرد المسلم (طفلاً ومرأةً وشاباً) وبمؤسسات المجتمع المسلم (أسرةً وقِطاعات)، والعمل على حمايته وتنشئته

(١) http://www.unicef.org/sudan/arabic/reallives5372.html

(٢) تقرير: قرى المهتدين، المنتدى الإسلامي– جمعية المنتدى الإسلامي، توغو، 2005م.

وتحريره من المشكلات الاجتماعية، وإعانته على تنمية مقدَّراته وتزويده بالاتجاهات الإيجابية التي تمكنه من المساهمة الفاعلة في شؤون مجتمعه ومن ثَمَّ أمته، وإشباع حاجاته المادية والمعنوية والروحية: لَمِن أولى أولويات هذه الإستراتيجية؛ فالإنسان هو وسيلة التنمية وغايتها.

توطين العمل الإسلامي:

تامت - بحمد الله وفضله - القدرات المسلمة في جنوب السودان خلال العقود الماضية بفضل الوجود المكثف للمسلمين خلال الحرب، وقبل ذلك بفضل الوجود الإسلامي القديم فيه، فينبغي ضرورةً سدُّ الفجوات المعرفية والسلوكية للدعاة المحليين؛ إذ هم الأحرص على أهلهم، والأعرف بالواقع، والأجدر ببذل الجهد.

غير أن العمل في جملته لا يزال في طور البناء والتأسيس إن لم يكن في طورٍ قبل ذلك، ويحتاج تأصيلاً وترسيخاً بعمق. وإن الاتجاه إلى تعميق الدعوة الإسلامية، وإعداد جملة من القيادات تنطلق باقتدار في المجتمع المسلم لا تعيق ولا تعاق، لتنقل جيل الصحوة الناهض في جنوب السودان من مرحلة التلقي المستمر والانتظار الدائم للهبات والمنَح (ماديةً كانت أو معنوية)، إلى جيل معطاء قادر على قيادة المجتمع المسلم بكفاية وفاعلية؛ لَمِن الأوليَّات.

وإن المخاطر الكبيرة على العمل الإسلامي في ظل التغيرات المؤَّارة التي يمرُّ بها العالم تجاه الإسلام والمسلمين، تفرض بالضرورة إستراتيجيات تناسب المرحلة، وتنقل مراكز الثقل إلى وحدات طرفية، فيقل التركيز وتتسع المساحة. فَلْتكن من السياسات التي ننتهجها: الانتقال من الممارسة إلى المساندة، ثم التوطين؛ بعد ضمان الكفاية والفاعلية في العاملين والكيانات الإسلامية في الجنوب.

إن إيجاد جمعيات ومنظمات محلية متخصصة ذات كفاية وفاعلية في العمل الدعوي سيحقق قدراً كبيراً من النجاح لهذه الغاية. كما أن إشاعة روح العمل المؤسسي البعيد عن الفردية والشخصية من أهم أولويات هذه الغاية. وتقوم هذه الغاية على إيجاد أفراد وكيانات قادرة على العمل، جديرة بالميراث الكبير الذي خلفته منظمات العمل الإسلامي في إفريقيا عامة، وهو ما يصطلَح عليه بـ (توطين الخبرات) في هذا المسار الإستراتيجي.

ويقتضي النهوضُ بالواقع الإسلامي وتوطين العمل فيه وجودَ عناصر قائدة، تفعَّل بغير أَسْرٍ أو تضييق عليها بما قد يفرضه واقع العمل الإسلامي في هذه المرحلة. إن تحسين وضع القيادات من الإستراتيجيات المهمة في هذه الغاية.

يجب السعي إلى ترسيخ التخصصية وتوفير مقتضياتها للجمعيات والمنظمات والكيانات العاملة بالجنوب وسدِّ الثغرات بجمعيات متخصصة في المجالات الأكثر احتياجاً وفي المناطق الأكثر أهمِّية.

التنمية المستدامة للدعاة:

إن قضية التطوير والترقية المستمرة للدعاة من أولى الغايات التي ينشدتها العمل الإسلامي الدعوي؛ حيث يجب تنفيذ الدورات التطويرية والتأهيلية، وتوزيع ومدارسة الإصدارات الفكرية والمنهجية بهدف بناء الدعاة بناءً متكاملاً.

تعاني الدعوة الإسلامية في السودان عموماً من نقص تربوي كبير وسط الشباب الذين درسوا في كليات شرعية أو معاهد إسلامية، في دولة لا توفر الشهادة الشرعية فيها التوظيف الحكومي أو الخاص إلا النزر اليسير.

إن العمل على بناء دعاة المستقبل وتهيئتهم للدور الكبير المنوط بهم في مجتمعهم، بتربيتهم تربية إسلامية متكاملة: يعد من القضايا المهمة في هذه الغاية.

يحتاج الدعاة وحَمَلة لواء البلاغ إلى التطوير في الجوانب الفكرية والاحترافية لضمان أداء أمثل يرتقي بواقع المسلمين في الجنوب نحو الغاية الكبرى، (تمكين الإسلام فيه).

إن توفيرَ الاحتياجات الأساسية للدعاة، وكفالةَ سبل العيش الكريم لهم لَمِن الأمور المهمة؛ إذ لا تزال المعاناة من قلة المخصصات وعدم كفايتها للاحتياجات الأسرية والمجتمعية قائمة أحياناً، في منطقة هي الأفقر في العالم (ليس طبيعياً ولا مواردياً)؛ ولكنها منهكة بواقع قبلي تسوده روح الاقتتال والاحتراب: من المشكلات التي تعيق عمل الدعاة وتشغلهم عن واجباتهم الأساسية.

تفعيل النخب:

تهدف هذه الغاية إلى التمكين للإسلام عبر الشرائح المسلمة ذات النفوذ في المجتمع: من تشريعيين وتنفيذيين ورجالات الخدمة المدنية والمثقفين وطلاب الجامعات المسلمين في جنوب السودان.

إن التجارب التاريخية قد أثبتت مدى النجاح الذي يتحقق لصالح الإسلام عندما يكون صاحب القرار المسلم مستمسِكاً، يزعُ الله بسلطانه ما لا يزعُ بالمواعظ والخطب.

إن نقل النخب المسلمة في الجنوب من مجرد الانتماء الاسمي للإسلام إلى العطاء الفعلي: هو إستراتيجية هذه الغاية، الأمر

الذي يتطلب جهداً مركَّزاً في تنميـــة الوازع الديني وتغذية روح الانتماء الحقيقي للإســـلام، وتقديم البدائل الشـــرعية للأسس والمفاهيم الوضعية، وهو ما سيمكِّن للإسلام في جنوب السودان عبرهم بإذن الله.

وإن تجسير الفجوة بين الدعاة والنخب، والعمل مع النخب مـــن أوقات مبكِّرة، بصياغة مجموعـــة من الطلاب الجامعيين النـابغين لأداء أدوار قيـادية في مجتمعاتهم من الإستراتيجيات المهمة لهذه الغاية كذلك.

من الأطر العملية:

لا بد لتلك الإســـتراتيجية النظرية من قوالب عملية تُنَزَّل عليها، ولا بد لها أن تراعي المحاور المختلفة بما يحقق الأهداف المرجوة.

محور الدعاة:

الدعـــاة هم ركيزة الدعوة الأساســـية وعمادها، والاهتمام بهم ورعايتهـــم وتطويرهم (علمياً وإعلامياً ومادياً) ضرورة من ضرورات الدعوة، وواجب على كل مهتم بها.

أهداف المحور:

• تأهيل الدعاة الجنوبيين شرعياً بصورة تمكِّنهم من ضمان سلامة الرسالة وتأثير الأسلوب.

• تدريب الدعاة الجنوبيـــين تقنياً وإعلامياً؛ بحيث يبدعون أخذاً وعطاءً: أما أخذاً: فبمعرفة أساليب الاستفادة من التقنيات الحديثة والمصادر الإلكترونية والإعلامية المتطورة، وأما عطاءً: فبالاطلاع على ما من شأنه الاستفادة من إيصال رسالتهم عبر الوســـائل الحديثة. (تحقيق الكفاف والغُنية للدعاة الجنوبيين وأسرهم ليتفرغوا لبلاغ الدعوة).

مشروعات المحور:

• تدريب الدعاة الجنوبيين: ويشـــمل تدريب الأئمة والدعاة الجنوبيين وتأهيلهم؛ لحاجتهم الماســـة للعلـــم والمعرفة، ويركز المشروع على تدريب الدعاة المؤثِّرين والمتميزين، ويراعي المشروع أيضاً خصوصيات المناطق وفهم الدعاة من أهلها لمشـــكلاتهم، إضافة إلى الاهتمام بالتأهيـــل العلمي لخريجي (الخلاوي)[1] التقليدية من حفظة القرآن الكريم.

• الكفـــالات والدعـــم المباشـــر: دعماً لاســـتقرار الدعاة وتنشيطهم وتفريغهم.

• المســـاعدات الموســـمية: يرمي هذا المشـــروع إلى إدخال السرور إلى نفوس الدعاة الجنوبيين في المواسم المختلفة، بتوزيع مستلزمات المناسبات المختلفة، مثل السلال الرمضانية، وكسوة العيدين، والأضاحي.

محور الدعوة:

لا تـــزال الدعوة العامة هي الأســـلوب المفضل والمؤثر لدى كثيريـــن من الدعاة؛ من خلال التفرغ المعنوي والجســـدي لها، إضافة إلى أنها أوقع في النفس، وأقرب إلى الاستفادة المباشرة بالنقاش والحوار.

أهداف المحور:

• نشر آداب الإسلام وتعاليمه في أوساط المسلمين الجنوبيين وتعريفـــهم بالعقائد وأحكام العبـــادات وغيرها حتى تتحقق لهم العبادة على بصيرة.

• بســـط المعرفـــة الحقة بدين الإســـلام في أوســـاط كل المجتمعـــات الجنوبيـــة، وإزالة الشـــبهات والأكاذيب حول دين الإسلام.

• دعوة غير المســـلمين من الجنوبيـــين إلى الدخول في دين الله تعالى.

مشروعات المحور:

الدورات الشـــرعية والتأهيلية: وهي تســـهِّل العلم وتقرِّبه للدعاة الجنوبيين؛ حيث إنها تركِّز على الكتب العلمية المختصرة وعرض أمهات المسائل، وأساليب الدعوة والحوار.

المحاضرات الدعوية: وتسعى إلى التركيز على موضوعات محـــددة، وعلى موضوعـــات التعريـــف بالإســـلام وأخلاقه ومعاملاته.

رعاية المهتدين (المسلمين الجدد): ببيان القَدْر المفروض من العبادات والعقائد؛ من خـــلال المحاضرات والندوات والتأهيل العلمي، وتوزيع المواد الدعوية من أشرطة سمعية، وأسطوانات، وكتب، ورسائل دعوية، بلغات مناسبة لهم.

محور التواصل:

التواصـــل مع الفئات والمناطق المختلفـــة من أهم متطلبات الدعوة ونشـــر العلم الشـــرعي، ومن خلاله يتمكن الدعاة من صقل تجاربهم وزيادة خبراتهم، ووصول دعوتهم ورسالتهم إلى كافة المجتمعات.

أهداف المحور:

• ربط الإخوة المسلمين في الجنوب مع إخوانهم في الشمال، وتقوية أواصر الأخوة الإيمانية بينهم.

• دعم تواصل الدعاة الجنوبيين وسائر المسلمين في الجنوب

(١) الخلاوي: يقصد بها المكان الذي يخلو فيه الطالب لنهل العلم النافع من القرآن وشيء من التفسير والحديث، إضافة إلى علوم اللغة العربية الفصحى والرياضيات... إلخ. (البيان)

بالعلماء الراسخين للاستفادة من علمهم وتجاربهم ووسطيتهم وتأهيلهم للدعوة على بصيرة وبالحكمة والموعظة الحسنة.

• ربط الدعاة الجنوبيين بعضهم ببعض ليقوموا بواجبهم الدعوي.

• عكس واقع الدعوة الإسلامية في الجنوب لبقية العالم الإسلامي عبر علمائه ودعاته.

• إعداد عناصر مؤهلة لتنظيم الأعمال الدعوية بالجنوب.

مشروعات المحور:

القوافل الدعوية: تتيح القوافل الدعوية للأئمة والدعاة الجنوبيين فرصة الالتقاء بالمشايخ وأساتذة الجامعات والمتخصصين مما له الأثر الطيب في الارتقاء بالمَلَكة العلمية للفئتين والوقوف على الواقع الحياتي والديني في الجنوب.

الاستضافات الخارجية: يتيح الفرصة للعلماء والمتخصصين من مختلف أنحاء العالم اللقاء والتفاكر حول القضايا التي تهم الدعوة الإسلامية في إفريقيا.

محور الإعلام:

الإعلام وسيلة لتحقيق غاية مقصودة، والحكم عليه مرتبط بطبيعة الاستخدام، وبطبيعة الغاية المرجوة منه. وقد أصبح في زماننا ضرورة لا بد منها على الصعيد العالمي والمحلي، وعلى صعيد الأفراد والجماعات أو المؤسسات، يخدم الأفكار والمبادئ والاتجاهات.

أهداف المحور:

• مخاطبة جماهير المسلمين في الجنوب، وبيان الأحكام والتعاليم الإسلامية، ومواجهة ما يبرز من قضايا بين حين وآخر، وحل مشكلات تلك الجماهير، ومتابعة همومها.

• الرقي بفكر المسلمين في الجنوب، وإشاعة الثقافة الإسلامية بمبادئها السامية، وقيمها الرفيعة، والسعي لتوحيد الأمة (فكراً ووجداناً وولاءً)، مع بث روح الأُلفة والمودة والتعارف والتآلف والانسجام ونبذ العنصرية.

• إبراز الدعاة الجنوبيين، وتسليط الضوء على القضايا المحلية.

مشروعات المحور:

البث الفضائي: باللغتين العربية والإنجليزية وبلهجات محلية، ملتزماً نهج الإسلام الإعلامي الدعوي، برؤى عصرية، وبرامج نوعية. ولا بد من توفير (بث أرضي) لهذا المشروع؛ يمكِّن القِطاعات الفقيرة من الاستفادة من برامجه.

البث الإذاعي: الذي يستهدف الولايات الجنوبية، ويلتزم نهجاً دعوياً معتدلاً، وتراعى فيه خصوصيات المناطق.

الإنترنت: واحدة من أوسع الوسائط الإعلامية الحديثة انتشاراً، وقدرةً على تخطي الحواجز، وتأثيراً في المجتمعات، ويتزايد ارتباط الناس بها يوماً بعد يوم، وأصبح تقديم الدعوة ونشر المفاهيم الإسلامية عبر الشبكة ضرورة دعوية ملحَّة، وواقعاً لا يمكن تجاوزه. ويتسع طيف نوعية المواد المعروضة ليشمل أشكالاً عدَّة (مقالات، دراسات، محاضرات، خطب، أخبار...)، ومستهدَفين كثر (باحثين، شباب، نساء، أطفال...)، ويشكل الإنترنت وسيلة اتصال سريعة ومضمونة.

النشر الإلكتروني: يشمل استحداث برامج تمكِّن من انتشار الدعوة عبر الوسائط الحديثة: برامج الجوال، الأقراص المدمجة للبرامج الدعوية العامة والخاصة، والإنتاج الدعوي الحديث، خدمات الرسائل النصية المتخصصة.

ختاماً:

تبقى هذه الرؤى والأفكار في إطار الجهد البشري المعرَّض للخطأ، وهي عرضة للتغير حسب ما يستجد من أحوال، مع كونها رهينة بإمكانية التنفيذ على أرض الواقع. ولعلها أن تكون نواة للتفكير في الخروج بمسلمي جنوب السودان من أزمتهم، وقادحاً لأفكار أخرى يُكتَب لها مزيد من البحث والنظر، ولعلها كذلك أن تكون منبهة للمهتمين بالدعوة الإسلامية ونشرها ورعايتها لبعض ما يجب عليهم.

والله الهادي إلى سواء السبيل.

مرصد الأخبار

مأساوية الاعتقال لسلفيي المغرب

قرر معتقَلو «السلفية الجهادية» في سجن وجدة بشرق المغرب تعليق إضرابهم عن الطعام لإفساح المجال أمام مسؤولي السجن لتلبية مطالبهم بتحسين ظروفهم الاعتقالية، في حين أعلن معتقلون آخرون في سجن طنجة بشمال البلاد خوضهم إضراباً عن الطعام للأسباب نفسها.

ومن جهة أخرى استنكر معتقلون سلفيون في سجن سلا قرب الرباط الممارساتِ التعسفيةَ التي يعانون منها؛ وخاصة «سوء المعاملة والتضييق والمراقبة الدائمة»، زيادة عمَّا اعتبروه «ممارسات مخلَّة».

واحتجاجاً على الحالة التي يعيشها المعتقلون السياسيون والإسلاميون في المغرب، نُظِّمت وقفة احتجاجية أمام المندوبية العامة للسجون بالرباط آخر شهر ديسمبر ٢٠١٠م.

وفي الإطار نفسه، تضمَّن بيان المعتقلين الإسلاميين في سجن سلا تفاصيل ظروف اعتقال كلٍّ من (ضحى أبو ثابت) و (فوزية أزوكاغ). كما أفاد البيان وجود سجينات مصابات بأمراض عقلية يصرخن ليل نهار ولا يسأل عنهن أحد، كما نبَّه إلى أن الاكتظاظ الذي تعيشه المؤسسات السجنية يمنع من أداء الشعائر الدينية البسيطة.

[موقع الجزيرة (بتصرف): ٢٠١١/١/١م]

جلال سعد الشايب
galal_elshayp@hotmail.com

حتى الطيور لم تسلم!

احتجزت السعودية نسراً عُثِر عليه في إحدى مناطق شمال البلاد بشبهة استخدامه لأغراض رصد لصالح إسرائيل بعد أن عُثِر على شارة عُلِّقت بإحدى رجليه كُتِب عليها: جامعة تل أبيب.

ويؤكد بعض المسؤولين السعوديين أن النسر كان يحمل جهازاً لتحديد المواقع الجغرافية عبر الأقمار الصناعية؛ قادراً على بث الإشارة لاسلكياً. كما نشرت مواقع عربية تقارير تشير إلى أن دخول النسر إلى الأراضي السعودية عبارة عن «مؤامرة صهيونية».

ونفى مسؤولون إسرائيليون في مجال «الحياة البرية» هذه المزاعم مبدين مخاوف بشأن سلامة الطير.

وأشارت صحيفة معاريف الإسرائيلية إلى أن الأشخاص الذين عثروا على الطير شعروا بالريبة بعد أن شاهدوا جهاز تحديد المواقع عبر الأقمار الصناعية فقاموا بتسليم الطير والأجهزة للسلطات المحلية.

وأشارت الصحف السعودية وعدة صحف عربية إلى احتمال استخدام جهاز الاستخبارات الإسرائيلي، الموساد، للطيور لجمع المعلومات.

[موقع بي بي سي (بتصرف): ٢٠١١/١/٥م]

تهيُّب أمريكا من التقدم العسكري الصيني

أعرب وزير الدفاع الأمريكي، روبرت غيتس، قُبَيل وصوله إلى بكين عن أن التقدم العسكري الذي أحرزته الصين مؤخراً «لديه القدرة على وضع قدرات الولايات المتحدة في المحيط الهادئ في خطر». وفي تصريحات أدلى بها للصحافيين أكد غيتس أن الصين تبدو كأنها قد حققت تقدُّماً أكثر مما توقعت الاستخبارات الأمريكية في مجال تطوير طائرة من طراز جي ٢٠ (J – ٢٠)، وهي أول طائر شبح نفاثة مقاتلة مزودة بصواريخ مضادة للسفن تقوم الصين بتطويرها.

ومن جهة أخرى صرَّح وزير الدفاع الصيني ليانغ غوانغلي عقب المحادثات التي أجراها مع نظيره الأمريكي الزائر غيتس بأن التقنية العسكرية الصينية متخلِّفة بعقود عن تلك التي تمتلكها الدول المتقدمة، وأن الجيش الصيني لا يهدد أي بلد آخر.

كما قال ليانغ للصحفيين: «إن الجهود التي نبذلها في تطوير الأنظمة التسليحية لا تستهدف أي بلد آخر بأي حال من الأحوال، ولا تشكِّل مصدر تهديد لأحد».

ويُشار إلى أن بكين كانت قد جمَّدت علاقاتها العسكرية مع الولايات المتحدة العام الماضي بسبب بيع بكين أسلحة إلى تايوان قُدِّرت قيمتها بمليارات الدولارات.

[مواقع: ٢٠١١/١م]

فلسطينيات مقاتلات... خطر يهدد إسرائيل!

أماطت شبكة «سي إن إن» اللثام عن قيام ألوية الناصر صلاح الدين (الجناح العسكري للجان المقاومة الشعبية) بفلسطين بتدريب أعداد من النساء للقيام بعمليات استشهادية ضد جيش الاحتلال الصهيوني.

وسط صيحات «الله أكبر» التي تطلقها هؤلاء النسوة اللواتي يتدرَّبْن على فنون القتال بأماكن صحراوية بقطاع غزة، واللواتي أعربن عن استعدادهن لخوض معارك ضد الكيان الصهيوني.

وتتدرب هؤلاء النسوة على استخدام أسلحة متنوعة، مثل الكلاشينكوف وقذائف الآر بي جي وزرع الألغام.

وأكدت إحداهن على أنها مدرَّبة وجاهزة لتنفيذ عملية استشهادية ضد الجنود الصهاينة، رافضة أي تشكيك فيما إذا كان الإسلام يسمح للمرأة بالقتال، قائلة: إن المرأة كانت تقاتل إلى جانب الرسول محمد ﷺ، ولذلك ليست هناك أي مشكلة لها في ذلك.

[موقع سي إن إن، والإسلام اليوم: ١٢/١/٢٠١١م]

المحمول يتسبب في ٢٥ ٪ من حوادث الطرق

أكدت الدكتورة ناهدة الزهير (رئيسة حملة «لنحميهم» والمديرة العامة لمكتب معارف الصحة المنظمة للحملة)؛ على أنه ليس هناك دراسات وإحصائيات سعودية تحذِّر من مخاطر استخدام الجوال من النواحي الصحية والاجتماعية والاقتصادية على الأطفال خصوصاً والكبار بشكل عام، مؤكدة أن ٢٥ ٪ من حوادث السيارات كانت بسبب استخدام الهواتف المحمولة أثناء القيادة.

وأشارت إلى أن استخدام الجوال أثناء القيادة لا يكون إلا للضرورة القصوى أو في حالات الطوارئ للحفاظ على السلامة العامة، منوِّهة إلى أهمية التعاون مع الأفراد والمؤسسات الحكومية، داعية المؤسسات الحكومية المهتمة بالبحوث بعمل دراسات محلية وخليجية لدراسة ظاهرة استخدام الجوال أثناء القيادة وعمل إحصائية علمية بالأضرار الناجمة إزاء ذلك.

[اليوم السعودية: ١٥/١/٢٠١١م]

وشهد شاهد من أهلها

قالت رئيسة حزب كاديما تسيبي ليفني: «إن من يؤمن بحل الدولتين لشعبين يعرف جيداً أن هذا يخدم مصالح إسرائيل وليس منَّة من أحد على الجانب الآخر، وعلينا أن نقرر الآن من أجل منع فرض حلٍّ علينا». كما أضافت خلال محاضرة في جامعة تل أبيب أنه: «يجب العمل من أجل التوصل إلى حل الدولتين؛ لأننا سنجد أنفسنا أمام خيارات أخرى منها إقامة دولة واحدة من النهر إلى البحر، عندها ستصبح الحركة الصهيونية فقط جزءاً من كتب التاريخ». مهاجمةً رئيس الحكومة، بنيامين نتنياهو، بأن إسرائيل تحولت إلى دولة منبوذة في العالم بسبب سياسة حكومة نتنياهو ووزير خارجيته ليبرمان؛ فـ «نتنياهو وحزبه السبب في أن وضع إسرائيل في العالم لا تحسد عليه؛ لأن العالم كله اليوم ضد إسرائيل، ونتنياهو وحزبه ضد العالم».

[القدس: ١٧/١/٢٠١١م]

علامة تعجب

رعاية الآباء بالقانون!

تدرس السلطات الصينية مشروع قانون يجعل زيارة الناس لآبائهم المسنين ورعايتهم لهم أمراً واجباً من الناحية القانونية؛ فبموجب مسودة القرار الذي أُعلن عنه عبر وسائل الإعلام الحكومية، سيكون بإمكان المسنين الطلب من المحاكم والقضاء فرض حقهم في الحصول على رعاية معنوية وفعلية من أبنائهم.

وخاصة بعد أن شعرت السلطات بالقلق من القصص المتكررة عن المسنين الذي يموتون من دون أن ينتبه إليهم أحد؛ وذلك على الرغم من ارتفاع عدد دور الرعاية الاجتماعية في الصين.

ويوجد في الصين حالياً نحو ١٧٦ مليون نسمة ممن هم فوق الستين من العمر، منهم قرابة مليون شخص تجاوزوا ثمانين سنة.

وذلك في الوقت الذي أوجب فيه الإسلام الاهتمام بالوالدين ورعايتهم من قبل أربعة عشر قرناً وزيادة، وهو ما جاء في القرآن والسُّنة.

[تليفزيون CCTV العربية: ٢٠١١/١/١٢م]

مَنْع الأذان أمر رئاسي!

للمرة الأولى منذ نصف قرن بدأت القنوات التونسية الرسمية تبث صوت الأذان بعد أن منعه الرئيس الهارب ابن علي مع بداية توليِّه أمور البلاد عام ١٩٨٧م.

وقامت قناة (تونس ٧) الرسمية، بقطع النشرة الإخبارية لبثِّ الأذان بعدما تميز عهد الرئيس المخلوع زين العابدين بن علي بعدم بث الأذان نهائياً في التليفزيون الرسمي.

وفي غضون ذلك تجمع عدد كبير من الشباب وأقاموا الصلاة جماعة بأحد الشوارع العامة في مشهد غير معهود في تونس، كما ارتدت جماعات من النساء الحجاب الشرعي دون أن تتعرض لهن الجهات الأمنية.

وذكرت مصادر صحفية أن الرئيس المخلوع كتب وثيقة بخط يده يأمر فيها ببث عناصر أمنية خاصة تقوم بمراقبة المحجَّبات التونسيات ومتابعة رواد المساجد والقادمين من الجزائر.

[جريدة الشروق الجزائرية: ٢٠١١/١/١٦م]

من هنا وهناك

أحداث تونس في عناوين الصحافة

- في ٢٠١٠/١٢/١٩م مواجهات بين قوات الأمن ومحتجين في تونس.
- في ٢٠١٠/١٢/٢٥م تونس: قتيل بمواجهات بين شبان والشرطة.
- في ٢٠١٠/١٢/٢٦م تونس: تجدُّد المواجهات في ولاية سيدي بوزيد.
- في ٢٠١٠/١٢/٢٧م تحذير من «عصيان مدني».
- في ٢٠١٠/١٢/٢٨م ابن علي: الاحتجاجات ضد البطالة غير مقبولة.
- صمت دولي مطبق إزاء تونس.
- في ٢٠١٠/١٢/٢٩م محامو تونس ينتفضون.
- في ٢٠١٠/١٢/٣١م تضامن بباريس مع احتجاجات تونس.
- في ٢٠١١/١/١م جراح تونس الخمسة.
- في ٢٠١١/١/٤م احتجاج واشتباك بمدينة تالة التونسية.
- في ٢٠١١/١/٥م وفاة البوعزيزي مفجِّر احتجاجات تونس.
- في ٢٠١١/١/٦م تونس تشيِّع مفجِّر الاحتجاجات.
- جنازة البوعزيزي أكبر من جنازة بورقيبة
- في ٢٠١١/١/٨م انفجار محدود بقنصلية تونسية قرب باريس.
- في ٢٠١١/١/٩م تونس: ١٤ قتيلاً في المصادمات بين الأمن والمتظاهرين.
- في ٢٠١١/١/١٠م ٢٥ قتيلاً سقطوا في احتجاجات تونس.
- الحكومة تغلق المدارس والجامعات.
- إضراب عشرات الصحفيين بتونس.
- في ٢٠١١/١/١١م أوروبا تدعو تونس لإطلاق المعتقلين.
- الاحتجاجات في تونس تلقى صدى في الشارع العربي.
- الاضطرابات تمتد إلى ضواحي العاصمة التونسية.
- في ٢٠١١/١/١٢م الاضطرابات تمتد إلى ضواحي العاصمة التونسية.
- في ٢٠١١/١/١٣م تدهور الوضع الأمني بتونس، تونس عِبْرة للعرب.
- في ٢٠١١/١/١٤م تونس تنهي حجب مواقع إلكترونية.
- تونس: إعلان حالة الطوارئ وإقالة الحكومة.
- في ٢٠١١/١/١٥م اعتصام تضامني مع تونس بالنرويج.
- ابن علي غادر، ولكن هل يمكن أن تتغير تونس؟
- فيس بوك وتويتر يكسران حاجز الصمت في تونس.
- تونسيو لندن يحتفون بسقوط ابن علي.
- أزمة تونس درس للقادة العرب.
- في ٢٠١١/١/١٦م مساع لتشكيل حكومة وحدة بتونس .
- مشاورات لتشكيل الحكومة بتونس.
- مظاهرات بمصر احتفاءً بثورة تونس.
- مظاهرة بإيطاليا تحية لانتفاضة تونس.
- تحذير من نموذج تونسي باليمن.
- دعوة موريتانية للاعتبار بثورة تونس.
- ابن علي يستبعد سيناريو تونس عربياً.
- هل تُلهِم الثورة التونسية الشعوب؟
- تونس أفرحت الشعوب وأخافت الحكام.
- الاضطرابات تُلحِق خسائر جسيمة بصناعة السياحة.
- تونس: اعتقال مدير الأمن الرئاسي السابق.
- آلاف السياح يغادرون تونس بسبب الوضع الأمني.
- الرئيس الليبي ينتقد أحداث تونس.
- تونس: مشاورات لحكومة وطنية وسط هدوء حذر.
- تخوُّف من أزمة غذاء في تونس.
- في ٢٠١١/ ١/١٧م تونس: أول ثورة يشعلها ويكيليكس.
- عدوى «الاحتجاج حرقاً» تنتقل من تونس للجزائر.
- مصر تستبعد انتقال أحداث تونس.
- إسرائيل تخشى إسلاميي تونس.
- مراقبون: النموذج التونسي قابل للتطبيق بمصر.
- حكومة وحدة تُعلن في تونس اليوم.

صادق مجلس النواب الأمريكي على تخصيص مبلغ بقيمة ٢٠٠ مليون دولار لمساعدة إسرائيل في نشر منظومة القبة الحديدية لاعتراض القذائف الصاروخية وقذائف الهاون.

ويقول مسؤولون إسرائيليون: إن شبكة الدفاع الجوي الإسرائيلية متعددة المراحل ستكتمل بحلول عام ٢٠١٥م، وستضم صواريخ اعتراضية متوسطة المدى وأقماراً صناعية تدمِّر الصواريخ بعيدة المدى في الفضاء.

[تليفزيون روسيا اليوم: ٢٠١٠/١٢م]

تكبَّد الاقتصاد العالمي خلال عام ٢٠١٠م ما يعادل ٢٢٢ مليار دولار نتيجة للكوارث التي تعرَّض لها العالم؛ سواء كانت طبيعية أو من صنع البشر وهو ما يزيد على ثلاثة أمثال خسائر الكوارث في عام ٢٠٠٩م، وكانت ٦٣ مليار دولار.

ووَفْقاً للأرقام التي رصدتها شركة إعادة التأمين السويسرية العملاقة (سويس ري)؛ فإن صناعة التأمين في العالم دفعت تعويضات خلال العام الحالي قدرها ٣٦ مليار دولار بزيادة نسبتها ٣٤ في المائة عن تعويضات عام ٢٠٠٩م.

وفي الوقت نفسه فإن حجم الخسائر البشرية نتيجة كوارث العام المنصرم كان الأعلى منذ عام ١٩٧٦م؛ حيث بلغ ٢٦٠ ألف قتيل مقابل ١٥ ألف قتيل فقط في كوارث عام ٢٠٠٩م بحسب (سويس ري). وكان زلزال هايتي الذي وقع في كانون الثاني (يناير) الماضي صاحب نصيب الأسد من ضحايا الكوارث عام ٢٠١٠م . وفي روسيا أدَّت موجة الحَر والحرائق التي ضربت البلاد الصيف الماضي إلى وفاة نحو ١٥ ألف شخص في حين قتلت فيضانات الصين وباكستان نحو ٦٢٢٥ شخصاً. [الاقتصادية: ٢٠١٠/١٢/٣١م]

وَفْقاً لتقرير أعدَّه قسم الأديان والحياة الاجتماعية لمركز «بيو» الأمريكي للأبحاث؛ فإن عدد المسلمين في العالم بلغ ١,٥٧ مليار مسلم.

وقام باحثو المركز بإعداد هذا التقرير على مدى ثلاث سنوات. ولإخراج هذه المعلومات استخدم الباحثون ١٥٠٠ مصدر، ودرسوا معطيات الإحصاء السكانية، وقاموا بدراسات سكانية، مع إجرائهم لاستطلاعات للسكان في ٢٣٢ دولة ومنطقة في العالم.

وحسبما أشارت إليه نتائج البحث؛ فإن ٦٠ ٪ من مسلمي العالم يعيشون في آسيا، و٢٠ ٪ في المنطقة العربية وشمال إفريقيا.

أما في أوروبا فيبلغ عدد المسلمين فيها ٣٨ مليوناً؛ وهو ما نسبته حوالي ٥ ٪ من إجمالي عدد سكان أوروبا. ومن ٤٦٠ مليون مسلم يعيشون في الأمريكيتين، يعيش نصفهم في الولايات المتحدة الأمريكية.

وللتذكير بما جاء في صحيفة التلغراف البريطانية في شهر أغسطس الماضي فإن عدد المسلمين في القارة الأوروبية سيتضاعف أربع مرات ليصل عام ٢٠٥٠ إلى نسبة ٢٠ ٪ من عدد سكان القارة. [شبكة نور الإسلام: ٢٠١١/١/١م]

أشارت دراسة حول مدينة القدس المحتلة، أعدَّها الدكتور جهاد أبو طويلة (وهو باحث فلسطيني) إلى أن سلطات الاحتلال صادرت ٨٦ ٪ من مساحة شرق القدس، وهو ما يعني فرض أمر واقع، لا يمكن لأي عملية تسوية أن تغيره.

[موقع المركز الفلسطيني للإعلام: ٢٠١١/١/٥م]

أوضحت صحيفة «الإندبندنت» البريطانية أنَّ قتل المسلح الواحد على أيدي قوات الاحتلال الأمريكية في العراق أو أفغانستان يحتاج إلى ما يقدَّر بنحو ٢٥٠ ألف رصاصة؛ بحيث إن شركات صناعة الرصاص الأمريكية لم تعد قادرة على تلبية احتياجات القوات الأمريكية من الرصاص، الأمر الذي دفعها إلى استيراد الرصاص الإسرائيلي.

ففي تقرير حكومي ورد أن القوات الأمريكية استعملت ١,٨ مليار رصاصة للأسلحة الخفيفة في السنة، وهو ما يعني أنَّ الرقم تضاعف عدة مرات في السنوات الخمس الأخيرة.

كما أشار التقرير إلى أن الولايات المتحدة اشترت ٣١٣ مليون رصاصة من عيار ٥,٥٦ مم، و ٧,٦٢ مم العام الماضي، ودفعت ما قيمته ١٠ ملايين دولار ثمناً لذلك، وهو رقم يفوق تكلفة إنتاج الرصاص في مرافقها.

[جريدة النهار اللبنانية: ٢٠١١/١/١٠م]

أظهر استطلاع أعدَّته شركة كي بي أم جي للمحاسبة أن المحاكم البريطانية العام الماضي شهدت ٣١٤ قضية احتيال تسببت في خسائر قد تصل قيمتها إلى ١,٤ مليار جنيه إسترليني. وأوضح مؤشر الشركة الخاص برصد قضايا الاحتيال أن ٤٢,٥ في المائة من هذه القضايا كان يتعلق بالمال العام.

كما سجلت هذه القضايا ارتفاعاً بنسبة ٢٠ في المائة؛ حيث وصل عدد القضايا إلى ٧٠ قضية عام ٢٠١٠م مقارنة بالعام الذي سبقه، ورصد التقرير أهم ثلاث قضايا احتيال في أسكتلندا تتعلق بصيد الأسماك؛ بعد أن قدَّم صيادون أوراقاً مزيفة لإخفاء الكمية التي قاموا باصطيادها محققين مكاسب تصل إلى ٣٧ مليون جنيه إسترليني.

[موقع محيط: ٢٠١١/١/١١م]

الأقلية المسلمة في مالاوي

د. أحمد محمود السيد
mr.ah54@hotmail.com

تقع دولة مالاوي في الجنوب الشرقي من إفريقيا جنوب خط الاستواء، تحدُّها تنزانيا من الشمال الشرقي، وزامبيا من الجنوب الغربي، وتحيط موزامبيق بنصفها الجنوبي.

يبلغ عدد سكانها ١٥ خمسة عشر مليون نسمة (طبقاً لتقديرات عام ٢٠٠٨م)، وتوزيع الأديان فيها على النحو التالي :

بروتستانت (٥٥ ٪)، روم كاثوليك (٢٠ ٪)، مسلمون (٢٠ ٪)، معتقدات تقليدية (٣ ٪)، آخرون (٢ ٪) . هذا معناه أن المسلمين يتجاوز عددهم ثلاثة ملايين نسمة.

وقد رُسمَت السياسة الاجتماعية الحكومية وَفْقاً لنسبة السكان. فنسبة المسلمين في السجلاَّت الرسمية ١٢ ٪؛ ولذلك فإن السياسة تطبَّق وَفْقاً لهذه النسبة، ومثال ذلك: تقسيم المساعدات التي تأتي من الخارج يكون وَفْقَ هذه النسبة، والحقيقة أن شيئاً لا يُعطى للمسلمين.

كما أنه لا توجد دروس دينية في مدارس الدولة؛ باعتبار أن النسبة هي ١٢ ٪ فقط، والحكومة المالاوية ترفض قبول طلب تدريس العلوم الدينية في المدارس متذرِّعة بأن عدد المسلمين «غير كاف». أما المسلمون المالاويين فإنهم يؤكدون أن نسبتهم لا تقلُّ هناك عن٤٠ ٪.

وتنقسم الجماعات الإثنية إلى: التشيوي والنيانجا والتومبوكو والياو واللوموي والسنيا والتونجا والنجوندا. وتشكِّل جماعة التيشيوي ٩٠ ٪ من سكان الوسط، ويعيش النيانجا في الجنوب والتومبوكو والتونجا في الشمال، أما الياو المسلمون فيتركزون على الحدود الجنوبية الشرقية.

اللغات الرسمية هي الأندليزية والشيشيوا ويتحدث المسلمون (لغة الياو ولغة النيانجا).

ولمعرفة بدايات الإسلام في مالاوي يجب الرجوع إلى التاريخ الذي دخل فيه الإسلام إلى موزمبيق؛ ذلك أن قبيلة الياو – وأصلها من موزمبيق – هي التي أدخلت الإسلام إلى مالاوي، وكان ذلك بين عامي ١٨٥٠م – ١٨٧٠م؛ حيث اعتنقت هذه القبيلة الإسلام حوالي القرن الخامس عشر لما أسس تجار العرب من شرق إفريقيا مركزهم التجاري في موزمبيق عند منطقة تيتي.

وتعتبر مدينة منغوش من المدن الإسلامية الموجودة في مالاوي، وهي مهددة بالنشاطات التبشيرية من كل الجهات لتحويل المسلمين عن دينهم الحنيف إلى الكفر.

تعيش دولة مالاوي أقصى درجات البؤس؛ في حين أنها تمتلك جميع المقومات التي تجعلها غنيَّة مرفَّهة؛ وذلك بسبب الاستعمار الإنجليزي الذي نهب الثروات حتى بعد خروجه من البلاد بفضل عملائه الذين يشرفون على النهب المنظم لخيراتها.

وتتجلى صورة البؤس هذه أكثر ما تتجلى لدى السكان المسلمين؛ ذلك أن الإدارة بيد النصارى، وواضح لكل ذي عينين الظلم وعدم المساواة في التعامل مع المسلمين، ومبشرو النصارى أحاطوا بهم مثل خيوط العنكبوت. وبالإضافة إلى ذلك يزيد الجهل والفقر المنتشرين بين المسلمين حالهم بؤساً على بؤس.

وحيثما اتجهت تجد أثراً من آثار المبشرين؛ فلهم مدارس بدءاً من التعليم الابتدائي وحتى المستوى الجامعي، ولهم دور أيتام ومستشفيات ولهم أيضاً مراكز صحية حتى في القرى... فالشعب المالاوي مطوَّق من كل الجهات. وحتى الكوريون جاؤوا إلى مالاوي يحاولون استمالة المالاويين إلى دينهم.

إ ن من أكبر المشكلات التي يعيشها المسلمون في مالاوي هي مشكلة التعليم؛ فنسبة من يعرف القراءة والكتابة في البلاد هي ٥٨ ٪، وتنزل هذه النسبة بين المسلمين إلى ٣٠ ٪؛ بيد أن حال المسلمين في مالاوي ليس كلُّه على هذا النحو؛ فهناك مَنْ هم على درجة كبيرة من الغنى ممن يعيشون في القصور، وهؤلاء من الهنود المسلمين، وعددهم خمس مائة ألف نسمة؛ أي ما يعادل ١٠ ٪ من عدد المسلمين في البلاد.

هؤلاء المسلمون الهنود، جاء بهم الإنجليز وأسكنوهم في البلاد، والتجارة بأيديهم. ومنهم من يمارس الفلاحة في حقول كبيرة.

أهم المنظمات العاملة في مالاوي: تُعَدُّ رابطة المسلمين المالاويين المنظمة الأم.

وهناك منظمات إسلامية إنمائية ودعوية عربية تعمل، مثل: الوكالة الإفريقية المسلمة، وهي منظمة دعوية كويتية تعمل في مجال كفالة الأيتام ورعايتهم وبناء المساجد وتوزيع الكتب الإسلامية.

وهناك أيضاً الندوة العالمية للشباب الإسلامي، التي تعمل في مجال الدعوة والإغاثة وتركِّز على برامج تربية النشء وتحفيظهم القرآن ورعايتهم صحياً وتعليمياً، كما توزع الكتب الإسلامية باللغة المالاوية، وتعقد المؤتمرات والندوات، ويوزعون الطعام خاصة في شهر رمضان كما يعملون في مجال حفر الآبار لتوفير المياه للمسلمين، وكذلك تنظيم دورات لإعداد الأئمة.

والمطلوب حاليا تحويل المساعدات المالية إلى استثمارات حقيقية ينتفع بها المسلمون عملاً وإنتاجاً وتنمية، وتحويل بعض الاستثمارات الخيرية كمشاريع دائمة لدعم المسلمين. وأن تتفاوض الدول الإسلامية مع الحكومة الحالية بخصوص إعطاء المسلمين قدراً من الاهتمام مقابل ما تقدمه هذه الدول من مساعدات لمالاوي. مع ضرورة وضع خطة إستراتيجية للدعوة، والتنسيق بين المنظمات العاملة هناك لتكامل الرعاية و تغطية الأهداف المرجوَّة.

المراجع والمصادر:

- د. محمد عاشور مهدي، دليل الدول الإفريقية، معهد البحوث والدراسات الإفريقية جامعة القاهرة، ٢٠٠٧م، ص٥٥١.
- موقع الفاكت بوك.
- مجلة الوعي الإسلامي عدد ٥٣٢ بتاريخ: ٢٠١٠/٩/٣م.
- هيئة الإغاثة والمساعدات الإنسانية.
- موقع حنين أنفو.

تفاعل معنا إلكترونياً

YouTube

bayan@albayan.co.uk

Badr: 0508948947

«سُنَّةٌ حَسَنَةٌ»

أحمد أبو شاور

عاد أبو سعيد إلى منزله المهدَّم بعد انقضاء صلاة العشاء، كان يعرف أن الذهاب من الجو والأرض لم يتوقف لحظة واحدة منذ ثمانية عشر يوماً، كان يعرف أن المسجد الذي اعتاد على الصلاة فيه قد دُمِّر، وأن الطريق محفوفة بالمخاطر، لكنه أصرَّ كغيره من رجال الحي على إقامة الصلاة على أنقاضه، غير آبهين بقذائف الفوسفور الأبيض التي تسقط عليهم فتحرق الأخضر واليابس، إنها الإرادة القوية والإيمان العميق في تحدي آلة الحرب الهمجية الشرسة، وتأدية الصلاة على أتم وجه.

أبناء أبي سعيد وأحفاده تنفسوا الصعداء حين رأوه عائداً بيُمن الله ورعايته، وكالعادة في كل مساء فقد هرع الأحفاد لاستقبال جدهم، وعناقه، وتفتيش جيوبه بحثاً عن الحلوى التي كان يحضرها لهم في الأيام السابقة.

الحال تغير منذ بدأت الحرب؛ فالباعة المتجولون اختفوا ولم يعودوا يظهرون أو يبيعون عند أبواب المسجد، لا أحد منهم يريد أن يغامر بنفسه، بحياته أو بدمائه؛ مع أن بعضاً منهم قد التحق فوراً بالمقاومة، الأحفاد لم يدركوا أن جدهم أصبح معدماً، وأصبحت جيوبه فارغه تماماً إلا من بعض الهواء الذي يحمل الدفء ليديه عند توجُّهه لصلاة الفجر.

وأبناء أبي سعيد الأربعة عاطلون عن العمل؛ فمزرعة الدواجن التي كانوا يديرونها ويكسبون عيشهم منها أصبحت أثراً بعد عين؛ إذ امتدت إليها آلة الإرهاب الصهيوني ودمَّرتها قبل نحو عام أثناء أحد التوغلات، وجرَّافات الاحتلال البغيض أتت عليها، فسوتها بالأرض، واختلطت لحوم الدواجن بركام الأبنية.

لقد قضى الحصار الجائر على آخر آمالهم بالحصول على فرص العمل، وأصبح وضع الأسرة مأساوياً؛ فالحياة في نظر أبناء أبي سعيد لم يعد لها معنى، والقنوط سبيل من لا يعرف معنىً للفرح، لكنهم لم يقنطوا، ولم يستسلموا لليأس، وخصوصاً أنهم تربَّوا ونشؤوا على تحمُّل الأذى، والانتكاسات التي كانت تحدث لهم في بعض المواسم

فتذرهم صفر اليدين، فيلوذون بالله - تعالى - ثم إلى أمهم «أم سعيد» التي كانوا يطلقون عليها «باب الفرج» فتمدهم بأفكارها وببعض ما ادَّخرته لهم وهي تردد قولها المشهور «لا يظمأ أبداً من يسكن بجوار البحر».

أم سعيد في هذه اللحظات تحتضن أحفادها وتداعبهم، تحاول أن تُذْهب الرُّوْع والفزع الذي تسببه الانفجارات المدويَّة، التي تزلزل الأرض وتهز جدران الغرفة الأخيرة التي لم تصلها يد الدمار.

أحد الأطفال يتعلق برقبتها، يقبِّلها، ثم يتوسل إليها أن تسقيه بعض الماء.

يكرر الطلب طفل آخر:

- وأنا أيضاً يا «تيتا» أكاد أموت من العطش.

أطرقتْ أم سعيد طويلاً، كان تفكيرها ينصب على فكرة واحدة، هي الحصول على الماء، الذي أصبح من غير الممكن العثور عليه، بعد أن دمرت الحرب محطة المياه وشبكتها، وثقبت الشظايا خزانات المياه الفارغة أصلاً بسبب الحصار وانقطاع التيار الكهربائي.

أما أبو سعيد فكعادته في مواجهة الأزمات صبور متفائل، ومن أجل الترويح على الأنفس والأعصاب المشدودة كأوتار القوس، فقد عقب ممازحاً زوجته:

- أليس بإمكانك أن تحلِّي مشكلة المياه؟

ألست من كان يقول «لا يظمأ من يسكن جوار البحر»؟

لم تجب أم سعيد بشيء، لكنها بُهِتت، تعمق تفكيرها، وبدت مهتمة بكلمات زوجها، ثم ارتسمت ملامح الارتياح على وجهها، وفجأة نهضت من مكانها بسرعة، واتجهت نحو سطل الماء الفارغ.

- إلى أين يا أم سعيد؟ سأل زوجها.

- أُحضِر الماء من البحر.

- إنه مالح... لا يصلح لشيء.

- سأحاول تحليته.

- كيف؟

- قلت: إنني سأحاول... لن نخسر شيئاً إن لم أنجح.

هبَّ الأوسط من أولادها قائلاً:

- بل أنا من سيُحضر ماء البحر.

- لا يا ولدي، أنا عشت من عمري كثير. أما أنت فما زلت في ريعان الشباب، ولن أسمح لك بأن تفقد حياتك من أجل سطل ماء.

- الموت برصاص الأعداء أشرف من الموت عطشاً يا أمي! هاتي السطل، وفكِّري في الخطوة التالية.

أخذ ابنها الأوسط السطل وخرج، بينما سأل الأصغر:

- ماذا يمكنني أن أفعل يا أماه؟

- أحضر «طنجرة الضغط» الكبيرة.

- تريدين أن تسخني مياه البحر؟

- أجل يا ولدي... سأجعله يغلي، حتى يتبخَّر.

- أحسنتِ يا أماه... ولكن كيف نجمع البخار؟

- لا بد من وجود طريقة... جرة الفخار قد تصلح... على كل حال سأحاول.

- هيأت أم سعيد مكاناً مناسباً في البيت المدمَّر لإشعال النار، وسكبت ماء البحر في طنجرة الضغط ثمَّ وضعتها على النار، وحين بدأ الماء يغلي أخذ البخار يتصاعد من المكان المخصص لخروجه؛ ولكي لا يضيع البخار سدىً قام ابنها الأصغر بتثبيت خرطوم مياه على مصدر خروج البخار، ليتم نقله إلى جرة الفخار؛ حيث أخذ البخار يتكثف ويتحول إلى قطرات ماء تتجمع في قَعر الجرة.

شرب الأطفال، كما شرب جميع أفراد الأسرة... أعادت أم سعيد المحاولة، فجمعت قَدْراً كافياً لإعداد عجينة الخبز؛ حيث جرى إعداده على نيران الحطب.

إن محاولة أم سعيد هذه لم تعد سرّاً؛ فقد انتقلت إلى الجيران، الجار تلوَ الجار حتى شملت الحي بأكمله.

و كانت أم سعيد فرحة مغتبطة بإنجازها الرائع الذي استطاعت به أن تنقذ العشرات من الموت ظمأً أو جوعاً بسبب الحصار الجائر.

وصل الخبر إلى أذني إمام المسجد فدعا لأم سعيد بخير، وعدَّ محاولتها سُنةً حسنة لها أجرُها وأجرُ من عمل بها.

أحاديث صهيونية عن بدء العد التنازلي لحرب جديدة ضد قطاع غزة

د. عدنان أبو عامر(*)
adnanaa74@hotmail.com

استمرت حالة التوتر على الحدود مع قطاع غزة، واتسعت دائرة التهديدات الصهيونية مع تزايد إطلاق الصواريخ وقذائف الهاون خلال الأيام الأخيرة، وبدأت تقديرات الأوساط الأمنية في «إسرائيل» تشير إلى أن قوة ردع الجيش الصهيوني إثر عملية «الرصاص المصبوب» بدأت بالتراجع.

وترى تلك الأوساط أن كثيراً من المنظمات الفلسطينية تحاول تنفيذ عمليات ضد الجيش الإسرائيلي، في الوقت الذي تحاول فيه حركة حماس السيطرة على الوضع في غزة، ومنع هذه التنظيمات من تنفيذ عمليات قد تؤدي إلى تدهور خطير في المنطقة، رغم أنها تتغاضى أحياناً عن بعض نشاطاتها؛ وخاصة أنه ليس لحركة حماس أي مصلحة في حصول تدهور خطير للوضع هناك؛ لأنها لا زالت تدرك تماماً ما قد يُقدِم عليه الجيش الإسرائيلي في حال الانهيار التام لتفاهمات وقف إطلاق النار.

تهديدات صهيونية:

لقد أكد رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو قائلاً: «إنه يوجد وضع يتصاعد من جانب قطاع غزة ضد إسرائيل، وسنضطر خلال الأسبوع الحالي إلى التعبير عن رأي حيال ذلك»، وهو ما يُعدُّ مؤشراً على إمكانية اتخاذ قرار بشن هجمات شديدة على قطاع غزة.

إلى جانب ذلك، رأى وزير الإعلام (يولي أدلشتاين) أن من الواضح تماماً أن الوضع في الجنوب بات «لا يطاق»، وأكد وزير الدفاع السابق وعضو الكنيست عن حزب «العمل»، (عمير بيرتس) ما وصفه بـ «تراجع» قوة ردع الجيش الصهيوني، وهو ما يستدعي قيامه بعمليات عسكرية ضد حماس، بشكل مختلف عما يجري الآن. ودعا بيرتس المستوى السياسي إلى تحذير حماس، التي تتحمل المسؤولية الكاملة عن قطاع غزة، من أن استمرار إطلاق الصواريخ والقذائف سيقود بالضرورة إلى توجيه ضربات لها.

إلا أن مسؤولين كبار في المستوى العسكري أبدَو رغبتهم بتوجيه ردود قاسية ضد قطاع غزة؛ حيث توعَّد قائد المنطقة الجنوبية في الجيش الصهيوني، تال روسو، بمحاسبة كافة المسؤولين عن إطلاق قذائف الهاون على النقب.

(*) كاتب فلسطيني.

وقد أوضح قائد فرقة غزة سابقاً (شموئيل زاكي) أنه ليس هنـــاك مصلحة لدى حماس في تصعيـــد الوضع، والدفع نحو عملية أخرى على شـــاكلة عملية «الرصاص المصبوب»، معتبراً أن المشـــكلة تكمُن في إطلاق قذائف هاون وصواريخ، مع عدم قدرة أحد على السيطرة على هذا الأمر.

ونبَّه إلـــى أن ضرب هـــذه المقذوفات لريـــاض الأطفال، وســـقوطهم قتلى سيدخل الأوضاع في منعطف خطير، مشدداً على ضـــرورة أن تقوم «إســـرائيل» بالتوضيـــح لحماس ليس بالأقوال، بل بالأفعال: أنها بتواصل إطلاق النار ســـتدفع ثمناً باهظاً، إلى جانب مواصلة تحصين البلدات بإنشاء غرف أمنية محصَّنة من أجل خلق شعور الأمن لدى السكان، وتطوير أنظمة تقنيـــة على شـــاكلة منظومة «القبة»، وإن لـــم تنفع جميع هذه الأمور فيجب القيام بعملية أخرى في غزة».

وضع هش قابل للانفجار:

رأى محللون وخبراء صهاينـــة أن الوضع هش في المنطقة وهـــو قابل للانفجـــار، مؤكدين أنه ليس مـــن مصلحة حكومة نتنياهو شنُّ حرب على قطاع غزة أو لبنان، لكنها قد ترتكب ما أسموها (حماقة) ضد إيران.

أما محلل الشـــؤون السياســـية في صحيفـــة «هآرتس»، عكيفـــا (ألدار) فقد حذَّر من خطورة نشـــوب حرب على لبنان أو قطاع غزة خلال السَّنة الجارية، مشيراً إلى أن وضع انعدام السِّـــلم في المنطقة وفشـــل الأطراف المعنيَّة في إحراز تسوية للصراع يشـــير على تدهور الأوضاع نحو الأسوأ، منبهاً إلى «أن شـــرارة واحدة فقط تكفي لتفجير الأوضاع». وأوضح ألدار أن الحكومة الصهيـونية الحالية لا تتعـرض لضغـوط داخليـة ولا خارجيـــة من أمريكا أو الاتحاد الأوروبي، معتبراً أن ذلك «يزيد من مخاطـــر حريق جديد ولا ســـيما أن الوضع الراهن يخدم محور المقاومة المتمثل في حماس وحزب الله.

وأما المعلـــق البارز (جدعون ليفي)، فقد اســـتبعد شـــنَّ «إسرائيل» حرباً على غزة أو لبنان، مشيراً إلى أن نتنياهو يفرِّط في الأقوال ولا يفعل شـــيئاً، لكنه لا يستبعد احتمال التورط في حرب نتيجة تدهور طارئ كســـقوط صاروخ قسام في مدرسة إسرائيلية تردُّ عليه إسرائيل بقسوة؛ تؤدي إلى اشتعال جديد.

ويضيف: «لا ننسى أن الحكومة الحالية أقالت قائد الجيش الصهيوني غابي أشـــكنازي مبكراً لمعارضته المثابرة لاستهداف إيران عسكرياً، وهذا يزيدنا قلقاً حيال هذه الأحداث المتوقَّعة».

ويســـتبعد المتحدث إقدام إسرائيل على توجيه ضربة عسكرية لطهران دون إذن واضح من أمريكا.

واســـتبعد المعلق العسكري الصهيوني (عاموس هارئيل) أن تكون لدى «إسرائيل» اليوم مصلحة في شن حرب على أي جهة رغم وجود ثلاثة محـــاورَ نزاع هي: حماس وحزب الله وإيران، قائـــلاً: «إن الوضع هش وقابل للانفجار نتيجة «أحداث طارئة: كأســـر «حزب الله» لجنود، أو تنفيذ عملية ثأرية انتقاماً لعماد مغنية، أو حيازة ســـلاح جديد يخرق التوازن ويُشـــكِّل تهديداً لإســـرائيل». وزعم هارئيل أن حماس لا تســـيطر بشكل شامل على بقيـــة الفصائل في قطاع غزة، وهو مـــا يفتح الباب أمام اســـتمرار إطلاق الصواريخ نحو «إسرائيل»، رغم أن «مصلحة الطرفين تقتضي استمرار الهدوء».

أما قائد وحـــدة قصاصِي الأثر في الجيـــش الصهيوني، (يوســـي هاداد) فيزعم أن الجيش أحبط فـــي الآونة الأخيرة عدة محاولات تقوم بها فصائل المقاومة في قطاع غزة لتهريب مقاتليها من القطاع إلى «إســـرائيل» عبر سيناء. وادَّعى هاداد أن تهديد أنفاق رفح يستوجب اســـتعداداً أكبر من «إسرائيل»، مشـــيراً إلى أن الجدار مع مصر سيحُل المشكلة، أو على الأقل ســـيخفف من عمل جنود وحدة قصاصي الأثر لمعرفة المتسللين إلى الكيان.

واعتبـــر ضابط كبير في الجيش الصهيوني أن هنـاك ما وصفه بـ «تـــآكلاً معيَّناً» في ترتيبات وقـــف إطلاق النار على حـــدود قطاع غزة، مدَّعياً أن حماس تحـــاول منع إطلاق النار على الأراضي «الإســـرائيلية»، ولكنها تواجه صعوبات في كبح جماح آلاف من أفرادها، بالإضافة إلى أنها تتغاضى أحياناً عن نشاطاتهم، مســـتبعداً في الوقت ذاته وقوع مواجهة واسعة مع حماس، لكنه حذَّر من احتمال نشـــوب مثل هذه المواجهة بسبب حادث محلي خطير قد يقع على حدود القطاع.

أخيـــراً: فقد زعمـــت القيـــادة العســـكرية الصهيونية أن حماس مســـتمرة في فحص مدى صبر «إســـرائيل»، ولا سيما في ضوء خشية الجهات العســـكرية الإسرائيلية من أن حماس تحاول التقليـــل من عملية الردع التي أنتجتها عملية «الرصاص المصبوب»، من خلال غض الطرف بشكل مقصود عن المنظمات الصغيرة التي تطلق الصواريخ على المناطق المحيطة بقطاع غزة، وهو ما دفع ســـلاح الجو الإســـرائيلي لقصف سلسلة أهداف مجهَّزة مســـبقاً بهدف التلميح لحماس بأن الواقع الموجود غير مقبول.

سِرُّ العداء الغربي للإسلام ونبيِّه ﷺ!

محمد عبد الشافي القوصي

جميع الديانات السماوية كانت هدفاً لألوان كثيرة من العداء الديني والسياسي، ولم يتورع أعداؤها أن يستخدموا ضدها كل الوسائل المادية والمعنوية بهدف عزلها، وتهميشها، أو القضاء عليها تماماً. ولمَّا أشرق الإسلام واجه كذلك شتى ألوان العداء؛ مع أنه دين لا يهاجم أحداً على سبيل الظلم والاعتداء، ولكنه قادر على الدفاع عن نفسه. لكن في الآونة الأخيرة تعرض لحملة شرسة سببها أنه العدو الجديد الذي ينبغي محاربته، واستغلَّ المغرضون بعض التصرفات الشاذة في بعض بلدان المسلمين، محاولين تعميمها على أُمة كاملة؛ مع أن حقيقة الإسلام ناصعة، كالشمس في ضحاها. ومع ذلك فإن هناك من يغمض عينه عنها، أو يحاول إغماض عيون الآخرين.

والمرء يتساءل بحزن وأسى: لماذا يسيء الغربيون إلى رجلٍ جليل القَدْر مثل (مُحمَّد ﷺ) تسامى شأنُه وقَدْره أبعد مما يخطر على بال أحد من الشرف والمجد والمثالية منقطعة النظير بشهادة أحبارهم وفلاسفتهم وزعمائهم؟

لماذا يكرهون مَنْ يدعوهم إلى الرشد والصلاح ومكارم الأخلاق؟ لماذا يحاربون الذي يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويُحِلُّ لهم الطيبات، ويُحرِّم عليهم الخبائث؟ لماذا يرفضون (نبيَّ الرحمة) الذي جاء مصدِّقاً لمن سبقه من الأنبياء والرسل؟ ألا يعلم هؤلاء المكابرون والمعاندون أن الإساءة إلى (مُحمَّد) إنما هي إساءة إلى جميع الأنبياء، وأن تكذيبه يعني تكذيباً لأسفارهم وكتبهم التي يتعبَّدون بها؟

إننا في حيْرة من حال هؤلاء القوم! فدينهم يشهد على جهلهم وسوء أخلاقهم، ومخالفتهم لشرع نبيهم. ألمْ يقل لهم الإنجيل: «لا تكافئوا أحداً بسيئة، ولكن من لطم خدك الأيمن، فانصبْ إليه الأيسر. ومن أراد مغالبتك وانتزاع قميصك، فاخلع له الرداء كله»[1]. فهذا إنجيلهم يشهد عليهم بأنهم ليسوا على شرعه، بلْ رَدُّوا حكمه ورفضوه.

ومما يؤسَف له: أن الكارهين للإسلام، لم يكلِّفوا أنفسهم مؤونة القراءة والبحث في ما كتبه العقلاء والمنصفون من كبار فلاسفتهم وعلمائهم؛ فقد شهد المؤرخ الفرنسي أرنست رينان renan (١٨٢٣-١٨٩٢) - على الرغم من تعصبه الشديد ضد الإسلام - على تحامل أبناء جنسه وملَّته على النبيِّ مُحمَّد ﷺ، فيقول في كتابه (دراسات في تاريخ الأديان): «لقد كتب المسيحيون تاريخاً غريباً عن مُحمَّد. إنه تاريخ مملوء بالحقد والكراهية له».

إننا ندرك أن الجهل بحقيقة الإسلام يقف وراء هذه الافتراءات؛ فمن جهِلَ شيئاً عاداه. وهذا الذي دفع المفكر الهولندي الكبير أدريان رولاند Hadrian reland الذي كان

(١) متَّى: الإصحاح الخامس.

عالماً باللغات الشـــرقية والفارسية، وهو أول كاتب أوروبي يكون عادلاً في حديثه عن الإسلام ونبيِّه ﷺ، أقول: دفعه إلى القول في كتابه (الإســـلام): «إن أغلبيـــة الأديان قد وصفها أعداؤها بشكل ســـيِّئ. وكل الأديان فُهِمتْ بشكل خاطئ، ومن ثَمَّ تعامل معها أعداؤها بشكل خاطئ أيضاً؛ ولذلك يجب ألا نندهش إذا حدث الشيء نفسه مع الإسلام».

الجهل بحقيقة الإسلام وراء تحامل الغربيين وعداوتهم.

وقد تصدَّت المستشـــرقة الألمانية سيغريد هونكه Sigrid hunke لهذه الإســـاءات، فقالت في كتابها (فضل العرب على أوروبا): «إن هذه النظرة الأوروبية للعرب والمســـلمين تدلُّ على ضيق الأُفق وعدم الرغبة في الاعتـــراف بفضل العرب عليهم وعلى العالم الذي نعيش فيه».

ولعلَّ الجهل المطْبِق بالإســـلام ونبيِّه الكريم ﷺ، هو الذي جعل المفكر القبطـــي (نظمي لوقا) يندهش من تلك الحماقات ويســـتنكرها، ويتساءل: «أيُّ الناس أَوْلى بنفي الكيد عن سيرته من (أبي القاســـم [ﷺ]) الذي حوَّل الملايين من عبادة الأصنام الموبقـــة إلى عبادة الله رب العالمين، ومن الضياع والانحلال إلى الســـموِّ والإيمان، ولم يُفِد من جهاده لشخصه أو آله شيئاً مما يقتتـــل عليه طلاب الدنيا من زخـــارف الحطام؟ ماذا بقي من مزعم لزاعم؟

إيمانٌ امتحنـــه البلاء طويلاً قبل أن يُفَـــاء عليه بالنصـــر، وما كان النصر متوقعاً أو شـــبه متوقـــع لذلك الداعي إلى الله في عاصمة الأوثان والأزلام. ونزاهةٌ ترتفع فوق المنافع، وســـموٌّ يتعفف عن بهارج الحياة، وســـماحة لا يداخلها زهو أو استطالة بســـلطان مطاع. لم يُفِد. ولم يورِّث، ولم يجعل لذريته وعشيرته ميزة من ميزات الدنيا ونعيمها وسلطانها. وحَرَّم على نفسه ما أحـــلَّ لآحـاد النـاس من أتباعه، وألغى ما كان لقبيلته من تقدم على الناس في الجاهلية حتى جعل العبدان والأحابيش سواسية

وإيماننا أن مثل هذه الافتراءات والحملات الإعلامية التي يفتعلها خصوم الإســـلام بين حين وآخر، لا يمكن أن تَرُدَّ أحداً من المسلمين عن معتقده، أو تشكِّكه في دينه الذي اعتنقه بقوة، وآمن به عن قناعة تامة، ولن يســـتطع أحد أن يَحُول بينه وبين الإسلام القائم على الحجج الدامغة، والبراهين الناصعة. بل إنَّ الادِّعاءات الكاذبة تزيد المســـلمين قوة في العقيدة إلى قوَّتهم، ودفاعاً مستميتاً عن مقدساتهم؛ لأن الناموس الكوني يؤكد دوماً أن الحق لا يُهزَم أبـــداً مهما ضعفت مقاومته؛ حتى لوْ تنكَّر له الجميع.

فالإســـلام منذ بـــزوغ فجره الـــذي ابتدأ برجـــل واحد هـــو (مُحمَّد ﷺ) لـــم يعتمد على قوة مادية، إنمـــا كانت قوَّته الروحية وراء انتشـــاره الســـريع وانتصـــاره العجيب على قوى الشـــر وإمبراطوريات الفســـاد. حدث كل ذلك في حقبة زمنية وجيزة مع قلة الإمكانيات المادية وصعوبة الحياة؛ لأن الإســـلام – كمـــا يقول المؤرخ العالمي أرنولـــد توينبي في الجزء الخامس من قصة (الحضارة) –: «فاجأ العالمَ بمبادئ ســـامية رأى فيها الناسُ إنقاذاً للبشرية المعذبة؛ ففي الوقت الذي كان فيه الملوك والحكام ســـادة أو آلهة، وكانت الشـــعوب عبيداً لهم، في هذا الوقت ظهر (النبيُّ مُحمَّد [ﷺ]) على الناس بمبدأ المساواة بين الحاكم والمحكوم، والملك والسوقة. وفي الوقت الذي كانت أقوال الملـــوك وأفعالهم هي القانون وهي العدالة، إذْ بالإســـلام يأتي بقانونه السماوي فيخضع له العظيم والحقير.

إنَّ مثل هذه المبادئ أو المفاجآت هي التي أدهشـــت العالَم وجذبـــت الناس أفواجاً لهـــذا الدين العظيـــم، وعندما جذب الإسلام الناس إليه لم يَدَعْهم في حيرة من أمور دينهم ودنياهم، بـــلْ أمدَّهم بأرقى نُظُم الحُكْم، وأرقـــى نُظُم الاقتصاد، ووضع أسمى الأسس لحياة اجتماعية صالحة».

هذا صحيح، والدليل على ذلك أن المسلمين كانوا يضعفون ويقـــوون، وينهزمـــون وينتصرون، ولكن الإســـلام كان قوياً في الحالتين، ومنتصراً دائماً. وأساس انتصاره هو أُسُسُه ومبادئه الراقية. وقد آمن بهذه الحقيقة وشـــهد بها كثير من المفكرين والمؤرخين الغربيين. يقول مســـيو مونتـــه – ١٨٥٦ (Montet ١٩٢٧) أســـتاذ اللغات الشـــرقية في جامعـــة جنيف في كتابه (حاضر الإسلام ومستقبله): «لقد صار من المحقَّق أنَّ الإسلام ظافر لا محالة علـــى غيره من الأديان التي تتنازع العالم. ومن ذلك أن عدد المسلمين في نموٍّ وتزايد على الدوام».

وملوك قريش. لم يُمكِّن لنفسه ولا لذويه، وكانت لذويه - بحكم الجاهلية - صدارة غير مدفوعة، فسوَّى ذلك كلَّه بالأرض. أيُّ قامة بعد هذا تنهض على قدمَيْن لتطاول هذا المجد الشاهق أو تدافع هذا الصدق الصادق؟ لا خِيرة في الأمر، ما نطق هذا الرسول عن الهوى. وما ضلَّ وما غوى. وما صَدَق بشر إنْ لم يكن هذا الرسول بالصادق الأمين».

إن الملاحَظ أن غالبية الذين يسيئون فهم الإسلام تتفاوت بواعثهم ونيَّاتهم؛ فمنهم طُلاَّب المعرفة الجاهلون بلغاتهم وآدابهم ومعتقداتهم، فضلاً عن جهلهم بلغة القرآن وشرائع الإسلام. ومنهم أُنَاس يتعاملون مع الإسلام بالكراهية وروح الانتقام ذاتها التي ينظرون بها إلى أديانهم ومذاهبهم. ومنهم المبشِّرون الذين ينحرفون عن الصواب اضطراراً واختياراً بباعث من التعصب للصنعة والحرفة؛ لأن التبشير عندهم مصلحة ومنفعة يعيشون عليها، ويحرصون عليها حِرصَهم على القوت والجاه والمناصب؛ فيضطرون إلى التلفيق المتعمَّد، والكذب المقصود. ومنهم أُنَاس يخدمون السياسة الغالبة على دولهم ويصطنعون لها الدعاية تارة والدبلوماسية تارة أخرى.

وأخطر من هؤلاء جميعاً جنود (الصهيونية العالمية world Zionism) وربائبُها وما يمتلكونه من وسائل الدعاية، كاستيلائهم على صناعة السينما التي برعوا في تسخيرها وإخفاء مراميها، وامتلاكهم كثيراً من شركات الإعلان الكبرى، فتحسب لهم الصحف ووسائل الإعلام حسابَهم، ولا تتورع عن خدمتهم أو السكوت عنهم على الأقل وكتمان مآربهم، كما تملَّك الصهاينة دُورَ النشر العالمية، وكثيراً ما يتبرع المؤلِّف لإرضائهم ونشر دعايتهم تمهيداً لقبول كتبه ونشرها والترويج لها، وخلق جوٍّ صالح للاهتمام بها، ولا تقصِّر وسائلهم أحياناً عن ترشيحها لأكبر الجوائز العالمية.

وإلى جانب الوسائل الفنية والمالية، فلهم وسائلهم وراء الستار وأمامه بين الساسة والمرشحين لمراكز الزعامة والمتنازعين على الأصوات في مواسم الانتخابات.

إذن، فما الظن إذا اجتمعت قوة الدعاية وسلطة المال مع مآرب القوى المسخرة لسياسة الاستعمار والتبشير؟ ليس من المنتظر أن يتصدى الكبار المستعمرون لإعلان حقائق الإسلام، وروعة شريعته، والاعتراف بأنه سبيل الحق والعدل والنجاة!

وصايا الكتاب المقدَّس:

لا غرابة في أن يُسيء جهلاء الغرب إلى نبيِّ الإسلام ﷺ ما دامت كتبهم (المقدسة) فتحتْ شهيتهم لاتهام الأنبياء والنَّيْل من الرسل الكرام؛ فقد رأينا منهم من ادَّعى أن السيد المسيح - عليه السلام - كان قد تزوج من مريم المجدلية، وهو الحدث الذي تستَّرتْ عليه كنيسة روما حتى الآن. كما سَخِر الشاعر الفرنسي (آرثر رامبو Arthur rimbaud) من المسيح - عليه السلام - خاصة عندما خاطبه قائلاً: «يسوع! يا لصاً أزلياً يسلب البشر نشاطهم...».

والأغرب من ذلك ما زعمه عالم النفس اليهودي (بن أشنون) الذي وصف موسى - عليه السلام - بأنه كان تحت تأثير نوع من المخدرات حين رأى النار عند الشجرة بالوادي المقدس، وحين تلقَّى الوصايا العشر.

ما هذه الإساءة المتكررة إلى الأنبياء؟ وما هو سِرُّ العداوة للرسل الكرام؟

إنَّ هذا السِّر يكمن في كتبهم (المقدسة) التي يتعبَّدون بها؛ لأنها جرَّأتهم على الاستهانة بشخوص الأنبياء والرسل بصفة عامة، كما جعلتهم يتجرؤون على الذات الإلهية.

فكثيراً ما نراهم يصوِّرون الأنبياء في أبشع صورة؛ فالعهد القديم يرسم صوراً لا تليق أبداً بمقام النبوَّة ولا بأخلاق الرسل الكرام؛ فقد جاء فيه: «سليمان في شيخوخته لم يكن قلبه كاملاً مع الربِّ إلهه كقلب داود أبيه، فذهب سليمان وراء عشتروث آلهة الصيدونيين. وعمل سليمان الشر في عيني الربِّ ولم يتبع الربَّ تماماً كداود أبيه»[1]. وأسوأ من ذلك ما ذكروه عن لوط - عليه السلام - وابنتيه[2]، وما ذكروه عن داود، عليه السلام[3].

وقد استمرؤوا هذه الافتراءات التي دوَّنوها بأيديهم في كتبهم عبر تاريخهم الطويل، وأُشرِبُوها في قلوبهم؛ حتى تحولوا إلى مخلوقات شريرة وعدوانية.

فنقرأ - مثلاً - في العهد القديم أن إسرائيل (النبيَّ يعقوب عليه السلام) أصرَّ على محق العرب الكنعانيين وعدم

(١) سِفْر الملوك: ١١/ ١ - ٣.
(٢) سِفْر التكوين: ١٩/ ٣٠ - ٣٨.
(٣) صموئيل الثاني: ١١/ ١ - ٢٧.

الاعتراف لكنعان بحق الحياة (حتى لو اعتنق العرب اليهودية)؛ لأنها دين إسرائيل وحدَه. وهذا - بالطبع - ليس وحياً. بلْ من تأليف (أولاد الأفاعي) و (قتلة الأنبياء)؛ لأنَّ يعقوب نبيٌّ كريم، ولا يمكن أن يصدر عنه هذا التصرف الظالم.

وفيه أيضاً، أن كل البشر غير اليهود (كلاب) وخدم اليهود في أصل الديانة.

أما التلمود talmud - وهو كتابهم المقدس الثاني - فيقول: «استيلاء اليهود على ما يملك الغوييم (أي غير اليهود) حق، ووعد تصحبه المسرَّة الدائمة».

وجاء فيه أيضاً: «يستحق القتل كل الغوييم حتى ذوو الفضل منهم».

ولم ينتهِ موقفهم عند مجرد الإساءة اللفظية ورميهم لأنبيائهم بارتكاب الفواحش، بلْ تُسجِّل كتبهم التاريخية أنهم قتلوا من الأنبياء (حزقيال، وأشعيا بن آموس، وآرميا، وزكريا، وابنه السيد الحصور يحيى... وغيرهم، عليهم السلام) كما أنهم حاولوا قتل عيسى ومُحمَّد - عليهما السلام - وتواطؤوا ضدهما وضد أتباعهما.

لذلك وجدنا التوراة نفسها - والإنجيل والقرآن أيضاً - تصفهم في مواضع عديدة بأنهم (قتلة الأنبياء) و (أولاد الأفاعي) و (الضالون العميان) و (الملعونون بكفرهم): «قال الربُّ: ها أنذا جالبٌ شراً على أورشليم ويهوذا، وأدفعهم إلى أيدي أعدائهم غنيمة ونهباً لجميع أعدائهم؛ لأنهم عملوا الشر في عيني»[1]، وجاء في توراتهم: «ها أنذا جالبٌ الشرَّ على هذا الموضع وسكانه من أجل أنهم تركوني، وأوقدوا لآلهة أخرى، لكي يغيظوني بكل عمل أيديهم فيشتعل غضبي على هذا الموضع ولا ينطفئ»[2].

ويكشف طبيعتهم (سِفْر إشعيا)؛ إذ ورد فيه: «إن الله قال: اذهب، وقل لهذا الشعب: اسمعوا سمعاً ولا تفقهوا، وأبصروا إبصاراً ولا تعرفوا، غلظ قلب هذا الشعب، وثقل أذنيه، واطمس عينيه؛ لئلا يبصر بعينيه ويسمع بأذنيه ويفهم بقلبه».

ويقول (سِفْر المكابيين الثاني): «وصار مرشدو هذا الشعب مضلِّين، لأجل ذلك لا يفرح الربُّ بفتيانه ولا يرحم يتاماه وأرامله، لأنَّ كل واحد منهم منافق وفاعل شر».

وتعالوا نتساءل بعد عرض هذا الجانب مما حوته أسفارهم وكتبهم (المقدسة) وبعد معرفة موقفهم من الأنبياء، لعله يكون قد بطَلَ العجب، وظهرت الحقيقة كلها، نتساءل: هل مثل هذه الكتب المملوءة بالسخرية والاستهزاء بالرسل والأنبياء، والاستهانة بالبشر، والتحريض على ارتكاب الجرائم، هل يمكن أن تكون وحياً سماوياً؟ وهل هي جديرة بالاحترام؟ وهل يمكن أن يصدِّقها أحد أوْ يؤمن بما فيها؟

كتُبُهم (المقدسة) فتحتْ شهيَّتهم لاتهام الأنبياء والتجرُّؤ على الذات الإلهية.

وهل يمكن لأُناس هذه طبيعة كتبهم، وهذا هو موقفهم من الأنبياء، هل ذلك يؤهلهم لأنْ يصدِّقهم الناس في مزاعمهم؟ أو يطمئِن أحدٌ إلى الكتب التي بأيديهم؟ وهل يُؤتمَن مثل هؤلاء على التراث الديني أوْ على الحضارة البشرية؟ وهل يجوز أن يمنحهم العالم أيَّ لون من ألوان الهيمنة على أي مقدسات دينية، أو الحماية لتراث الأنبياء؟

مَنْ يا تُرى أَوْلَى بالتصديق والاحترام: الذين يسخرون من الأنبياء ويقتلونهم، أمْ الذين يوقِّرونهم ويؤمنون بهم جميعاً، ولا يفرِّقون بين أحدٍ منهم؟

ومَنْ أَوْلى بحفظ التراث وحماية المقدسات ورعايتها: الذين حولوها إلى بؤرة للرذائل، ومغارة لصوص، أمْ الركَّع السجود الذين يُقدِّسون خالقهم بالليل والنهار؟

أخيراً: على العالم كله أن يفهم أن الإسلام لا يُكرِه أحداً على اعتناقه، لكننا نطالب الآخرين أن يبحثوا عن الحق، ولا شيء سواه. ولا يزال رِهاننا الأكبر على الوعد والإباء الإلهي الصارم الذي نصَّ عليه القرآن الكريم: ﴿ **وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** ﴾ [التوبة: ٣٢].

---

(١) سِفْر الملوك الثاني: ٢١/١٢ - ١٥.

(٢) سِفْر الملوك الثاني: ٢١/١٦، ١٧.

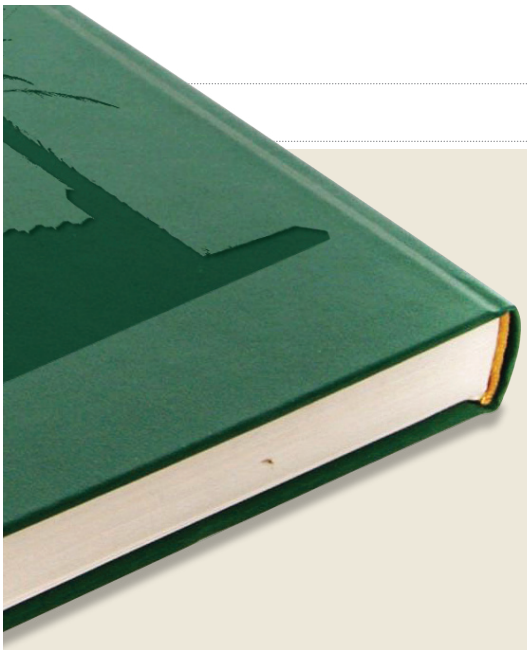

الفقيه والمفكّر

د. محمد الفقيه

احتل الفقيه مكانة عالية يعرفها كل من يستقرئ التاريخ الإسلامي من جميع جوانبه (السياسية أو الاجتماعية أو العلمية أو الاقتصادية)؛ فهو يستند إلى تاريخ طويل كان فيه صاحب الكلمة الأُولَى في المجال العلمي، كما كان المرجع في المُلِمَّات والقضايا كبيرها وصغيرها، ويحتاج إليه الناس على اختلاف مستوياتهم في قضاياهم العامة والأشد خصوصية، حتى القرارات الكبرى كانت تُصبَغ بفتوى الفقيه؛ لذلك حَمَلت لنا الفتاوى تاريخاً مفصَّلاً عن واقع الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية في التاريخ الإسلامي في كافة مراحله مما لم يستطع التاريخ المدوَّن حَمْلَه.

لكن هل بدأت هذه المكانة تتقلص وتضيق مساحتها في هذا العصر تاركة الأمر لشخصيات أخرى: كشخصية المثقف أو المفكر؟

الواقع أن شخصية الفقيه لم تَخْلُ من المقابل أو المضاد أو المخالف، أو من له منهجية فكرية مغايرة لمنهجية الفقيه.

فعندما ننظر في عهد التابعين وأَتْبَاعهم نجد المقابلة بين الفقهاء والمحدِّثين، أو أهل الأثر وأهل النظر، أو مدرسة أهل الرأي ومدرسة أهل الحديث، وقد كان الحجاز مستَقَر مدرسة أهل الحديث (أهل الأثر)، والعراق مستَقَر مدرسة الفقهاء (أصحاب الرأي)؛ ولعل السبب في ذلك وفرة المرويات الحديثية في الحجاز بسبب كثرة الصحابة فيه، وقلة الأحاديث بالعراق حتى اضطروا - في بعض القضايا التي لم يجدوا

فيها نصوصاً – لاستعمال القيـــاس، حتى جـــاء الإمام الشـــافعي فدرس على المدرستين ووجد أن عند كلٍّ منهما مزايا ليست عند الأخرى، ومن واقع هذه الرؤية ألَّف أوَّل كتاب في أصول الفقه، وهو (الرسالة).

فالتقابل هنـــا تقابل تنوُّع وليس تقابـــل تضاد؛ فكلا المدرســـتين تجعل نصوص الكتاب والسُّنة مصدرَين أساسيين، كما تتفقان في عدد كبير من القضايا الأصولية.

كما حصل تقابل بين الفقيه والصوفي، وقد اشـــتمل هذا التقابل على تضادٍّ وتنوُّع في آن واحد. والصوفية الذين حصل بينهـــم وبين الفقهـــاء تضادٌّ هم الذين اعتمـــدوا مصادر غير المصادر الشـــرعية التي يعتمدها الفقهاء؛ فهم يعتمدون على الذوق والرؤى والوَجْد مصادر تشـــريعية. كما حصل الخلاف بين الفريقين في معالجة قضايا المجتمع؛ فبينما يرى الصوفية أن الحل فـــي التزهد المطلق، وترك الانغماس في حياة الناس ومشكلاتهم، والانعزال النفســـي والبدني قَدْر المستطاع، تأتي معـالجـة الفقهـاء مختلفـة؛ حيث يفســـرون الزهـد تفسيراً لا يُخرِج الإنســـانَ عن معاركة الحياة والخوض فيها، ويجعلونه مراتب، لكنْ حتـــى أعلاها لا يُخرِج الإنســـانَ عن العيش مع البشـــر والتعامل بتعاملاتهم، ثم تنصـــبُّ معالجة الفقهاء على تصحيـــح التعاملات الخاطئة في حياة النـــاس، وبيان أحكام الشرع فيها.

فهل حصـــل اختلاف في هذا الزمـــان؟ وهل ضعف دور الفقيـــه وقلَّ تأثيـــره؟ هل تغير الزمان لدرجـــة أن الفقيه بما يملك من أدوات معرفية لم يعد قادراً على مواجهة المستجدات والمتغيـــرات، وهو ما يعني الحاجة لوجود شـــخصيات أخرى قادرة على استيعاب المتغيرات؟

إن غربـــة الفقيه من غربة الدين فـــي حياة الناس؛ فعلى قَدْر قربهم مـــن الدين أو بُعدِهم عنه ترتفع أو تنخفض منزلة الفقيه لديهم.

لا شـــك أننا نعيش في واقع معقد متداخل متشابك، وقد حدثت فيـــه تطورات فكرية وفلســـفية وعقائديـــة بصورة لم تعهدها الأمة من قَبْل، تزامنت مع وجود الاستعمار الذي أنهك الأمة وجزَّأها واســـتهلك ثرواتها وزرع فيهـــا من الفتن ما زرع قبل رحيله، وهو ما ولَّد أســـئلة وإشكالات طُرحَت بلغة مغايرة لمـــا كان معروفاً في الطرح العلمـــي أو الثقافي لدى المجتمعات الإسلامية، وهي إشكالات ونقاشات شاملة للتصورات والأفكار، متغلغلـة حتى في التكوين الفكـري والعقائدي لحامليها، وهو ما جعلهم يسعون لطرحٍ مخالفٍ للإسلام، بل يحملون على الإسلام حملة نكـــراء تدعو لإقصائه من حياة النـــاس، وإحلال إحدى الأيديولوجيات الشـــائعة مكانه، وهو ما ولَّـــد الحاجة لوجود مفكِّرٍ تكون مرجعيته إســـلامية من جهة، ويكون لديه استيعاب للصراعات الفكرية الحادثة وإلمامٌ بمصطلحاتها وإدراك للغتها وأساليب نقاشـــها من جهة أخرى، فوُجِد لدينا مفكر إسلامي كمـــا وجد كذلك – نتيجـــة للتأثر بالتيـــارات العالمية – مفكر اشـــتراكي أو مفكر قومي، وكان كلٌّ يطـــرح آراءه تبعاً لخلفيته الفكرية ومرجعيته الثقافية.

فكان الاشـــتراكي – مثلاً – يبشِّر بالاشتراكية داعياً الناس لاتِّباعهـــا؛ فهي الجنة الموعودة علـــى الأرض، وفي الوقت ذاته لا يكف عن مهاجمة الإســـلام وكَيْل التهـــم الباطلة إليه، بينما كان المفكر الإســـلامي يقف في وجه هذه التهم يفنِّدها ويناقش أصحابها ويبيِّن عوار كلامهم. وربما تأثَّر بعض الناس بشـــيء من تلك الجدالات، فتبنَّى وجهة نظر اشـــتراكية أو غيرها وهو لا يشـــعر، وهذه طبيعة الجدال؛ فقـــد يتبنَّى المرء بعض أقوال خصمه؛ لأنه يقتـــرب منها كثيراً وقت النقاش فيتلبس بها وهو لا يشعر.

فـــكان المفكرون الذين ينتمون لهذه الأيديولوجيات المخالفة يهاجمون الفقهاء ضمن خطة هجومهم على الإسلام، وعدائهم لهم ضمـــن عدائهم للدين؛ ففي القضاء على شـــخص الفقيه إضعاف للديـــن، وكيف يعرف الناس دينهـــم إذا لم يكن بينهم فقهاء؟ وقتها تُلْبَـــس أي قضية لبوس الدين وتقدم للناس على أنها من دينهم فيأخذون بها وهم لا يشعرون.

حتى المفكر الإسلامي لم يسلم منه الفقيه، مع أن علاقتهما ينبغـــي أن تكون علاقة تكامل لا تضاد؛ فـــكلٌّ يعمل في حقله،

والمحصلة النهائية خدمة هذا الدين، ولا أعمم القول على جميع المفكرين الإسلاميين؛ فهناك أفراد منهم هاجموا الفقهاء، وقد غالى بعضهم في هجومه؛ فجعل عقليَّة الفقهاء ومنهجيتهم هي السبب الأكبر في تخلُّف الأمة؛ ولذلك لا مخرج للأمة إلا بتغيير هذه العقلية ومنهجيتها في التفكير، ومنهم من كان أقل حدَّة لكنه اتهم الفقهاء بالبعد عن قضايا الأمة المفصلية والعكوف على قضايا جزئية؛ حتى وصفوا الفقهاء بأنهم علماء الحيض والنفاس، وأنهم بعيدون كلَّ البعد عن قضايا العصر.

وقد كان سبب هذا الهجوم تأثُّر بعض المفكرين الإسلاميين بالجدالات مع المخالفين، وانغماس بعضهم في القضايا الفكرية حتى يراها كلَّ شيء، بينما غيرها يكون هامشياً من وجهة نظره، حتى كانت لبعضهم آراء غريبة حول تجديد الفقيه وتكوينه.

إن تبادل الأدوار والتكامل بين المفكر والفقيه هو المطلب المُلِحُّ لمعالجة مشكلات الواقع المعقدة المتشابكة، ولكن من يستطيع فهم هذا أو استيعابه.

ينبغي لكلٍّ منهما أن يتوجه لدائرة اختصاصه التي يتقن علاجها؛ فإذا تداخلت الدائرتان عرفا بحنكة كيف يديران هذه المنطقة المشتركة بينهما، وأيهما أَوْلى بأن يبدي رأيه فيها إن احتاج لرأي واحد، أو يبديا سوياً بدون تضاد بينهما ما استطاعا إلى ذلك سبيلاً.

وقد يقال: ألا يمكن تقابلهما في مناطق مشتركة، أم أنهما على طرفي نقيض لا يمكن أن يلتقيا أصلاً؟

أو يقال: ألا يمكن أن يكون المفكر فقيهاً أو الفقيه مفكراً فيكون تناول القضايا يحمل البعدين فيزول الإشكال؟

الحقيقة أن الفقيه يختلف عن المفكر من حيث أدواتُه المنهجية وتكوينه المعرفي؛ فالفقيه مأخوذ من الفقه الذي هو مصطلح شرعي بالأساس وقد أخذ هذا اللقبَ لكونه مبيِّناً للأحكام موضحاً للحلال والحرام؛ فوظيفته بيان حكم الشريعة على المسائل النازلة بالناس والحوادث الطارئة فيهم، حتى سماه ابن القيم موقِّعاً عن رب العالمين، وَلْنرجع لشروط المجتهد الذي يمثل الذروة في المرتبة الفقهية لنعرف التكوين المعرفي لدى الفقيه فإننا سنجد أن الأساس والأصل والأهم في ذلك هو علمه بالكتاب والسُّنة، وحتى العلوم الأخرى المطلوب من الفقيه تحصيلها؛ إنما الغرض منها فهم الكتاب والسُّنة كعلوم اللغة وأصول الفقه، وغيرها.

ثم إن علم أصول الفقه قد رسم له المنهجية التي يسير عليها في تناول الأحكام؛ فالفقيه لا يسير عبثاً أو كلما ارتأى أمراً أفتى به؛ فهو لا يصدر إلا عن منهجية شرعية لا عن مجرد هوى أو تأمُّل.

بينما التكوين المعرفي لدى المفكر قد يساهم فيه عدد من العلوم التي تثري ثقافته حول القضايا التي يتناولها، وهو غالباً يلامس المعلومة دون الغوص فيها؛ لأن هذه هي وظيفته، وقد تتشكل بِنيَته المعرفية من معارف متعددة: كعلوم السياسة والاجتماع والفلسفة والأدب... وغيرها؛ حتى تكتمل لديه الصورة حين يريد وصف قضية معاصرة أو يقوم بطرح حلول لها.

كما أن الأدوات المنهجية والتحليلية قد تختلف من مفكر لأخر؛ فبينما يعتمد بعض المفكرين على بعض المناهج الفلسفية، يحاول آخرون إيجاد منهجيتهم الخاصة في تناول القضايا. أما المفكر الإسلامي فيحاول تأصيل فكرته بمنهجية شرعية، وهكذا.

وأيضاً قد لا ينطلق من منهجية وهذا هو حال كثيرين، بل يتأمل في القضية ثم يَصدُر عن قناعته الخاصة أو ما تميل إليه نفسه.

إن مجرد التأمل والتفكر أيسر بمراحل من التعلم والبحث عن الاستدلالات والحجج والبراهين، ومن السهولة بمكان على أي إنسان مهما كانت إمكاناته الثقافية متواضعة أن ينتقي رأياً من بين آراء متعددة أو ينشئ رأياً مستقلاً طالما كان بمنأى عن المطالبة بالأدلة والبراهين التي عنها صدر رأيه.

كما أن من إشكاليات الفلسفة أنها تمنح دارسها إحساساً بالقدرة على تقديم رأيه في كل قضية، وأنه بأدواته الفلسفية أقدر على تقديم الرأي الأصوب، كيف لا وهو يتكلم في أعقد الأمور؟ فما بالك بما هو دونها؟

لذلك إذا لم ينضبط الفكر بالكتاب والسُّنة، فالفوضى نتيجة حتمية له، كما أنه بانضباطه بنصوص الفقيه ورجوعه للفقهاء في ما يتعلق بأمور الشريعة، وجعله العالِم والفقيه عضداً ونصيراً له، يحقق بإذن الله الرؤية السليمة.

بين الفتور والملل، وبين الإقبال والأمل

الحمد الله العظيم، والصلاة والسلام على الرسول الكريم، أما بعد:

فإن داء الغفلة هو ذهول القلب عن ذكر الله - تعالى - سواء بالقلب أو اللسان أو الجوارح، وضده اليقظة التي يصفها ابن القيم في مدارج السالكين بقوله: «أول منازل العبودية اليقظة؛ وهي انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغافلين، ولله ما أنفع هذه الروعة وما أعظم قَدْرها وخطرَها، وما أشد إعانتها على السلوك؛ فمن أحس بها فقد أحس - والله - بالفلاح؛ وإلا فهو في سكرات الغفلة فإذا انتبه شمَّر لله بهمته إلى السفر إلى منازله الأولَى وأوطانه التي سبي منها».

فإذا وجدنا إنساناً يَجُد السعي في سبيل الخير ابتغاء مرضاة الله ورغبة في ما عنده فهو متيقظ. أما الآخر الذي يعيش في اللهو والضياع غافلاً عن طاعة الله وعبادته والتقرب له، منغمساً في قضاء أوطاره وشهواته، دون أن يحدد هدفه من هذه الحياة، فهو الغافل.

وإذا كان الإسلام أباح للمؤمن التمتع بما أحل الله له من الدنيا، فلا بد أن ننتبه إلى كون هذه المتع إنما هي وسيلة للآخرة وعون لنا في الطريق، وليست هي الغاية ولا المراد. قال - تعالى -: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

أما داء طول الأمل، فهو غفلة المرء عن الموت والبعث والنشور؛ فيعيش في الدنيا كأنه خُلق للدنيا؛ فلا يعجل بنفسه إلى الطاعة بل تجده عند الطاعات شأنه التأني والتسويف زاعماً الحكمة والرزانة، وتالله إن هي إلا الخفة والحماقة. وأما شأنه في الملذات العجلة والإقبال زاعماً اغتنام الفرص؛ فإن الدنيا تؤخذ غلاباً، وما أجمل قول ابن القيم في الفوائد: «كم جاء الثواب يسعى إليك فردَّه بواب سوف ولعل وعسى».

فكم يترك المرء من الطاعات من واجبات ونوافل مؤجَّلة معلَّقة؛ لأنه لا يشعر بدنوِّ أجله؛ بل الحياة أمامه ممتدة جميلة خَضِرة لن تنتهي. نسأل الله العفو والعافية والسلامة.

وأما قليل الأمل، فهو الذي يصبح ويمسي في طاعة الله خشية أن يباغته الموت وهو على غير الطاعة؛ صمته وحديثه طاعة، بسمته وتقطُّب حاجبيه عبادة، قد جمع همَّه في الآخرة فجمع الله عليه شملَه وأتته الدنيا وهي راغمة.

فهذا يتعجل الطاعات ويُكثر ومهما زاد، فهو قليل يقرِّبه لعظيم. ويتقلل من الدنيا ويؤجلها غير متشرِّف لها ولا متعجل فيها، وهذا الشعور هو الزهد السُّني النابع من داخله؛ لأنه يُعمِل فكرَه فيرى حقارة الدنيا وشرف الجنة، فيضنُّ بوقته وجهده في تحصيل الحقير ويجود بوقته في تحصيل الخير الوفير. وخير مثال لهذا قصة الصحابي الجليل عمير بن الحمام في غزوة بدر وقد دنا المشركون. فقال رسول الله ﷺ: («قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض». قال الراوي: يقول عمير بن الحمام الأنصاري: يا رسول الله! جنة عرضها السماوات والأرض؟ قال: «نعم». قال: بخ بخ. فقال رسول الله ﷺ: «ما يحملك على قولك بخ بخ؟». قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها! قال ﷺ: «فإنك من أهلها» فأخرج تمرات من قرنه. فجعل يأكل منهن. ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه، إنها لحياة طويلة. قال فرمى بما كان معه من التمر. ثم قاتل حتى قُتِل)[1].

وأما الملل، فهو الفتور الذي يعترينا لقلة همَّتنا فَنَمَل الطاعة ولا نشعر بحلاوتها في أجوافنا، ولا نجد لها اللذة التي تُعَد حافزاً للاستمرار؛ وما هذا إلا لضعف عمل القلب أثناء العمل، وغفلتنا عن استحضار النوايا الطيبة، وغفلتنا عن تعلُّق القلب بالله - تعالى - قبل العمل وأثنائه.

إن كل هذه الأمراض لها العديد من الأدوية؛ فيتخير المرء ما يستطيع منها وما ينشط له ويعتبره عملاً إضافياً مع ما يمارسه من طاعات، وفي كلٍّ خير.

فيبدأ بالتدرب والاستمرار على الطاعة ومجاهدة النفس مهما شقت عليه. قال - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وهذا يُعَد من الأساسيات.

ثم مطالعة قصص الأنبياء والسلف الصالح من الصحابة والعلماء والوقوف على همتهم وعلوِّ شأنهم وثباتهم.

كذلك طلب العلم من أهم ما يُتوَصَّل به إلى مجاهدة النفس؛ فيستمع المرء إلى المحاضرات التي تتناول طُرُق زيادة الإيمان وأعمال القلوب: من رضى وصبر ومحبة وإنابة وتوبة وخشية، أو التي تتناول شرح أسماء الله - تعالى - فيعرف العبد قَدْر نفسه وقَدْر مولاه وسيده وربه، ويعتني بالقراءة في كتب التفسير المبسطة كتفسير السعدي، وكذلك إدمان النظر في كتب ابن القيم.

ومع ذلك فلا بد من الاهتمام بمعرفة ثواب الأعمال التي يُقدِم عليها فيعينه ذلك على أن ينشط لها، مع مراعاة أعمال القلب والجوارح وأعمال العبادات والأخلاق بحسب المواقف التي يتعرض لها الإنسان في حياته؛ فإذا وجد موقفاً يحتاج للتواضع تواضَع، وإذا صدر منه إعجاب بالنفس أو كِبْر تراجع.

أوَ لا أدلكم على ملاك الأمر وزمامه وخطامه؟

إنه الثبات على تدبُّر وِرْد من كتاب الله يومياً والقيام بين يدي الله خاشعاً ذليلاً في الأسحار؛ فكما قال ابن القيم في الفوائد: «لو تنسَّمتَ عبير الأسحار لأفاق منك قلبُك المخمور».

والمرء في كل ما سبق لا بد أن يعرف أن هذه الحالات درجات، وأن عليه أن يتدرج فيها ويتخير منها حتى يسدد ويقارب.

أسأل الله - تعالى - أن يرزقنا علوَّ الهمة وحب الطاعة.

سارة بنت محمد حسن

(١) رواه مسلم.

شعبية الإسلاميين... متى تساوي صفراً؟

أحمد فهمي
afahmee@hotmail.com

كيف تقاس شعبية الإسلاميين على اختلاف توجهاتهم في الدول الإسلامية؟

على الرغم من التقنية والإنترنت وثورة «الميديا»، فإن قياس توجهات الرأي العام في العالم الإسلامي لا يزال قابعاً في العصر الحجري، إذا ما قورن بما يحدث في دول غربية؛ حيث تصل دقة استطلاعات الرأي إلى إعطاء نتيجة تقريبية للانتخابات قبل انتهائها.

وفي المقابل فإنه حتى نتيجة الانتخابات نفسها في دول عربية، لا تعطي تقديراً حقيقياً لتوجهات الرأي العام؛ وإنما تعبِّر عن تفضيلات القوى السياسية المسيطرة.

في هذا الخضم تبدو شعبية الإسلاميين لغزاً غير قابل للقياس في الوقت الحالي؛ إذ يمكن فقط تلمُّس بعض المؤشرات من هنا وهناك، مثل: التجمعات الشعبية، وانتشار سمات التدين، والإقبال على الكتب الدينية في معارض الكتاب، وشعبية بعض الدعاة والعلماء... إلخ.

وتعد نتائج الانتخابات من أهم المؤشرات التي يمكن من خلالها قياس شعبية الإسلاميين، أو على الأقل بعض تياراتهم، ولكنه قياس غير دقيق في حدِّه الأعلى؛ أي أنه يعطي تقديراً أقل من الحقيقي بسبب الإشكالات المعهودة حول نزاهة الانتخابات، وقدرة الإسلاميين على تقديم مرشحين في جميع الدوائر، وتدنِّي نسب المشاركة الجماهيرية.

إن التفسير البسيط لغياب (أو تغييب) المعلومات الإحصائية حول هذه القضية، هو أن هذه المعلومات لا تدعم موقف خصوم الإسلاميين، وإلا فلن يكون هناك أي فائدة في حجبها أو منع الوصول الحر إليها؛ فإذا كانت الحقيقة هي تواضع شعبية الإسلاميين، فإن ردَّ فعل خصومهم سوف ينطلق من مفهوم: (انشر تؤجر). أما إذا كانت العكس، فإن القاعدة الذهبية هي: (ليس كلُّ ما يُعرَف يقال).

بدلاً من القياس الحيادي يلجأ خصوم الإسلاميين - خاصة في مواسم الانتخابات - إلى استخدام مصطلحات وعبارات تقليصية مثل: أقلية، لا يعبِّرون عن الشعب، الجماهير أصبحت واعية بأهدافهم ومقاصدهم... إلخ.

ويستخدم هؤلاء معيار الانتخابات بطريقة لا تخلو من طرافة؛ فنتيجة الانتخابات تعكس شعبية الإسلاميين في اتجاه واحد، هو خسارة المقاعد تعني تدهور الشعبية؛ بينما الفوز بعدد كبير من المقاعد لا يعني تزايد شعبيتهم، بل كل ما في الأمر أنهم يجيدون التنظيم والتنسيق وحَشْدَ الأتباع، أو بتعبير محمد حسنين هيكل فإن الإسلاميين يفوزون لأن «بحر السياسة فاضي ما فيش فيه حاجة أبداً، راحوا للإسلام هو الحل.. اتجهوا إلى الملكوت الآخر الذي يَعِد بهذا»[1]؛ فإذا فازوا في دورة انتخابية فلأن منافسيهم تكاسلوا وهم نشطون، ثم إذا خسروا في الدورة التالية؛ فلأن الشعب أدرك حقيقتهم. إن المأزق هنا أنه لو فاز الإسلاميون في دورة ثالثة؛ فماذا سيكون التفسير؟

من التفسيرات المتكررة لخسارة الإسلاميين في الانتخابات: أنهم لا يملكون برنامجاً انتخابياً واضحاً؛ ولذلك أدرك الناخب مدى خَوائهم السياسي فأعرض عنهم.

تلك هي النكتة؛ فهم يفترضون أن الناخب العربي يجلس متربعاً في بيته معه كوب من الشاي وأمامه برامج الأحزاب المترشحة، وبعد قراءة متأنية يقرر أيَّ حزب سيرشِّح بناءً على البرنامج الذي قرأه. ليس ذلك فقط، بل إن هذا «الناخب الألمعي» يعيد تلك الجلسة من جديد بعد أربع سنوات بغرض التقويم ومعرفة أي الأحزاب التزم بالبرنامج وأيها كان مخادعاً.

إن هذه الصورة الخيالية لا تحدث حتى في الديمقراطيات

(١) محمد حسنين هيكل، المشهد الدولي والعربي، ج٣، الجزيرة نت ١٦ - ١٢ - ٢٠١٠م.

الغربيـــة؛ فعندمـــا يتنافس المرشـــحون في انتخابات الرئاســـة الأمريكيـــة – على ســـبيل المثال – فإن المفاضلـــة بينهم تكون في بنـــود معيَّنة يَعِدُ بها كل رئيس ويُضَمِّنُها برنامجَه، وتتمحور حولها التغطيـــة الإعلامية واهتمامُ الرأي العام، مثل: التعليم، الضرائب، التأمينات، الحـــرب في العراق وأفغانســـتان، تأمين فرص عمل جديـــدة، الإجهاض... إلخ. نعم، قد تهتم شـــرائح مثقفة نخبوية بالنســـخة الكاملة من البرنامج السياســـي، لكنهـــم يظلون أقلية والأغلبيـــة تحكم من خلال المؤشـــرات الســـابقة، ولذلك يُبرِزها مرشحو الرئاسة ويجعلونها محوراً لحملاتهم الانتخابية.

الحقيقة الغائبة إذن: هي أن الإســـلاميين يتمتعون بشعبية واسعة متزايدة؛ سواء خسروا الانتخابات أم كسبوها، وهذا يصل بنا إلى السؤال التالي: ما هي أسباب شعبية الإسلاميين؟

ترتكز شعبية الإسلاميين على ثلاثة عوامل أساسية، هي: تبنِّي قضية الإسلام، والتضحية والاضطهاد، وحسن السيرة والسلوك:

• فلأنهم يحملون قضية مشـــتركة مع الجماهير، هي قضية الديـــن الذي هو أســـاس الحياة، فإنهم يكســـبون محبة الناس وتعاطفهم؛ ســـواء كان الناس قريبين من التدين، أم بعيدين عنه؛ فكثير من المســـلمين يجدون في تأييدهم للإســـلاميين ودعمهم فـــي صناديق الانتخابات – مثلاً – نوعاً من التعويض عن ضعف تديُّنهم، وهذه مزية تفتقدها الأحزاب العَلمانية.

• أمـــا الاضطهاد الناجم عن التضحية من أجل القضية، فإن تأثُّر الرأي العام وتعاطفه مع المضطهدين أمر ملاحَظ ومشهود؛ سواء مع الإسلاميين أو غيرهم؛ خاصة إذا كان الاضطهاد بسبب التمسك بعقيدة أو مبدأ أو قيم أيّاً كان مصدرها.

• أما حُسْن السلوك، فلا مجال لإنكار أن الإسلاميين يحظون بسمعة جيدة في مختلف المجالات التي يشاركون فيها، وأي مقارنة حيادية بين أدائهم وأداء منافسيهم فستثبت جدارتَهم؛ على الرغم من السلبيات والأخطاء التي يقعون فيها.

بينما علـــى الجـــانب الآخـــر المنافس، فأننا نجد عكس ذلك تماماً في ما يتعلق بأسباب اكتساب الشعبية:

فهم لا يكتفون بنبذ الدين من برنامجهم، بل ينكرون على من يرفع رايته بحجة أنه لا دين في السياسة، وأن الدين أشرفُ من أن يُهتَك ســـتْره بدسائس السياسة وخبائثها، وهذا اعتراف بأن السياســـة الحالية تفتقد إلى معايير الشرف، وليس أفضل من الدين لغسل وتطهير من فَقَد شرفه.

وبعضهم يقدم أعذاراً واهية لنفي الدين من الواقع السياسي، ففي مصر – على ســـبيل المثال – يقولون: إنه لا يمكن الســـماح برفع شعارات دينية مثل: (الإسلام هو الحل)؛ لوجود أقلية قبطية ترفض أن يكون الإســـلام حلاً لمشـــاكلها؛ فماذا يكون الحل إذن؟ العَلمانيـــة هي الحل... (اللا دينيـــة) هي الحل... لكن أليس في ذلك إهدار وتجاوز لاختيار الأغلبية مراعاة لاختيار الأقلية؟

إن الديمقراطية كما يطبقهـــا مخترعوها في الدول الغربية تعني أن يقول الشـــعب كلمته من خلال نوابه، وأن تلتزم الحكومة وكلُّ مؤسســـات الدولة بتنفيذ كلمة الشـــعب؛ فـــإذا جاء البرلمان الفرنســـي – مثلاً – وقرر بأغلبية ساحقة أن يسحب الجنسية من المسلمين في فرنسا ويطردَهم إلى بلادهم الأصلية، فلن يستطيع أحد الاعتراض، حتى الدستور يمكن تغييره بهذه النسبة؟ وإذا جاء برلمان جديد في العام الذي يليه وقرر إعادة هؤلاء مرة ثانية، فلا يمكن الاعتراض أيضاً... هذه هي الديمقراطية.

إن القضيـــة باختصار: هـــي «كراهية للدين» بدعـــوى «احترام الدين». يقول محمد حسنين هيكل: «الإسلام ملك كل الناس، الإسلام ملك التقدم، ملك الإنسانية، ملك البشرية؛ لكن أرجوك لا تدخله في قضايا الخلاف»[1]. إن هذا القول يتناقض تماماً مع كون الإسلام هو الحل للقضايا الخلافية والمنازعات، كما قال – تعالى –: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَـيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، وقال – جل شأنه –: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠].

إنهم جعلوا الإســـلام كالميت، إكرامه في التعجيل بدفنه، بينما إكرام الإســـلام حقيقةً في التعجيل بنشره وتطبيقه. إنهم يرفضون التعاطي مع أي نموذج إســـلامي مهما بلغت درجة «اعتداله» حتى النموذج التركي الذي يقبل بالدور السياسي للمرأة، ويقيم علاقات مع الكيان الصهيوني، ويحترم العَلمانية، ويســـعى لعضوية الاتحاد الأوروبي، هو نموذج مرفوض تماماً بالنسبة للعَلمانيين العرب.

أما الحديث عن التضحية والاضطهاد فلا مجال له. والحال أن هؤلاء هم من يضطهدون الإسلاميين.

العامل الثالث في اكتســـاب الشـــعبية هو: حســـن الســـير والســـلوك. ومظاهر الفســـاد المستشـــرية في كثير من الدول الإسلامية خير شاهد على سِيَرهم وسلوكهم.

إذن: متى تساوي شعبية الإسلاميين... صفراً؟

الحل ســـهل وميســـور، والدعوة مفتوحة أمـــام العَلمانيين لتطبيقه على الفور:

أولاً: عليهم أن يســـلبوا الإســـلاميين نقطة قوَّتهم الرئيسة، وهي: حمل قضية الإســـلام، أو على الأقل يزاحموهم فيها بأي شعار يريدون ووَفْقَ أي نموذج موجود في الساحة.

ثانيـــاً: ليس مطلوباً منهم أن يتعرضـــوا للاضطهاد، وهذه مزية مشمولة ضمن العرض.

ثالثاً: مطلوب منهم أن يتوقفوا عن الفساد فترة زمنية كافية حتى يقتنع الناس بهم ويصدقوا توبتهم.

في هذه الحالة إذا نُفِّذت الشـــروط السابقة، فأتوقع جازماً أن يتحـــول الناس في أي انتخابات – برلمانية أو رئاســـية – لاختيارهم، مُعرِضين في الوقت نفســـه عن الإسلاميين الذين سيفقدون بريقَهم وشعبيتهم، لكنهم لن يخسروا، بل سيكونون هم الفائزون؛ ولكن على طريقة غلام الأخدود: (إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك).

---

(١) المرجع السابق.

مجلة البيان

جديد مجلة البيان

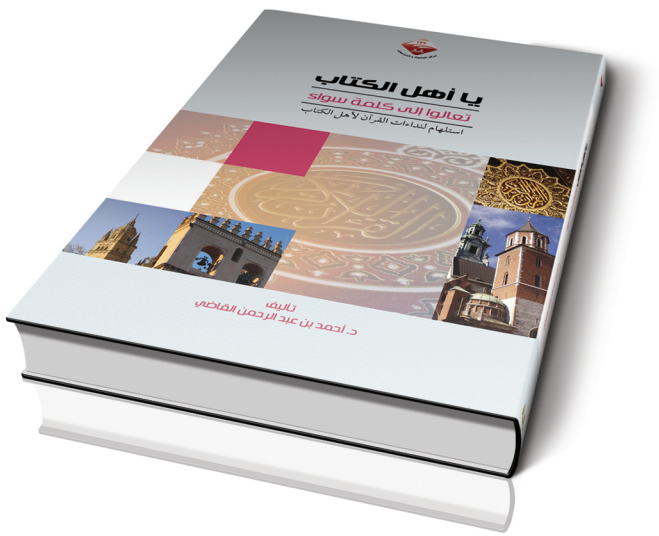

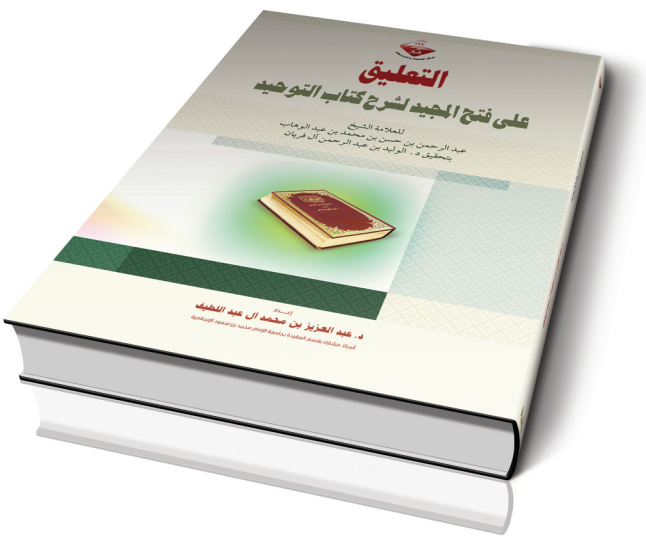

www.albayan.co.uk

الريـــــاض: ـ هـــــاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحـــــويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فـــــاكس: ٤٥٣٢١٢١
التـــوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ـــ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ـــ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥
جـــدة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكـــة والمديـــنة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقـــة الجنوبيـــة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨
المنطقـــــة الشرقيـــــة: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقـــــة القصيـــــم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦